كتاب الاعتبار

لأسامة بن منقذ

وهو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

كتاب الاعتبار

لأسامة بن منقذ

وهو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري

حرّره

فيليب حتي، د. ف.

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد . القاهرة
فرع : ١٤ ميدان العتبة بالقاهرة
تليفون : ٩٢٢٦٢٠-٩٣٦٢٧٧



ENTRANCE TO THE CASTLE OF SHAYZAR

View taken from east of the Castle, showing the remains of the Bridge and the Orontes encircling the Castle on almost three sides.

قلعة شيزر كما هي اليوم. آثار الجسر القديم ظاهرة على شاطىء العاصي

محتويات الكتاب

الباب الاول

حروب واسفار

الباب الثاني

نكت ونوادر

الباب الثالث

اخبار الصيد

مقدمة المحرر

في العام الذي تلا فيه البابا اُوربانوس الثاني في كلارمونت خطابه المحسوب بحق وباعتبار نتائجه الصليبيّة أفعل خطاب في التاريخ، وُلد لبني مُنْقذ الأمراء في شَيزر على العاصي (وذلك في ٢٧ جمادى الآخر سنة ٤٨٨ المقابل ٤ تموز ١٠٩٥) صبيّ أطلق عليه والداهُ اسماً تحلّى به في صدر الاسلام أوّل قائد عربيّ عُهد اليه أمر فتح الشام(١)، وكان قد ورد في الرُّقم الحِميريّة السابقة للاسلام(٢). ذاك هو اُسامة بن مرشد بن عليّ بن مقلّد ابن نصر بن مُنقذ مؤلف كتابنا هذا وبطل روايته

عاش اُسامة شهماً فارساً، وزها مجاهداً مقاتلاً، ولمع أديباً وشاعراً. تلهّى صيّاداً، وقضى الكثير من سنيه جوّاباً. نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماه، وصرف معظم شبابه في البلاط النُّوريّ بدمشق، وفي قصر الخليفة الفاطميّ بالقاهرة، وغالب

(١) أسامة بن زيد بن حارثة

(٢) في متحف اللوفر بباريز حجر أتى به مس صنعاء الرحّالة بركهـا ردت عليه كتابة بالقلم المسند تضمّنت اسم «أسامة بن عامر». راجع M. Lidzbarski, *Ephemeris für Semitische Epigraphik* (غيسين ١٩٠٢) ج١ ص٢٢١ – ٢٢٢

سني كهولته في الدار الاتابكيّه بالمَوصل وفي حصن كيفا علـى دجلة

زار بيت المقدس في فلسطين، وحجّ الـى الحَرَمَين، وتنقّل بين معظـم العواصم الاسلاميّة مـن مدنيّة ودينيّة٠ عاشر نـور الدين، وتصيّد مع زنكي، وصاحب الخليفةالحافظ وخلَفهالظافر٠ تعرّف شخصياً ببوهمند وتنكرد وفُلك من الافرنج الصّليبيّين وخصّه قُبيل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً قمريًّا صديقه صلاح الدين الأيوبـيّ بعطفه٠ آخى الافرنج ـ ولا سيما الفرسان منهم ـ فـي حيـن السّلم وقاتلهم فـي حـال الحرب، كمـا قاتل غيرهم مـن الاسماعيليّة وسائر العرب ـ فضلاً عن الأُسد والوحوش٠ وأخيراً في اواخر ايام حياته دوّن لنا كل ما خبره بالذات، وعرفه من مصادره الأصليه، في مذكّرات شائقة رائعة قلّ نظيرها ـ من حيث الأمانة في النقل، والصدق في الرواية، والدقة في الملاحظة، والنكهة في التعبير ـ في مجمل آداب اللغة العربية

فحياة اُسامة اذن تمثّل لنا الفروسيّة الاسلامية العربية على مـا ازدهرت في ربوع الشام فـي اواسط القرون الوسطى والتي بلغت حدّها الكامل في صلاح الدين، وسيرته تتضمّن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر ـ قرن التجريدات الصليبيّة الثلاث الأولى،

ومذكّراته الموسومة «كتاب الاعتبار» مرآة تتجلّى فيها المدنيّة الشاميّة في اجلى مظاهرها ـ وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل بالمعارضة مع المدنيّة الافرنجيّة التي قامت الى جانبها

ولو ان اُسامة عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً عاملاً في المجمع العلميّ العربيّ، ولكان بيته «صالوناً» للادب بدمشق، ولراسل «الهلال» و «المقطّم» ولأكثر من العيش في الهواء الطليق يدرس طبائع الحيوان ويرقب نموّ النبات، ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت، ولكان بلاتردّد في أثناء الحرب العظمى دَيْوَنَ فرقة من المتطوّعة تولّى قيادتها بنفسه

على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشمال من حماه أكمة صخريّة منتصبة على ضفّة العاصي الغربيّة يكلّلها حصن لم يزل قائماً لليوم معروفاً باسم «سَيْجَر» تحريف «شَيْزَر». شَيْزَر هو المرسح الذي تمثّلت عليه معظم الحوادث المدوّنة في الكتاب والتي جرت وقائعها في أيام اُسامة الفتى. الهضبة لنتوئها سمّاها مؤلفو العرب «عرف الديك». نهر العاصي يلتف حول الأكمة من جهاتها الثلاث، فهي اذن شبه جزيرة بوضعيّتها الجغرافيّة. غير ان الانسان اكمل عمل الطبيعة بحفره خندقاً في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبرّ ممّا زاد في مناعة الحصن وفي تعذّر الوصول اليه.

وشيزر اثنان: قسم واقع ضمن القلعة على الرابية وهو «البلد»، وقسم قرب الجسر على العاصي وهو «المدينة»· وللقلعة ابواب ثلاثة اهمُّها يفتح نحو الجسر· وعلى الجسر حصن اُطلق عليه اسم «حصن الجسر»

اذا غزا غازٍ البلاد السوريَّة من الشمال فامامه طريقان: طريق بحريَّة تمرُّ في اللاذقية فالساحل الفينيقيّ ــ وهي الطريق التي اختارها الاسكندر وكثير من الغزاة الاشوريّين، وطريق داخليَّة تماشي العاصي الى حماه فحمص ثم تنعطف غرباً مع وادي النهر الكبير حتى البحر شمالي طرابلس، أو انها تستمرّ من حمص في سهل البقاع وتتصل اخيراً بالساحل الغربي جنوباً عند أقدام سلسلة لبنان· الطريق الثانية هي التي سلكها معظم الفاتحين المصريّين والبابليّين من مثل رعمسيس ونبوخذنصَّر وهي التي آثرها اكثر الصليبيّين· ولا بدّ لمن طرق هذه الطريق الثانية من الاجتياز بأفامية (قلعة المُضيق) وباختها الجنوبيَّة شيزر المسلطنة على وادي العاصي· هذا ما يجعل لموقع شيزر خطورة حربيَّة

لشيزر اسم في رأس قائمة المُدن السوريَّة المتوغّلة في القدم· ذكرها طُثميس للمرّة الاولى بالهيروغليفيَّة نحو سنة ١،٥٠٠ ق·م·، في عرض وصف احدى حملاته من مصر، باسم «سِنْزار»

أو «سِيزْار»٠ وذكرها بعده خلَفه البعيد عمنحوتب الثاني(٣)٠ ووردت بصيغة «زِنْزار» فـي رُقم تـلّ العمارنـه المسماريّـة٠ وسمّاها اليونان الاقدمون «سِدْزارا» والبيزنطيّون «سِيزِر»٠ وفـي اواخر القرن الرابـع قبل المسيح أسكنهـا سلوقس الأول مهاجرين من لارِسّا في ثساليا وغيّر اسمها الى «لارِسّا»٠ على ان الاسم الساميّ الاصليّ ما لبث أن عـاد فتغلّب وظهر بالعربية في صيغة «شيزر»٠ وعلى هذه الصورة ورد الاسم فـي بيت قديم لامرىء القيس:

تقطّعَ أسبَابُ اللُّبانةِ والهَوى
عشيّةَ رُحْـنا من حَماةَ وشَيزرا

وفي آخر لعبيدالله بن قيس الرُّقَيّات:

فواحَزَنا إذ فارقونـا وجَاوروا
سوى قومهـم أعلى حماةَ وشَيزرا(٤)

أمّا مؤرخو الافرنج الصليبيّون فاطلقوا عليهـا اسم "Caesarea" ـ قيصرية٠ واحياناً قيصرية العاصي للتميز

فتَح العرب شيزر عام ١٧ (٦٣٨) فيما فتحوا من المدن الشامية،

(٣) J. H. Breasted, *Ancient Records of Egypt* (شيكاغو ١٩٠٦) ج٢ فقرة ٥٨٤ و٣١٤

(٤) ياقوت «معجم البلدان» (لبزغ ١٨٦٨) ٣:٣٥٣

وذلك عقب الاستيلاء على حمص وحماه بقيادة ابي عُبيدة ابن الجراح، فتلقاه اهل شيزر «يكفرون ومعهم المقلّسون، ورضوا بمثل ما رضي به أهل حماة»(٥)۰ انما البلدة لأهميّة موقعها الجغرافي، وباعتبار كونها مفتاح سوريّة الداخلية، بقيت مطمح أبصار البيزنطيين الذين استخلصوها مراراً من ايدي العرب وخسروها، الى ان اخضعها الامبراطور باسيل الثاني سنة ٩٩٩ وبقيت بيد الروم حتى عام ۱۰۸۱۰ وهو العام الذي استرجعها فيه عزّ الدولة سديد المُلك ابو الحسن عليّ، جدّ اُسامة، من أيدي الامبراطور ألكسيس كومنينوس

وكان صالح المِرْداسيّ، صاحب حلب، قد منح الأُمراء المُنقذين من بني كِنانة عام ۱۰۲٥ إقطاعاً في جوار شيزر۰ فتمكّن أحد هؤلاء الأُمراء، مقلّد، من الاستيلاء على كفرطاب سنة ۱۰٤۱۰ وجاء بعده خلَفه أبو المتوّج مقلّد بن نصر الذي بسط سلطته الى العاصي وبنى حصن الجسر عند قدمَي شيزر ليقطع عنها المدد۰ ولكنّ البلدة بقيت بيد البيزنطيّين الى أيام سديد المُلك۰ فسديد المُلك اذن هو مؤسس الدولة المنقذيّة بشيزر۰ ولدن وفاته عام

(٥) البلاذري «فتوح البلدان» (ليدن ١٨٦٦) ص١٣١

١٠٨١ عقبه ابنه عزّ الدولة ابو المُرْهَف نصر(٦)، وهو مع اشتهاره بالورع وحبّ السلام تولّى الى حين، وفيما سوى شيزر، أفامية و كفرطاب واللاذقيّة

تُوفي ابو المرهَف بلاعَقب عام ١٠٩٨، فتحدّرت الإمارة من بعده الى أخيه الاصغر مجد الدين أبي سلامة مرشد (١٠٦٨ ـ ١١٣٧) والد مؤلّف كتابنا اُسامة٠ ولكنّ مجد الدين شُغف بالصيد ونسخ القرآن أكثر من السياسة، فتنازل عن السيادة لأخيه الاصغر عزّ الدين ابي العساكر سلطان مردّدا «والله، لا وليتُها٠ ولأخرجنّ من الدنيا كما دخلتُها»(٧)

في أثناء إمارة سلطان، عمّ اُسامة، كانت شيزر عرضة لغزوات متتابعة من بني كلاب في حلب، ومن الاسماعيلية (الحشّاشين)، ومن الروم البيزنطيّين، ومن الافرنج الصليبيّين٠ رشقها الامبراطور جان كومنينوس عام ١١٣٨ بالمنجنيق عشرة أيام متوالية٠ وحاول الافرنج تكراراً الاستيلاء عليها، ولكن على غير جدوى٠ مناعتها الطبيعية، وحصونها المتينة، وزعامتها المنقذية أنقذتها كل مرّة من السقوط

(٦) فصّل ذلك كله ابن الاثير «كامل التواريخ» في *Recueil des historiens des croisades historiens orientaux* (پاريز ١٨٧٢) ١٠٤٠٥

(٧) ابو شامة «كتاب الرّوضتَين في أحبار الدولتَين» (مصر ١٢٨٨) ١:١١١ ـ ١١٢٠ وابن الأثير في *Recueil* ١ ٤٠٥

وفي خلال إمارة سلطان جرت أكثر الحوادث التي دوّنها أُسامة في مذكّراته، وهو شاهد عيان لها، فخلّد وقائعها وجعلها إرثاً لنا. ومع ان أُسامة كان احد اخوة اربعة، هو ثانيهم، فان عمّه سلطاناً، الذي لم يكن له أوّلاً ولد ذكر، استخصّ أُسامة بعطفه ورعايته، ودرّبه على الفنون الحربيّة، وكان يمتحن بالسؤال حضور ذهنه في ساعة القتال (ادناه ص١٠٠). وعلى الجملة انشأه تنشئة من يريد ان يجعل منه خلَفاً له. وكثيرة كانت المهمّات الشخصيّة التي عهد سلطان بها لابن أخيه، من مثل رفقة زوجة عمّه واولادها من شيزر في أيام الحرّ الى مصياث (أدناه ص١٤٨). أما بعد أن رُزق العمّ ولداً يخلفه فوجهة نظره نحو ابن أخيه تغيّرت، والحسد اخذ يعمل عمله فيه، ممّا جعل أُسامة الشاب يغادر شيزر موقتاً عام ١١٢٩، ونهائياً بعد وفاة والده اخي سلطان في ٣٠ أيار سنة ١١٣٧. وكانت جدّة أُسامة(٨) لأبيه قد حذّرته مرّة من عمّه، وقد رأت حفيدها داخلاً البلدة مساء وبيده راس أسد ضخم كان قد اصطاده، فأسدته النّصح بشان تاثير عمل كهذا في نفس عمّه بقولها «ما يقرّبك هذا منه، وانه يزيدك منه بعداً ويزيدهُ منك وحشة ونفوراً» (ادناه ص١٢٦). وبرغم ذلك فـ« كتاب

(٨) والدة اسامة في ابن الاثير «تاريخ الدولة الأتابكيّة» في *Recueil* (باريز ١٨٨٧) ج٢ جزء٢ ص٢٠٠

الاعتبار» (ص٧١) يحفظ لنا نكتة تمثّل شهامة سلطان. وخلاصتها ان امراة كان قد تزوّجها سلطان وطلّقها فوقعت اسيرة في يد الافرنج، ففكّ للحال أسرها وسلّمها لاهلها قائلاً «ما أدع امرأة تزوجتُها وانكشفتْ عليّ في أسر الافرنج»

تُوفي سلطان حوالى عام ١١٥٤ فخلَفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمَّد، وهو آخر الأُمراء المنقذين. في أيّامه تمثّلت على مرسح شيزر مأساة مفجعة قضت على بني منقذ باسرهم. بمناسبة اختتان ولد لتاج الدولة أولم الوالد وليمة حضرها جميع آله، وفي اثنائها حدث الزلزال الشهير عام ٥٥٢ (١١٥٧) الذي «هلك فيه ما لا يُحصى» والذي خرّب «بالمرّة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرّة وحمص وحصن الاكراد»(٩) «ولم ينجُ من بني منقذ أحد»(١٠) سوى زوجة تاج الدولة التي انتُشلت من تحت الردم. الا انّ نور الدين، صاحب دمشق، عاد فعمَّر شيزر

التأثير الاكبر في نفسيَّة اُسامة كان لعمّه سلطان، وبعده لوالده صورة الوالد التي أبقاها لنا اُسامة في مذكَّراته تمثّله لنا رجل تقوى وسلام لا تهمُّه شؤون هذا العالم الفاني، يفرغ «زمانه لتلاوة

(٩) ابن الأثير في *Recueil* ١: ٥٠٣
(١٠) ايضاً ١: ٥٠٥ — ٥٠٦

القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله» (ادناه ص١٩٨)٠ وهذا يجب ألا يُفهم منه انه كان متقاعداً جباناً٠ ففي غير مكان يذكر اُسامة أن والده لم يكن «له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله» (ادناه ص١٩١)٠ ثم يقتبس عنه عبارة قالها لمّا حذّره ولده في معركة: «ياولدي في طالعي انني لا ارتاع» (ادناه ص٥٦)

ولنستشهد الآن ببعض الوقائع الدالّة على نوع التربية التي نربّاها اُسامة في ظلّ والده وعمه، وسرّها كلّها متضمَّن في تصريح اُسامة «ما رأيت الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر، مع ما كان يرى فيّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لي» (ادناه ص١٠٣)٠ اُسامة، وهو دون العاشرة، يطعن خادمه طعنة نجيء قاضية دون ان يستوجب سخط والده (ادناه ص١٤٥)٠ يباشر القتال وهو حدث يافع فيذكر كيف انه في اول قتال حضره حمل على افرنجيّ طعنه فخرج من السرج لخفة جسمه وقوة الطعنة (ادناه ص٤١)٠ يرى حيّة، وهو صبيّ، على حائط الدار فيتسلّق اليها ويأخذ يحزّ رأسها بسكّينه الصغير، وهي تلتفّ على يده، وابوه يراه ولا ينهاه (ادناه ص١٠٣)٠ تعود رهائن من افرنج وأرمن كانت في شيزر الى بلدها فتقع في أيدي صاحب حمص،

الاحلام آمن بها ووضع فيها كتابا خاصاً (ادناه ص١٨٦)

من أمتع فصول الكتاب وأطلاها فصل حلّل فيه اُسامة الأثر الذي أثّره في نفسه ـ وهو المسلم المحافظ ـ الافرنج الصليبيّون. ملاحظات ابن جبير واقوال ابن الاثير لها أهميتها. ولكنها لا توازي اهمية هذا الفصل المبني على اختبارات شخصية عديدة. الافرنج ـ في نظر المؤلف ـ لهم شجاعتهم، ولكنّهم خالون من «الغيرة» الجنسية (ادناه ص١٣٥). طبُّهم ساذج جاهل بالمعارضة مع الطب العربيّ على ما مثّله ثابت (ادناه ص١٣٢ ـ ١٣٣) وابن بطلان النصرانيّان (ادناه ١٨٣ ـ ١٨٥). محاكماتهم غبيّة غريبة (ادناه ص١٣٨ ـ ١٤٠). «مَن هو قريب العهد بالبلاد الافرنجيّة أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين» (ادناه ص ١٣٤). الكاتب لم يضنّ عليهم بلقب شياطين (ادناه ص١١٨ س ٢١ وص١٢٨ س١٤) و «كافرين» (ص١٢٨ س١٤ وص١٣٥ س ١٤) ولم يتردّد في استنزال لعنة الله عليهم (ص١٣٩ س١٤ وص ١٤٠ س١) عملاً بسنّة كتّاب ذلك اليوم، وفي الدّعاء الى الله تعالى كي «يطهّر الدنيا منهم» (ص١٣١ س٥). لذلك يلذّ لنا ان نسمع صديقاً افرنجياً يدعو اُسامة «ياا خي» (ص١٣٢ س٩) ويرجوه ان يسمح لابنه مُرهَف ان يرافقه الى بلاد الافرنج، وان

نرى اُسامـة يدعو الفرسان الداويـَّة (Templars) «أصدقائـي» (ص١٣٤ س٢٠)، ونـرى هؤلاء يُخلون له فـي المسجد الاقصى مكاناً صغيراً يصلـّي فيه اذا زار بيت المقدس

وفي الكتاب فضلاً عن ذلك اشارات وفيرة تنير لنا أحوال البلاد الشامية لذلك العهد مـن زراعية واجتماعية، وتعرض أمام بصائرنا الوانا شتـّى من صور الحياة السورية العربية٠ القطن كان من غلـّة كفرطاب (ص١٥١ س١٦)، غابات شمالـي البلاد الكثيفة كانت غنيـّة بالأُسـود والنمور والغـزلان وحُمُـر الوحش (ص١٠٥ ـ ١١٢ و١٩٢ ـ ١٩٣)، جلاء العروس (ص١٨٠ س٢) ـ على ما هـو متـّبع لليوم فـي لبنان ـ كان عادة مرعيـّة فـي القرن الثاني عشر، استئجار ندّابات تندب في المآتم (١١٥ س١٢) كان معروفاً يومئذٍ كما هو معروف اليوم

آخر فصول الكتاب (ص١٩٠ فما بعد) يتناول مسألة الصيد على ما مارسه أبناء ذلك الزمان بالبازي والصقر وبمعونة الكلاب، وذلك على شواطىء دجلة والفرات والعاصي والنيل٠ حتى صيد السمك بالطُرق العتيقة الساذجة لم يفت اُسامة فانه وصفها (ادناه ص٢١٧ ـ ٢١٨) كأنـّك ترى العملية بعينـَيك

مخطوطة « كتاب الاعتبار» هـي وحيدة لا أخت لها، علـى ما

نعلم، محفوظة فـي مكتبة الاسكوريال باسبانيا٠ وهي ٦٧ ورقه، ولكنّـها مخرومة الأوّل حيث ضاع منهـا ٢١ ورقة، فيكون أصلها ٨٨ ورقة٠ المخطوطة مكتوبة بالحبر الاسود بالخطّ الشامي الذي يرتقي الـى القرن الثالث عشر٠ فهي اذن مـن أقدم المخطوطات العربية التي اتصلت بنا

في خاتمة المخطوطة ما نصّه:

وكان في آخر الكتاب ما مثاله:
قرأتُ هذا الكتاب من أوّله الى آخره في عدّة مجالس على مولاي جدّي
الامير الاجلّ العالم الفاضـل الصدر الكامل عضد الديـن، جليس
الملوك والسلاطين، حجة العرب خالصة امير المؤمنين، أدام
الله سعادتـه٠ وسألته ان يجيزنـي روايته عنـه٠
فاجابني الى ذلك٠ وسطّر خطّه الكريم به٠
وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر
سنـة عشر(٣٩) وستمايـة٠
صحيح ذلـك٠ وكتـب
جدّهُ مرهف بن
أسامة بن
منقذ
حامداً
ومصلياً

التاريخ اعلاه، ١٣ صفر سنة ٦١٠ (٤ تموز سنة ١٢١٣) هو ليس تاريخ مخطوطتنا هـذه ـ كما وهـم درنبورغ(٤٠) ـ بل تاريخ

(٣٩) «عسره» في الاصل٠ قابل ادناه ص٢٢٦
(٤٠) في المقدّمة الافرنسية ص١٠ التي قدّم بها طبعة «كتاب الاعتبار»

فيشكره فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية اجفى اخلاقاً من الذين قد تبلدوا
وعاشروا المسلمين فمن جفا اخلاقهم قبحهم الله اني كنت اذا زرت البيت المقدس
دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة فكنت اذا دخلت
المسجد الاقصى وفيه الداوية وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه فدخلته
يوماً فكبرت ووقفت في الصلاة فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي الى الشرق
وقال كذا صلي فتبادر اليه قوم من الداوية اخذوه اخرجوه عني وعدت انا الى
الصلاة فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال كذا
صلي فعاد الداوية دخلوا اليه واخرجوه واعتذروا الي وقالوا هذا غريب وصل
من بلاد الافرنج في هذه الايام وما راى من يصلي الى غير الشرق فقلت حسبي من الصلاة
فخرجت فكنت اعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة
الى القبلة ٥ ورايت ______ واحداً منهم جاء الى الامير معين الدين رحمه الله
وهو في الصخرة فقال تريد تبصر الله صغيراً قال نعم فمشى بين ايدينا حتى ارانا صورة
مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها فقال هذا الله صغير تعالى الله عما
يقول الكافرون علواً كبيراً وليس عندهم شي من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي هو
وامراته يلقاه رجل اخر ياخذ المراة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج
واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى
ومما شاهدت ______ من ذلك اني كنت اذا جئت الى نابلس انزل في دار رجل
يقال له معز داره عمارة للمسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ويقابلها من جانب
الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار ياخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه
ويقول فلان التاجر قد فتح بتية من هذا الخمر من اراد منه شيا فهو في موضع كذا
وكذا واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة فجاء يوماً ووجد رجلاً
مع امراته في الفراش فقال له اي شي ادخلك الى عند امراتي قال كنت تعبان
دخلت استريح قال وكيف دخلت الى فراشي قال وجدت فراشاً مفروشاً
نمت فيه قال والمراة نائمة معك قال الفراش لها كنت اقدر امنعها من فراشها

Facsimile of Folio 41B of "Kitāb-al-I'tibār" MS in the Escurial

صحيفة ٤١ قفا منقولة عن مخطوطة «كتاب الاعتبار» المحفوظة فـي مكتبة الاسكوريال باسبانيا

قال وجدت في ابن خرب فعلت كذا خاصمت انا وانت فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ○
ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من اهل المعرة في حمام لوالدي
رحمه الله قال فتحت حماما في المعرة اتعيش فيها فدخل اليها فارس منهم وهم
ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام فمد يده جذب مئزري من وسطي
ورماه وراني وانا قريب عهد بحلق عانتي فقال سالم فتقربت منه فمد يده على عانتي وقال
سالم جيد وحق ديني اعمل لي كذا واستلقى على ظهره وله مثل لحيته مثل ذلك
في ذلك الموضع فحلقته فمرر يده عليه فاستوطاه فقال سالم وحق دينك اعمل
للداما والداما بلسانهم الست يعني امراته وقال لغلامه قل للداما تجي فمضى الغلام
احضرها وادخلها فاستلقت على ظهرها وقال اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك الشعر
وزوجها قاعد ينظر الي فشكرني ووهبني حق خدمتي ○ فانظروا الى هذا الاختلاف
العظيم ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة وما تكون الشجاعة الا
من النخوة والانفة من سوء الاحدوثة ○ ومما يقارب هذا اني
دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة فيها فقال لي بعض غلماني في الحمام امراة
فخرجت فجلست على المصاطب واذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد
لبست ثيابها وهي واقفة مع ابيها ولم اتحقق انها امراة فقلت لواحد من اصحابي
بالله ابصر هذه امراة هي واريد ان تسال عنها فمضى فلما راه رفع ذيلها
وتطلع فيها فالتفت اليه ابوها وقال هذه ابنتي ماتت امها وما لها من يغسل راسها
فادخلتها معي الحمام غسلت راسها فقلت جيد عملت هذا لك فيه ثواب ○
ومن عجيب طبهم ما حدثنا به غليام دبور صاحب طبريه وكان مقدما
فيهم واتفق انه رافق الامير معين الدين رحمه الله من عكا الى طبريه وانا معه فحدثنا في الطريق
قال كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجينا الى قس كبير من
قسوسنا فقلنا تجي معنا حتى تبصر الفارس فلان قال نعم ومشى معنا ونحن نتحقق انه
اذا حط يده عليه عوفي فلما راه قال اعطوني شمع فاحضرنا له قليل شمع
فلينه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة في جانب انفه فمات الفارس

Facsimile of Folio 42A of "Kitāb-al-I'tibār" MS in the Escurial

صحيفه ٤٢ وجه منقوله عن مخطوطه «كتاب الاعتبار» المحفوظه في مكتبة الاسكوريال باسبانيا

الأمّ التي نُسِخت عنهـا. نسختنـا اذن غير مؤرَّخة، ولكنهـا منقولة عن مخطوط كُتب بعد وفاة المؤلف (اُسامة) بست وعشرين سنة قمرية وعليه اجازة من مرهف ابـن اُسامة المحبوب ممهورة بامضائه

المخطوطة هذه نشرها الاستاذ هارتوغ درنبورغ بالطبع (ليدن ١٨٨٤). وهي التي نحن الآن ننشرها نقلاً عن الصورة الفوتغرافية التي استحصلناها من الاسكوريال بمساعي السفارة الاميركية فـي مدريد

مخطوطتنا هذه حافلة بالاغلاط النحوية الصرفية التي لا يمكن ان يكون مؤلفها ـ واضع كتاب في البديع وصاحب ديوان ـ قـد ارتكبها. وهي فضلاً عن ذلك مشبَعة بالعبارات العامية (ولا سيما في الجمل المقتبسة والمحكية)، مما يدل على ان المؤلف وهو شيخ ضعيف أملى كتابه شفاهاً، وان ايدي الناسخ او النسَّاخ عبثت بـه واليك امثلة من آثار عدم العناية في النسخ: «دتني» «دشن» (ص٥٢ س١ ـ ٢) ـ «مـوز» «مـوزا» (ص٧٢ س١٤ ـ ١٥) ـ «الرَّحى» «الرحا» (ص١٠٥ س٦و١١) ـ «قاسم» «قسيم» (ص ١٧٠ س١٧ وص١٧٢ س١٣) ـ الى آخر ما هنالك مـن الكلمات التي وردت بصورتين او اكثر في سطر واحد أو في صفحة واحدة

اما استعمال العبارات العاميّة فهو فضلاً عـن دلالته على سلامة ذوق اُسامة فـي الانشاء ـ اذ ان ثمة الكثير مـن الحقائـق البعيدة الغور في طبيعة الانسان واختباره لا يسهل التعبير عنها في الأدب العالي وجلّه اصطناعي بل في النسق «الدارج» الأقرب اتصالاً بمصادر الحياة ونواحيها ـ فأمره يهمّنا من وجهة اخرى. مقابلة هذه الاصطلاحات مع ما يماثلها فـي لغتنا العامية اليوم فيه درس هامّ في تطوّر اللغة العربية المحكيّة. وهاك امثلة من اُسامة:

(ا) «أيش [أيّ شيء] انتـم؟» (ص١٢ س٦) ـ «ما فـي [لا يقدر] هذا يسرق رغيف خبز» (ص٤٥ س٨ ـ ٩) ـ «تموا [مـا زالوا] يطردونهـم» (ص٥١ س٢) ـ «خفت لا [لئلا] يكـون» (ص٦٤ س٧ و١٥) ـ «طلّع [تطلّع] تحتها» (ص٢١٤ س١٦) ـ «حمدت الله سبحانه الذي [اللّي ـ في العامية] ما ناله ضرر» (ص ٦٣ س٧)

(ب) استعمـال صيغة الجمع العاقـل لِما لا يعقـل: «الكلاب نطعمهم [نطعمها] من عيشنا» (ص١٢ س١٤)

(ج) استعمال المثنّى المنصوب في حالة الرفع: «ديواني كل شهر دينارين [دينـاران]» (ص٧٥ س١٦) ـ «وفيه خرنقَين [خرنقان]» (ص١٩٦ س١٤)

(د) ارجاع ضمير الجمع او المفرد الى اسم مثنًى: «اطمرهم ‖اطمرهما‖» (ص ١٩٦ س١٤) ـ «يبست رجلاي ودقَّت ‖ودقَّتا‖» (ص١٧٧ س١١) ـ «فخرج فارسان...فصادفوا ‖فصادفا‖ رجلاً...فاخذوه ‖فاخذاه‖» (ص٦٣ س١٦)

(هـ) لغة اكلوني البراغيث: «فاقتطعوهم ‖فاقتطعهم‖ الروم» (ص٩٢ س١٨)

(و) الميل لاهمال الهمزة او لتحويلها ياءً: «الحيط ‖الحائط‖» (ص٧٤ س١٠) ـ «خبيَّته ‖خبأْته‖» (ص٤٦ س٣) ـ «غاروا ‖أغاروا‖» (ص٥٨ س١٥) ـ «اِسل ‖اِسأل‖» (ص٨٧ س٩)

(ز) ادغام الحرفَين المتجانسين واقحام ياء بعدهما: «دلَّيت ‖دللت‖ الحرامية» (ص١٣٨ س١٧) ـ «شقَّيته ‖شققته‖» (ص ١٤٧ س١١)

(ح) الاشباع: «روح ‖رُحْ‖» (ص١٢٤ س٦)

وفي نسق الكاتب ظاهرة غريبة، ميله لاستعمال صيغة المؤنث: «مغار معلَّقة» (ص٧٠ س١٩) ـ «عقرب صغيرة» (ص١٠٩ س ٨) ـ «حجر ثانية» (ص١١٤ س١٤) ـ «الأرنب دخلت» (ص ١٩٢ س١٨) ـ «سكّينـاً صغيرة» (ص١٠٣ س١٧) ـ «طارت الحجل» (ص٢٠٠ س١٦)

وللمخطوطة من حيث الخطّ ميزات منها أنها انتهت الينا خلواً من حركات الاعراب، ومن علامات الوقف، ومن اكثر نقط الحروف بحيث يصعب احياناً التميز بين الفاعل والمفعول، وبين المعلوم والمجهول، وبين نهاية الجملة الواحدة وبداية الأخرى. خُذْ مثالاً على ذلك لفظة «عدل» التي وردت في قصّة نمر جاء به أحد الحلبيّين الى صاحب القدموس. فانّ درنبورغ، على ما يظهر، قرأها «عدْل» (طبعة درنبورغ ص٨٣) وترجمها(٤١) "la séance"، وهي في الحقيقة «عِدْل» (ادناه ص١١١ س٤١) بمعنى كيس. ولقد ورد في قصّة بعض قطّاعي الطرق كلمة «يسقهم» فقرأها درنبورغ «تسبقهم» (ص٥٤)، وقرأها لاندبرغ(٤٢) «تستبقِهم»، وقرأها كاتب هذه الأسطر «يشنقهم» (ادناه ص٧٢ س٢٠). بين «السبق» و «الشنق» بالتهجئة فرق متضمن في بعض نقط، ولكنه بالفعل فرق عظيم. في المخطوطة اسم علم ورد على هذه الصورة «حرار» (ادناه ص١٢٤ س١) فهو: جرّار، جزّار، جزّاز، حرّار، حرّاز، حَراز، خَراز، خرّاز، خزّار، خزّاز ــ عشر قراءات فقط لا غير وكلها واردة اسماء اعلام في

(٤١) *Autobiographie d'Ousāma* (باريز ١٨٩٥) ص١١٠

(٤٢) C. de Landberg, *Critica Arabica* (ليدن ١٨٦٦) جزء٢ ص٢٦

الذهبي(٤٣) فاخترْ لك منها ما يحلو

عدم وجود احرف هجاء كبيرة لتمييز العلم عن النكرة، كما هي الحال في اللغات الاوربية، يؤدي أحيانا للاشتباه في اللغة العربية. ففي صفحة ٥٠ سطر ١٦ (ادناه) وصفحة ٢٠٦ سطر ١٤ وردت «العلاة» وهي اسم بلدة في سورية الشمالية فحسبها درنبورغ (ص ٣٧ و١٥٢) نكرة وترجمها "la ville haute" (٤٤). أما «قرية خربة» (ادناه ص٨١ س٧) فحسبها علماً(٤٥)

ارجاع الضمير من معضلات العربية. والاشكال فيه جعل درنبوغ مرّة يحسب ان المطعون طار من السرج الى رقبة الحصان(٤٦)، والحال انه الطاعن (ادناه ص٦٣ س٥)، وأخرى ان الجرائحي نشر ساق المريض(٤٧)، والظاهر ان المريض هو الذي نشر ساق نفسه (ادناه ص١٤٦ س٧)، وثالثة ان الجريح أُغشي عليه(٤٨) والحال ان الغلام الشاهد هو الذي أُغشي عليه (ادناه ص١٤٥ س١٨)

(٤٣) «المشتبه» (ليدن ١٨٦٣) ٩٧ — ١٠٠
(٤٤) *Autobiographie* ص٥٠
(٤٥) ايضاً ص ٨١
(٤٦) ايضاً ص٦٣
(٤٧) ايضاً ص١٤٢
(٤٨) ايضاً ص١٤٢

ليس فـي مصطلحات العربية علامات للاقتباس تضمّن الجمل المحكية. وهذا ما جعل درنبورغ(٤٩) يعتبر الجملة الاخيرة من خطاب أُسامة لرجّالة عسقلان داخلة فـي ذلك الخطاب، مع انها ليست جزءا منه (ادناه ص١٦ س٧). لمّا مثل اُسامـة بين يدَي الملك الافرنجي فأعرب له هذا عن فرحه به لأنه فارس عظيم أجاب اُسامة (ادناه ص٦٥ س١٤ ـ ١٥) «انا فارس من جنسي وقومي». وورد على اثر ذلك فـي الاصل «واذا كان الفارس دقيقـاً طويلاً كان اعجب لهم». فدرنبورغ(٥٠) ضمَّن هذه العبارة الثانية في الاقتباس وجعل اُسامة بالاستنتاج دقيقـاً طويلا، والذي يلوح لي ان العبارة الثانية غير داخلة في الاقتباس والضمير فيها يعود للافرنج، فيكون اُسامة سميناً قصيرا

لم يكن اُسامة يحسن غير اللغة العربيّة. فهو يقول عن الافرنج «انهم لا يتكلمون الا بالافرنجي ما ندري ما يقولون» (ادناه ص ٦٦ س٨). وفـي مكان آخر (ادناه ص١٤٠ س٢١ ـ ٢٢) يشير الى امرأة افرنجية «تبربر بلسانهم وما ندري ما تقول». ثم يذكر ان رفيقه الغِسْياني «التفت الى غلام له كلّمه بالتركي ولا ادري ما يقول» (ادناه ص١٠٠ س٩ ـ ١٠)، وفـي غير موضع يقول «وهم

(٤٩) *Autobiographie* ص١٤ س٣٨
(٥٠) ايضاً ص٦٦

يتكلّمون بالتركي ولا أدري ما يقولون» (ص١٥١ س٧)· على ان ذلك كله لم يمنعه من استعمال كلمات افرنجية كـ «سرجندي» (ص٧٥ س١٥) و «سرجند» (ص٦٧ س٦) (sergeant) ـ «تركبولي» (ص٥١ س١) (Turcopole) ـ «برجاسي» (ص ١٤١س٣) (bourgeoisie) ـ «البسكند» (ص١٣٩س٤) (viscount) ـ «الداما» (ص١٣٦ س٢٠) (Madame) ـ «البرونس» (ص ١١٩ س١) (prince)

والذي يهمّنا اكثر من ذلك استعماله طائفة من الكلمات الفارسية والتركية واليونانية التي كانت صقلتْها ألسن متكلمي العربية وألفتْها آذانهم· وممّا يجب ملاحظته ان غالب أسماء آلات الحرب انما هي فارسية، وذلك لان العرب نقلوا الاساليب الحربية عن جيرانهم الفرس· واليك بعض الامثلة من الالفاظ الفارسية المعرّبة:

«سِنْدَروس» (ص١٢ س٢) (تعريب سَنْدروس، معدن) ـ «سَرْفسار» (ص١٣ س١٧) (سَرْأفسار، راس العنان) ـ «كُزاغَنْد» (ص٤٦ س١٤) (كژاگند، كژاغند، سترة تقوم مقام الدرع) ـ «دركاه» (ص٤٩ س١٣) (درگاه، بلاط الملك) ـ «دشني» (ص٥٢ س١) (دشنه، خنجر) ـ «خِشت» (ص٥٢ س

٦) (خِشْت، حربة) ـ «موزا» (ص٧٢ س١٤) (مُوزه، خفّ) ـ «اوزبـه» (ص٧٣ س٦) (اوزبك، امير الجيش) ـ «بُشت» (ص١١٧ س١٣) (پشت، عباءة) ـ «ترْكش» (ص٢١٣ س١٧) (تركش، جعبة) ـ «ديدب» (ص١٢٧ س١٣) (ديدبان، راقب)

وهنالك لفظتان فارسيتان اشتبه امرهما على درنبورغ فحسبهما عربيتين: «برجم» (ص١٥٩ س٧) وهـي پرجم، شعر ذنب عجل البحر. فظنّها درنبورغ «براجم» العربية وترجمها "articulations de doigts" (٥١). و «نشاف» (ص١٢٣ س٣) وهي في الراجح «نِشاف» الفارسية بمعنى بلَه. ولقد ترجمها درنبورغ "consomption" (٥٢)

واليك انموذج من الالفاظ التركية الواردة في الكتاب: «يَرَق» (ص١٠١ س١٩) وهي يراق، سلاح ـ «جوبان» (ص١٠٦ س٣) وهي چوبان، راعٍ (٥٣)

ومن الالفاظ اليونانية: «سقلاطون» (ص١١ س١) ثياب موشّية ـ «قنطارية» (ص٥٧ س٢٠) الرمح ـ «زربول» (ص١٠٩ س٣) حذاء

(٥١) *Autobiographie* ص١٥٦
(٥٢) ايضاً ص١٢٩
(٥٣) اما درنبورغ فحسبها علماً "Djaubān al-Khail" في *Autobiographie* ص ١٠٥ س١٠

ولا بد لي هنا من الاعتراف ان الاستاذ درنبورغ جاهد قبلي جهاد العلماء الابطال في حل ألغاز المخطوطة العربية و كشف معمياتها، واني مدين له بالشيء الكثير من حيث قراءة الاصل وفهم المراد

على اثر ظهور ترجمة درنبورغ الافرنسية لـ « كتاب الاعتبار» ظهرت ترجمة المانية بقلم شومان(٥٤) اعتمد فيها الكاتب على الترجمة الافرنسية برغم تصريحه في مقدمة الكتاب انه ترجمه عن الاصل العربي· وهذه بعض الشواهد على ذلك: درنبورغ اغفل سهواً في ترجمته(٥٥) اسم خطيب اسعرد الاول وهو «سراج الدين» مع انه مثبت في طبعته العربية (ص١٢٥ س٥· قابل ادناه ص١٧٠ س٢) و كذلك فعل شومان (ص٢٢٩)· أقحم درنبورغ في مكانين من ترجمته (ص٢٦ س١٤ و٣٧) كلمة «نصر» بعد «ناصر الدين» وهي غير واردة في طبعته (ص٢٠ س٢ و١٢· قابل ادناه ص٢٦ س١٥ وص٢٧ س٦) وشومان (ص٥٠ و٥١) اتبع اثره· في موضع آخر اشتبهت كلمة «ثمان» (ادناه ص١٠٥ س٤) على درنبورغ (ص٧٧ س١٩) فحسبها «ثمن» وجعل غلة

(٥٤) Georg Schumann, *Usāma Ibn Munkidh Memoiren* (اينزبروك ١٩٠٥)

(٥٥) *Autobiographie* ص١٦٥

الطاحون مائــة دينار "cent dīnārs" (ص١٠٤ س١٩ و٢٨) بدلا من ثمان مائة دينار، وشومان اقتفى اثره وترجم "hundert Denaren" (ص١٥٤ س١٥ ـ ١٦ و٢٤)

ولقد نشر كاتب هذه السطور في العام الفائت عن المخطوطة المودوعة بالاسكوريال «كتاب الاعتبار» هذا مترجماً للانكليزية بعنوان *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades* طبع نيويرك٠ وهــي المخطوطة التي نمثلها الآن للنشر٠ وفــي العــام نفســه ظهر فــي لندن طبعة اخــرى انكليزية(٥٦) لا قيمة علمية لها ولا جديد فيها لانها مبنيه علــى الترجمة الافرنسية السابقة

ولا بد في الختام من التنبيه الــى انني كنت ارغب جدّ الرغبة ان ابقي الاصل المخطوط على ما هو تماماً دون إحداث ايّ تغيير او إبدال، لولا ان ذلك الاصل على ما انتهى الينا سقيم خالٍ مــن النقط والحركات وعلامات الوقف والعناويــن، كما يتضح مــن نماذج الصور الفوتغرافية المنشورة في هذا الكتاب٠ فنشرُه على اصلهِ لا يفهمه قارىء٠ لذلــك رأيت ان ابوّب الكتاب، واقسمه فقرات، واجعل للابواب والفقرات عناوين كلها من قلم التحرير

(٥٦) G. R. Potter, *Autobiography of Ousama ibn-Mounkidh*

سوى كلمة «فصل» في راس الباب الثاني ص١٦٩ و «قصد الفرنج دمشق» عنوان قطعة ص١١٤٠ وعلى كلٍّ فاني لم احدث تغييراً ما الا إشرتُ اليه في الحاشية مع اثبات الاصل٠ كل ذلك تقيُّداً بالسنن العلمية الحديثة المرعية في نشر المخطوطات، وعملاً بواجب الامانة التاريخية٠ وكلما كان ضمن قوسين مربعين [ ] في المتن هو ايضاً من قلم المحرّر٠ والاعداد ضمن القوسين تشير الى عدد الصفحات في المخطوطة الاصلية، وهي مرفوقة بالحرف و ــ وجه أو ق ــ قفا

في مساء الاثنين الواقع في ٢٣ رمضان من سنة ٥٨٤ (١٥ تشرين الثاني سنة ١١٨٨)، وهي السنة التالية للسنة التي استرجع فيها صلاح الدين بيت القدس من يد الافرنج، تُوفي اُسامة في دمشق عن ٩٦ سنة قمرية (٩٣ شمسية)، ودفن ثاني يوم وفاته في سفح جبل قاسيون الجبل الذي نعته ياقوت(٥٧) بانه «معظَّم مقدَّس»٠ ولقد دُرس قبره مع ما دُرس من الاثار في ذلك الجانب من الجبل وقامت على انفاقها الدور الحديثة(٥٨) ولكن المترجم

(٥٧) «معجم البلدان» ٤: ١٣

(٥٨) هذه خلاصة تقرير تكرّم به الاستاذ المغربي احد اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وكنت كلّفته أمر التنقيب عن قبر أسامه

وهو مسلم، فتصدر اوامر والد اُسامة له فـي هذه الصيغة «اتبعْهم بمن معك، وارموا انفسكـم عليهم، واستخلصوا رهائنكم» (ادناه ص١٠٣)٠ الكلمـات الاخيرة «ارمـوا انفسكم» تقع مـن نفس اُسامة موقعاً شديداً

وللدلالة على الرّابط البنويّ الذي كان يربط الابن بابيه يكفي الاستشهاد بعبارة اوردها اُسامـة بعد أن أطنب بحسن خط والده: «وما يقتضي الكتاب ذكر هذا، وانما ذكرته لاستدعي له [للوالد] الرّحمة ممّن وقف عليه» (ادناه ص٥٣)

أما والدة اُسامة فلنـا ان نتحقّق المعدن التي جُبلت منه مـن مراجعة حادثة أوردها اُسامة٠ ومفادها ان الاسماعيلية مرّة هاجمت شيزر والرجـال متخلّفون٠ فوزّعت اُمّ اُسامة السلاح وألبست ابنتها الخفّ والازار واجلستها على روشن مشرف علـى الوادي حتى اذا ما انتهى الأعداء اليها تدفعها وترميها الى الوادي فتراهـا ميتة ولا اسيرة في أيدي «الفلاحين والحلاجين» (ادناه ص١٢٥)٠ حقّاً ان والدته كجدّته كانت من «اُمّهات الرّجال» (ادناه ص ١٢٦)

تلك هـي البيئة التي نشأ فيها اُسامة وترعرع٠ فتصلّب عوده وهو مرِن، وألف اقتحام المخاطر والمغامرات، وتربّى على مبادىء

الفروسية والشهامة. وذلك في عصر تلاحقت فيه الحروب، وتتابعت الغزوات من الافرنج والعرب ـ من مسيحيين ومسلمين، وفي بلاد توفّرت فيها الوحوش الضارية والحيوانات المفترسة. حتى ان اُسامة ما كان يخرج للصيد في جوار شيزر الا وهو مسلّح مستعد للعدوّ المفاجىء (ادناه ص٢٠٠). ولم يشهد اُسامة القتال في شيزر وحماه من مدن سورية الشمالية فقط، بل في عسقلان وبيت جِبْريل من أعمال فلسطين، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر، وفي ديار بكر والموصل. فلاغرو ان اصبح اسمه في التواريخ الاسلامية مرادفاً للبطولة

الذهبي(١١) سمّاه «احد ابطال الاسلام». ابن الاثير(١٢) وصفه بانه «كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها». واُسامة نفسه أجمل اختباراته الحربية بقوله في آخر أيامه «فكم لقيتُ من الاهوال، وتقحّمتُ المخاوف والأخطار، ولاقيتُ الفرسان، وقتلت الأُسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام والجروخ» (ادناه ص١٦٣) ـ هتاف ليس المقصود منه التأثير الخطابي فحسب، بل تبيان الحقائق

ومن خلال كل هذه الاختبارات تتبيّن لنا شخصيّة اُسامة فاذا

(١١) «دول الاسلام» (حيدر آباد ١٣٣٧) ٢: ٧١
(١٢) «الدولة الأتابكية» في *Recueil* ج٢ جزء٢ ص٢٠٧

بها شخصية مستسلمة تستقبل الافراح كما تودّع الاحزان، تواجه الظفر كما تجابه الفشل، بروح الصبر والتسليم. النصر ـ باعتبار اُسامة ـ من الله (ادناه ص١٤٧ س١٩)، و كذلك الهزيمة. الموت لا «يقدّمـه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدّة الحذر» (ادناه ص ١٦٣). «الله مقدّر الأقدار، وموقّت الآجال والأعمار» (ادناه ص١٦٢). في العبارة الاخيرة متضمّن فلسفة الحياة باسرها كما فهمها اُسامة

وفي مجمل معاملاته مع أصدقائه وأخصامه يُدهشنا هذا الرجل بميله للنّصفة والعدالة. ها كه مع رفيق في مكان مشرف على ثمانية فرسان من الافرنج. الرّفيق يشير باخذهم على حين غرّة، ولكنّ جواب اُسامة: «ما هذا انصاف. بل نحمل عليهم انا وانت» (ادناه ص٥٨). والمبهج انه لا يلبث ان يتمّ سرد هذه الحادثـة، التي هزم فيها مع رفيقه ثمانية، حتى يشرع بسرد غيرهـا يهزمهما فيهـا «رويجل» (ادنـاه ص٥٨). يروي قصة ممتعة تظهر الطب الافرنجي سقيماً بالمعارضة مـع الطب العربـي (ادنـاه ص١٣٢ ـ ١٣٣) ـ وهي مـن أبدع قصص الكتاب ـ ثم لا يلبث ان يردفها بأخرى تظهر الوجهة الفضلى من طبّ المغرب (ادناه ص١٣٣ ـ ١٣٤). يطنب بوالده صيّاداً، ولكن سلامة ذوقه توحي اليه على

الأثر «ما ادري كنت اراه بعين المحبة كما قال القائل: ‹و كل ما يفعل المحبوب محبوب› •ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق• وأنا ذاكر شيئاً مـن ذلك ليحكم فيه مَن يقف عليه» (ادنـاه ص ١٩٨)

قضى اُسامة سنيناً غير قليلة في البلاط الفاطمي بمصر (سنة ١١٤٤ ـ ١١٥٤)• وربما لـم يكن لذلك العهد مـن دار عشَّشَت فيهـا جراثيم المكائد والمفاسد كما في تلك الدار: يد الوالد على الولد، والولد على الوالد، ويـد الخليفة علـى الجميع• ابن الاثير(١٣) يدّعي ان اُسامة هو الذي أشار على عبَّاس بن أبـي الفتوح بقتل العادل وزير الظافر (ادنـاه ص١٨)• ولكن مذكَّرات اُسامة لا تدلّ على انَّه لوّث يدَيه فـي حال مـن الأحوال• صلاح الدين الغِرسياني، ذلك الجلف التركـي، يوسّط مَن يشاء مـن رجاله ـ يأمر بقطعهم شطرين من الوسط ـ لسبب أو لغير سبب، واُسامة لا يتردّد فـي التوسُّط بامرهم (ادناه ص١٥٦ ـ ١٥٧)• عمّ اسامة يجلوه عن مسقط رأسه، ثم يودي الزلزال بحياة ابن عمه وسائر آله في شيزر، فيرثيهم اُسامة الشاعر بقصيدة كلها شعور طيب:

لمْ يتركِ الدَّهرُ لي مِـن بعدفقدهـم
قلبـاً أُجشّمــه صبــراً وسلوانــا

(١٣) «كامل التواريخ» (أُبسالا ١٨٥١) ١١: ١٢١

فلو رأوني لقالوا مات أسعدُنا
وعاش للهمّ والاحزانِ أشقانا
لم يتركِ الموتُ منهم مَن يخبّرني
عنهم فيُوضحُ ما قالوهُ تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً
للخطبِ أهلكَ عمّاراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم
كذاك كانوا بها من قبل سكّانا

الى ان يقول:

بنو أبي وبنو عمّي دمي دمهم
وإن أرَوني مناواةً وشنآنا(١٤)

احترام اُسامة لجنس النساء أمر يسترعي انتباهنا. فانا نراه يضع تأليفاً موسوماً «أخبار النساء» ويكرّس في «كتاب الاعتبار» (ادناه ص١١٨ ـ ١٣١) حقولاً طويلة للاشادة باعمال البطولة التي قام بها البعض منهنّ، وبينهنّ والدته. وفي قصته مع خادمته العجوز التي أفرد لها بيتاً في داره وكان يناديها «ياأُمّي» (ادناه ص١٨٦) نافذة نبصر منها الشيء اللطيف ضمن أعماق قلبه. وما ألطف ملاحظته بعد ان افتدى اسيرة مسلمة مع غيرها من يد الافرنج فهربوا قبل ان يدفع الثمن فالزمه الافرنجي القيمة كلها: «وهان ذلك عليّ لمسرّتي بخلاص اولئك المساكين» (ادناه ص٨٢)

(١٤) ابو شامة ١:١٠٦

حين لم يكن اُسامة مهموكاً بقتال الأعداء من بني البشر كان يشتغل بقتال الحيوانات المفترسة التي كانت سورية الشمالية يومئذٍ تعجّ بهـا، أو يصطاد الغزلان والطيور والأرانب وحُمُر الوحش بالبازي وبالباشق في شيزر ودمشق وفي الموصل والقاهرة٠ وترى زبدة اختباراته مضمَّنة في فصل في الصيد ختم به كتابه، فصل ربما لم يكن في اللغة العربية أنفس منه في موضوعه٠ اُسامة يقول عن نفسه انـه شهد الصيد «سبعين سنة» (ادناه ص٢٢٥)، وانـه حضرَ قتال الأسد في مواقف لا تُحصى وقَتل عدّة منها لم يشاركه فـي قتلها احد (ادناه ص١٠٩ و١٤٤)، وان الخليفة الحافظ عناه في سؤاله الانكاري «وايّ شيء شغل هذا الا القتـال والصيد؟» (ادنـاه ص ١٩٤)٠ لذّتـه فـي درس الحيـوان جعلته يكشتف ان «الأُسـد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان» (ادناه ص١٠٦) ويحسب «ان الأُسد اذا خرج من موضع لابدّ له من الرجوع اليه»(١٥) (ادناه ص١٠٦ و١٠٩)، ويلاحظ «أن الأُسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه٠ وفيه غفلة وبلَه، ما لم يُجرح٠ فاذا جُرح فحينئذٍ هـو الاسد» (ادناه ص١٠٩)، ويقول ان النمر «دون سائر الحيوان يقفز الى فوق أربعين ذراعاً» (ادناه ص١١٠)٠ على ان

(١٥) لم أجد في الكتب العلميّة ما يثبت صحة هذه النظرية

صاحبنا شارك جيله في بعض خرافاتهم: «ومن خواص النّمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات. ولا تردّ الفأرة عن جريح النمر» (ادناه ص١١١). ولمّا عرض افرنجيّ في حيفا فهداً للبيع أدرك اُسامة لأوّل نظرة من طول الوجه وزرقة العينين ان الحيوان نمر لا فهد وبالتالي لا يصلح للشراء (ادناه ص١١١). ومن دقيق ملاحظاته ان الحُبارى اذا اقترب منها الصقر «استقبلتْه بذنبها. فاذا دنا منها سلحت عليه بلّت ريشه وملأت عينيه وطارت»(١٦) (ادناه ص٢١٦)

نظر اُسامة للصيد كسبب للهو ظاهر من البيت الذي استهل به فصل الصيد:

وللّه منّي جانبٌ لا أضيّعهُ
وللهو منّي والبطالةِ جانبُ (ادناه ص١٩٠)

ونزعته الاستقراطيّة تلوح من عدم تلبيته طلب نور الدين عندما سأله هذا ان يصلح الباز فرفض وأجاب ــ لمّا اظهر نور الدين عجبه كيف ان اُسامة يقضي عمره بالصيد ولا يحسن اصلاح الباز ــ «يامولاي، ما كنّا نصلحها نحن. كان لنا بازياريّة وغلمان يصلحونها» (ادناه ص١٩٧)

(١٦) قابل مراجعة كتاب C. H. Stockley, *Shikar* في *London Times Literary Supplement* عدد ١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٨

تهذيب اُسامة المدرسيّ تناول دراسة النحو عشر سنين عند قدمَي أبي عبدالله الطُلَيْطُلي «سيبويه زمانه» الذي كان قد تولّى دار العلم بطرابلس (ادناه ص٢٠٧)۰ ولا شكّ ان سياق دروسه تناول فضلاً عن النّحو الخطّ والشعر والقرآن ـ وهي فروع التهذيب في ذلك العصر۰ فتهذّب اُسامة بموجب النظام الذي كان يتثقّف به أشراف العرب في زمانه۰ ونشأ راويةً كاتباً، وأديباً شاعراً

بهذه الصفةالاخيرة ـ صفة الشاعرية ـ عرفه معظمالذين ترجموا له۰ فالذّهبي(١٧) يذكر عن لسان اُسامة انه قال انه كان يحفظ اكثر من عشرين الف بيت من الشعر الجاهلي ـ والراجح انه لم يتّصل بجيل اُسامة هذا المقدار من الابيات۰ عِماد الدين الكاتب الاصفهاني الذي اجتمع باُسامة في دمشق يقول في «خريدة القصر وجريدة العصر»(١٨) «اُسامة كاسمه، في قوّة نثره ونظمه۰۰۰ حلو المجالسة، حالي المساجلة، نديّ الندى بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة»۰ ابن عساكر، تلميذ اُسامة، ذكر في «التاريخ الكبير»(١٩) بان لاُسامة «يداً بيضاء في الأدب والكتابة

(١٧) ملحق بـ Derenbourg, *Vie d'Ousāma* (باريز ١٨٨٥) ص٥٩٥
(١٨) (باريز ١٨٨٧) ص١٢٢
(١٩) (دمشق ١٣٣٠) ٢: ٤٠٠ ـ ٤٠١

والشعر» واقتبس عن لسان احدهم قوله ان اُسامة «شاعر اهل الدهر، مالك عنان النظم والنثر» وان مقطعاته «أحلى من الشهد والذّ من النَّوم بعد طول السهر»· ياقوت في «معجم البلدان» (٢٠) اقتبس من اشعار اُسامة· أبو شامة(٢١) يفيد ان صلاح الدين الايوبيّ كان «عنده ديوان الامير مؤيد الدولة اُسامة··· وهو به مشغوف، وخاطره على تأمُّلهِ موقوف، والى استحسانه مصروف»· وصالح بن يحيى(٢٢) يفاخر باقتنائه ديوان شعر «عزّ الدين» (كذا) اُسامة بن منقذ بخطّه

وهاك أبيات تدلّ على قوة الابداع في اُسامة الشاعر قالها في ضرس له قلعه:

وصاحبٍ لا أمَلُّ الدَّهرَ صُحبتَهُ
يشقى لنفعي ويسعى سعيَ مُجتهدِ
لَمْ ألقهُ مُذ تصاحبنا فحين بدا
لناظريَّ افترقنا فرقة الأبدِ(٢٣)

وغيرها كتبها على حائط مسجد في حلب وكان قد زار المسجد قبلاً في طريقه الى الحجّ:

(٢٠) ٢:٤١٧
(٢١) ١:٢٤٧
(٢٢) «تأريخ بيروت» (بيروت ١٩٠٢) ٣٥ – ٣٦
(٢٣) الذهبي ملحق *Vie d'Ousāma* ص٥٩٦· قابل ابن عساكر ٢:٤٠٢، ابن خلكان ١:١١٢، ابو شامة ١:٢٦٤، عماد الدين الكاتب١٢٣

لكَ الحمدُ يامولايَ كم لك منّةٌ
علـيَّ وفضلٌ لا يحيطُ بها شكري
نزلت بهذا المسجدِ العامَ قافلاً
من الغزوِ موفورَ النَّصيبِ من الأجرِ
ومنه رحلتُ العيس في عامي الذي
مضى نحو بيتِ اللهِ والرّكن والحجر
فأدَّيتُ مفروضاً وأسقطتُ ثقلَ ما
تحمّلتُ من وزرِ المسيئةِ عن ظهري(٢٤)

واُخرى تُعرب عن حنينه لوطنه الشاميّ وعن توق نفسه للرُّجوع الى أهله وقد كتبها على حائط دار سكنها بالموصل:

دارٌ سكنتُ بها كرهاً وما سكنت
روحي الى شجنٍ فيها ولا سكنِ
والقبرُ أسترُ لي منها وأجملُ بي
إن صدَّني الدهرُ عن عَودي الى وطني(٢٥)

واليك ما كتب في مطلع كتاب الى بعض أهله:

شكا ألم الفراقِ النّاسُ قبلي
ورُوّع بالنّوى حيٌّ وميت
وأمّا مثل ما ضمّت ضلوعي
فاني ما سمعتُ وما رأيتُ(٢٦)

شغف اُسامة بالكُتُب يتَّضح من ملاحظة أبداها عند ما عادت اُسرته من مصر فوقعت في أيدي الافرنج وخسر الكثير من المال،

(٢٤) ابن الاثير «الدولة الاتابكيّة» في *Recueil* ج٢ جز٢ ص٢٠٨
(٢٥) ابن عساكر ٢: ٤٠١
(٢٦) ابن خلكان ١: ١١١

فلم يأسف عليه أسفه على ما فقده من الكتب وعددها أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة «فانّ ذهابها [على ما قال] حزازة في قلبي ما عشت» (ادناه ص٣٥)

أتقن اُسامة الفن القصصي وأبدع في إيراد نكته كلّ الإبداع. فلو انه عاش اليوم لتأهّل لمركز استاذ في احدى مدارس الصحافة التي تلقّن طلبتها دروساً في كيفية معالجة الماجريات وسرد الحوادث. خذ مثالاً الكيفية التي روى فيها قصة الطبيب الافرنجي بإزاء الطبيب العربي (ادناه ص١٣٢ ـ ١٣٣)، او قصّة جزاء الامانة (ادناه ص١٧٨ ـ ١٨٠)، فان الفنّ الحديث يكاد يعجز عن التحسين عليها

لاُسامة المؤلف لا أقل من ثلاثة عشر كتاباً اتصلت بنا اسماؤها. وضع معظمها في أخريات حياته وهو مُبعد في حصن كَيفا حيث انفسح له المجال للدرس والتأليف. ولقد ذكر بعضها حاجي خلفه في «كشف الظنون». ١ ـ «كتاب البديع في البديع». ٢ ـ «تاريخ القلاع والحصون». ٣ ـ «أزهار الانهار». ٤ ـ «التاريخ البلدي». ٥ ـ «نصيحة الرُعاة». ٦ ـ «التجائر المربحة

والمساعي المنجحة»(٢٧)٠ ٧ ـ «كتاب العصا»(٢٨)٠ ٨ ـ «أخبار النساء»٠ ٩ ـ «ديوان اُسامة»٠ ١٠ ـ «كتاب النوم والاحلام» (ادناه ص١٨٦)٠ ١١ ـ «كتاب المنازل والاديار» (٢٩)٠ ١٢ ـ «كتاب لُباب الآداب»(٣٠)٠ ١٣ ـ «كتاب الاعتبار» وهو الذي نحن الآن بصدده

بعد ان تجاوز اُسامة التسعين استدعاه صلاح الدين الايوبي من حصن كَيفا وأسكنه داراً بدمشق وذلك بمساعي ابن اُسامة المحبوب مُرْهَف الذي كان من المقرَّبين لدى السلطان(٣١)٠ وأرجع

(٢٧) راجع وصف درنبورغ لهذه المخطوطات في *Vie d'Ousāma* ٣٣٠ ـ ٣٣٨

(٢٨) نشر درنبورغ منتخبات منه ومن «ديوان اسامة» بعنوان *Anthologie de textes Arabes inédits par Ousāma et sur Ousāma* (باريز ١٨٩٣)

(٢٩) مخطوطة في المتحف الاسيري في لبنغراد ذكرها الاستاذ اغناطبوس كراتشقوفسكي في «مجلة المجمع العلميّ العربي» تموز سنة ١٩٢٥ ص٣٣٥

(٣٠) مخطوطة كتب لي عنها مالكها الدكور يعقوب صروف قُبل وفاته وعليها بخطّ ابن أسامة مُرهف ان والده اهداها اليه عام ٥٨٢٠ راجع «المقتطف» كانون الاوّل سنة ١٩٠٧ و نيسان سنه ١٩٠٨٠ وربما كانت بخط المولّف نفسه٠ وفي رسالة خصوصية من الشيخ حليل الخالدي بالقدس انه رأى وهو بقونية نسخه من «كتاب الغريبَين» في آخره ما صورته: «وكان الفراغ منه يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة [١١٦٠] بمدينة حمص٠ كتبه لنفسه منقذ بن مرشد بن عليّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني المالكي»

(٣١) ومن الذين امتازوا من آل منقذ شمس الدولة، ابن اخي أسامة، أوفده صلاح الدين عام ١١٩٠ الى بلاط الموحّدين بمراكش للمخابرة بشان استخدام اسطولهم لقطع سبُل الاتصال البحريّ بين الافرنج و بين بلادهم٠ وكان لاُسامة عمّ مقرّب من الخليفة الفاطمي بمصر (انظر ادناه ص٢٠٨)

له صلاح الدين اقطاعاً كان في الأصل على ما يظهر مُلك اسامة، فعاد خمر الحياة يجري في عروق الشيخ بعد ان كان استحال خلاً، وتنعّم صديقنا بشيء من الرفاه والهناء قبيل وفاته. فأخذ يلقي المحاضرات في البديع، ويدرّس في المدرسة الحنفيّة بدمشق. ولكن لاسباب نجهلها انقلب عليه ظهيره صلاح الدين، وربما كانت اقامة اُسامة في مصر ولّدت فيه ميلا للتشيُّع لحظه صلاح الدين(٣٢) «محيي دولة أمير المؤمنين» (ادناه ص١٦٤) و«سُنّة الخلفاء الراشدين» (ادناه ص١٦٥). ولا نعلم كم طال هذا الجفاء. على ان صالح بن يحيى(٣٣) ذكر أن صلاح الدين ولّى على بيروت «عزّ الدين اُسامة بن منقذ احد ملوك بني منقذ وكان من المعظّمين عند السلطان حتى لم يكن يقدّم عليه احداً في المشورة والرأي». وعاد فروى (ص٣٨) ان عزّ الدين اُسامة بن منقذ لما كان والياً على بيروت وبلغه خبر استيلاء الافرنج على صيداء خرج من المدينة بجماعته واهله. ويظهر من هذا ومن ابن الاثير(٣٤) انه كان يومئذٍ ببيروت حاكم يُعرف باُسامة ولكنّه

(٣٢) الذهبي ملحق *Vie d'Ousāma* ص٦٠٢

(٣٣) «تاريخ بيروت» ٣٥ — ٣٦

(٣٤) في *Recueil* ج٢ جز١ ص٨٥

هو غير ابن منقذ. فالافرنج فتحوا بيروت عام ١١٩٧، وابن منقذ تُوفي عام ١١٨٨(٣٥)

بعد ان توقّل اُسامة ذروة التسعين (ادناه ص١٦٠) وهو في دمشق يتفيّأُ في ظلال نعمة مولاه صلاح الدين، أخذ يطلُّ من ذاك العلوّ الشاهق على سابق اختباراته، ويدوّنها ـ أو يلقّنها ـ بانشاء ساذج عادي لا تصنُّع فيه ولا تعمُّل(٣٦) ـ تلك هي المذكّرات الخالدة الموسومة «كتاب الاعتبار». أملاها اُسامة وهو يردّد:

اذا كتبتُ فخطّي جدُّ مضطربٍ
كخطِّ مرتعشِ الكفّين مرتعد
فاعجبْ لضعفِ يدي عن حملها قلماً
من بعدِ حطمِ القنا في لبّة الأسدِ
وإن مشيتُ وفي كفّي العصا ثقلتْ
رِجْلي كأنّي أخوضُ الوحلَ في الجَلَدِ(٣٧)

ولسان حاله:

(٣٥) لم ينتبه لهذا الخلط بين الأُسامتَين الاب شيخو محرّر صالح بن يحيى فانه في حاشية٢ ص٣٥ جعل الاثنين واحدا

(٣٦) الشاذ الوحيد عن هذه القاعدة وصف أسامة لشيخوخته ولعطف صلاح الدين عليه. ادناه ص١٦٠ ــ ١٦٦

(٣٧) ادناه ص١٦٣ ــ ١٦٤

مقدّمة المحرّر

قد كنتُ مسعرَ حرب كلّما خمدتْ
أذكيتُها باقتداحِ البيضِ في القُـللِ

امّا الآن:

فصرتُ كالغادةِ المكسالِ مضجعُـهـا
على الحشايا وراءَ السُّجفِ والكللِ
قد كدتُ أعفنُ من طولِ الثواءِ كما
يصدّىءُ الهندَ طولُ اللّبْثِ في الخلل
أروح بعد دروعِ الحرب في حُـللِ
من الدّبيقي فبؤساً لي وللحُـللِ (٣٨)

بين كتب الأدب العربي سيرٌ عددها غيرقليل. منها ما كُتب فـي عصر اُسامة بالذات: كسيرة صلاح الدين الموسومة «الفتح القسي فـي الفتح القدسي» بقلم عماد الديـن الكاتب الاصفهاني، وأختها الموسومـة «النوادر السلطانيّة» بقلم القاضي بهاء الدين، وكسيرتَي نور الدين وصلاح الدين المعنونتَين «كتاب الروضتين في اخبار الدّولتين» تأليف ابي شامة. ولكنّها كلها تتضاءل أمام سيرة اُسامة بقلم نفسه. «كتاب الاعتبار» هو اول سيرة في الآداب العربية ـ على ما نعلم ـ المترجِم والمترجَم له فيها واحد

رمى المؤلّف مـن وراء كتابه الـى تعليم امثوله أدبية، لذلك سمّـاه «كتاب الاعتبار». وأورد موادّ يُرجَى منهـا ان يَعتبر

(٣٨) ادناه ص ١٦١

القارىء بما حلّ بغيره وان يستفيد لنفسه (ادناه ص١٦٢)٠ أمّا العظة التي اراد ان ينقشها على ذهن القارىء بحيث لا تُمحى فهي «ان ركوب أخطار الحروب لا يُنقص أجل المكتوب٠ فانني رأيت٠٠٠معتَبرا يُوضح للشجاع العاقل، والجبان الجاهل، ان العمر موقّت مقدّر، لا يتقدّم اجله ولا يتأخّر» (ادناه ص١٦٢)، وان «الله مقدّر الأقدار، وموقّت الآجال والاعمار» (ادناه ص ٦٢)، وانه يجب ان لا «يظنّ ظانّ ان الموت يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخّره شدة الحذر» (ادناه ص١٦٣)، وان «النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى، لابترتيب وتدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير» (ادناه ص١٤٧)

ولا ِثبات قضيّته أتى المؤلّف بالقصّة تلو القصّة٠ التشابه والمشاركة، واحياناً التناقض والمخالفة، كان السِّلك الذي قاده من رواية الى رواية٠ ولكن الكثير من المادّة جاء دون تنظيم منطقي وفي أماكن غير خاصّة به٠ هنا وهناك يشعر القارىء ان الراوي قد رشّ شيئاً من «البهار» على القصّة لتحسينها، أو مطّ الواقع قليلاً في الحادث لا ِشباع داعي الغرضيّة٠ أخبار كرامات الأولياء ومناقبهم (الباب الثاني ص١٦٩ ــ ١٨٧) كلها ازدردها اُسامة، ولم يتسامَ فوق المستوى الذي عاش فيه جيله٠ كذلك

الدمشقي الشهير ابن خلّكان زار تربة اُسامة بُعيد وفاته حيث قال «ودخلت تربته وهي علــى جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عنده شيئاً من القرآن وترحّمت عليه»(٥٩)

(٥٩) «تأريخ» ١:١١٢ يعيّن «ليل الثلاثاء» لوفاة أسامة وهو مساء الاثنين. كذلك يعيّن يوم الاحد ٢٧ جمادى الآخر سنة ٤٨٨ لولادتــه، ولكن هذا التاريخ يقع الاربعاء. انظر ادناه ص١٢٤ ح٧٠

الباب الاول
حروب واسفار

الباب الاول

حروب واسفار

١ ـ قتال الافرنج(١)

معركة قنّسرين(٢)

(٣)٠٠٠[ا و] ولم يكن(٤) القتل في ذلك المصافّ في المسلمين كثيراً. وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد(٥)، رحمهما الله، ابن بِشْر(٦) رسولا الى اتابك(٧) يستدعيه. فحضر ذلك المصافّ، وعليه جوشن مذهّب، فطعنه فارس من الافرنج، يقال له ابن الدقيق(٨)، في

(١) ابواب الكتاب والعناوين كلّها من قلم المحرّر، ما عدا «قصد الفرنج دمشق» عنوان قطعة ص١١٤ وكلمة «فصل» في رأس الباب الثاني ص١٦٩ فانها اصليّة

(٢) بلدة في شمالي سورية. ولقد حفظ لنا الذهبي «تاريخ الاسلام» (ملحق درنبورغ *Vie d' Ousāma* باريز ١٨٨٩) ص٦٠١ ـ ٦٠٢ اشارة الى هذه المعركة بقلم أسامة تدل على ان أسامه شهدها بنفسه

(٣) المخطوط مخروم من اوّله. وعدد الاوراق الناقصة ٢١

(٤) «علم بكر» في «كتاب الاعتبار» لابن منقذ طبعة هرتويغ درنبورغ (ليدن ١٨٨٤) ص٢. وسنشير اليها فيما بعد بقولنا طبعة درنبورغ. «ولم يكثر» في *Critica Arabica* بقلم Carlo de Landberg (ليدن ١٨٨٨) نمرة ٢ ص١٥

(٥) الخليفة العبّاسي ٧ ايلول سنة ١١٣٥ ـ ٨ آب سنة ١١٣٦

(٦) ابو بكر بِشْر بن كريم بن بِشْر. ذكره ابن الاثير «الكامل» طبعة طرنبرغ (ليدن ١٨٥١ ـ ٧٤) ج ١ ص٤٠٥

(٧) لقب تركي فارسي معناه «والد الامير». والاشارة الى عماد الدين زنكي أتابك الموصل ١١٢٧ ـ ١١٤٧

(٨) لعلّها تحريف Benedictus وكانت تُلفظ بالافرنسيّة في ذلك العهد "Benedeit"

صدره اخرج الرمح من ظهره، رحمه الله. بل قُتل من الافرنج خلق كثير

وامر اتابك، رحمه الله، فجُمعت روءوسهم في حقل مقابل الحصن، فكانت قدر ثلاثة الاف رأس

الروم والافرنج يحاصرون شيزر

ثم ان ملك الروم(٩) عاد خرج الى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة(١٠)، واتّفق هو والافرنج، خذلهم الله، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها. فقال لي صلاح الدين «ما ترى(١١) ما فعله هذا الولد المُشكَل؟» يعني ابنه شهاب الدين احمد. قلت «واي شيء فعل؟» قال «انفذ اليّ يقول ‹ابصرْ مَن يولّى بلدك›». قلت «وايّ شيء عملت؟» قال «نفّذتُ الى اتابك اقول ‹تسلّمْ موضعك›». قلت «بئس ما فعلت! أما يقول لك اتابك ‹لمّا كانت لحماً اكلها، ولمّا صارت عظماً(١٢) رماها عليّ؟›» قال «فايّ شيء اعملْ؟» قلت «انا اجلس فيها. فان سلّم الله تعالى كان بسعادتك، ويكون وجهك ابيض عند صاحبك. وان أُخذ الموضع وقُتلنا كان بآجالنا، وانت معذور». قال «ما قال لي هذا القول احد غيرك»

وتوهّمت انه يفعل ذلك. فحفلتُ الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصَر. فانا في داري المغربَ ورسوله جاءني قال «يقول لك صلاح الدين ‹نحن بعد غدٍ سائرون الى المَوصل فاعملْ شغلك للمسير›». فورد على قلبي من هذا همّ عظيم وقلت «اتركَ اولادي واخوتي واهلي في الحصار واسير الى الموصل؟» فاصبحت ركبت اليه وهو في(١٣)

(٩) جان كومنينوس Comnenus (١١١٨ ـ ٤٣)
(١٠) ١٩ ايلول سنة ١١٣٧ ـ ٨ ايلول سنة ١١٣٨
(١١) غير واضحة في الاصل
(١٢) «لحم...عظم» في الاصل
(١٣) غير واضحه في الاصل

الحيام استأذنتُه في الرواح الى شيزر لأُحضر لي نفقة ومالاً نحتاج اليه في الطريق(١٤)٠ فاذن وقال(١٥) «لا تبطي»٠ فركبت ومضيت الى شيزر٠ فبدا منه ما(١٦) اوحش قلبي، وعرك ابني، فنازل، فنفّذ الى داري، فرفع كلّ ما فيها من الخيام والسلاح والرحْل وقبض على امر احبتّي(١٧) وتتبّع اصحابي ـ فكانت نكبة كبيرة رائعة

(١٤) «لا حصر لي منه فقال حاجَ اله في الطرف» طبعة در سورغ ص٣
(١٥) هده الكلمه والتي فلها لا يمكن قراءتهما في الاصل
(١٦) هده الكلمة وما بليها غىر مقرؤة في الاصل
(١٧) قرآءة هده الكلمه وما قبلها غير اكيدة

٢ ـ أسامة في دمشق
١١٣٨ ـ ١١٤٤م

فاقتضت الحال مسيري الى دمشق، ورسل اتابك تتردّد في طلبي الى صاحب دمشق. فاقمت فيها ثماني(١) سنين، وشهدت فيها عدّة حروب، واجزل لي صاحبها، رحمه الله، العطيّة والاقطاع، وميّزني بالتقريب والاكرام ـ يضاف ذلك الى اشتمال الامير معين الدين(٢)، رحمه الله عليّ، وملازمتي [١ ق] له، ورعايته لاسبابي

ثم جرت اسباب اوجبت مسيري الى مصر. فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم اقدر على حمله. وفرّطت في املاكي ما كان نكبة اخرى. كلّ ذلك والامير معين الدين، رحمه الله، محسن مجمل كثير التأسّف على مفارقتي مقرّ بالعجز عن امري، حتى انه انفذ اليّ كاتبه الحاجب محمود المسترشدي، رحمه الله، قال «والله لو ان معي نصف الناس لضربتُ بهم النصف الآخر، ولو ان معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين، وما فارقتُك. لكن الناس كلّهم قد تمالوا(٣) عليّ وما لي بهم طاقة. وحيث كنتَ فالذي بيننا(٤) من المودّة على احسن حاله». ففي ذلك اقول:

(١) في سنة ٥٣٢ هـ. لمّا حاصر جان كومنينوس شيزر كان أسامة لم يزل فيها. وفي سنه ٥٣٩ نجده في مصر. فاقامته في دمشق اذن لم ترد مدّتها عن سبع سنين

(٢) معين الدين أنر، وزير شهاب الدين محمود، وظهير أسامة. توفي ٣ آب سنة ١١٤٩

(٣) كذا في الاصل. وهي من مالأ

(٤) «نشأ» طبعة درنبورغ ص٤

مُعيسَ الدين كم لك طوقُ مَنٍّ بجيدي مثل أطواق الحمامِ
يُعبِّدني لك الاحسانُ طَوعاً وفي الاحسان رقٌّ للكرامِ
فصار الى مودّتك انتسابي وان كنتُ العظاميَّ العصاميِ
الم تعلم بانّي لانتمائي اليك رمى سوادي كلُّ رامِ
ولولا انتَ لم يُصحِبْ شماسي لِقَسْرٍ دون إعذارِ الحُسامِ
ولكن خفتُ من نار الأعادي عليك فكنتُ إطفاءَ الضِّرامِ

٣ ـ أسامة في مصر
١١٤٤ ـ ١١٥٤م

ثورة في الجيش المصري

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادي الأخرة سنه تسع و ثلثين وخمس مائة(١)٠ فاقرّني الحافظ لدين الله(٢) ساعة وصولي٠ فخلع عليّ بين يديه، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار، وخوّلني(٣) دحول الحمّام، وانزلني في دار من دور الأفضل بن امير الجيوش(٤) في غايه الحسن وفيها بُسطها وفرشُها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس ـ كلّ ذلك لا يُستعاد منه شيء٠ واقمت بها مدّة(٥) اقامةً في إكرام وإحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج

فوقع بين السودان، وهم في خلق عظيم، شرّ وخُلف: بين الريحانية، وهم عبيد الحافظ، وبين الجيوشيّة(٦) والاسكندرانيّة والفرحيّة٠ فكان الريحانيّة في جانب، وهاولاء كلّهم فـي جانب، متّفقين على الريحانيّة وانضاف الى الجيوشيّة قوم من صبيان الخاص(٧)٠ فاجتمع من الفريقين خلق عظيم٠ وغاب(٨) عنهم الحافظ، وتردّدت اليهم رسله، وحرص

(١) ٣٠ تشرين الثاني سنه ١١٤٤
(٢) الخليفة الفاطمي٠ توفي تشرين الاوّل سنة ١١٤٩
(٣) غير واضحة في الاصل
(٤) «امير الجيوش» لقب الوزير بدر الجمالي وهو ارمني الاصل
(٥) ١١٤٤ ـ ٥٤م
(٦) نسبة لبدر الجمـالي٠ «صبح الاعشى» للقلقشندي (مصر ١٩١٦ ـ ٢٥) ج٣ ص ٤٨٢
(٧) الحرس الفاطمي وعدده ٥٠٠ القلقشندي ٣: ٤٨١
(٨) «وغلب» طبعه درنبورغ ص٤

على ان يُصلح بينهم. فما اجابوا الى ذلك، وهم معه في جانب البلد. فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشيَّة واصحابها على الريحانيَّة فقتلت منهم في سُوَيْقة [٢ و] امير الجيوش الف رجل حتى سدّوا السويقة. ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفاً من ميلهم علينا، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي الى مصر

وظنّ الناس لمّا قُتل الريحانية ان الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم، وكان مريضاً على شفي. فمات، رحمه الله، بعد يومين، وما انتطح فيها عنزان

خروج ابن السلّار على الظافر

وجلس بعده الظافر بامر الله، وهو اصغر اولاده. واستوزر نجم الدين بن مصال، وكان شيخاً كبيراً. والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلّار(٩)، رحمه الله، اذ ذاك في ولايته. فحشد وجمع وسار الى القاهرة، ونفّذ الى داره. فجمع الظافر بامر الله الامراء في مجلس الوزارة، ونفّذ الينا زمام القصور(١٠) يقول «ياامراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي. فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل امره». فقال الامراء «نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون». فرجع الزمام بهذا الجواب

فقال امير من الامراء شيخ يقال له لكرون «ياامراء، نترك علي بن السلّار يُقتل؟» قالوا «لا والله». قال «فقوموا». فنفروا كلّهم وخرجوا من القصر شدّوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السّلار. فلمّا رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه اعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيراً وقال «اخرجْ الى الحوف(١١)، اجمع واحشد وانفق فيهم، وادفع ابن السلّار». فخرج لذلك

(٩) «السلار» في «السيكلوبيدية الاسلامية» مادة «العادل». وولايته الاسكندرية وبُحَيرة

(١٠) القلقشندي ٣: ٤٨٥

(١١) مقاطعة في شرقي الدلتا

ودخل ابن السلّار القاهرة، ودخل دار الوزارة· واتّفق الجند على طاعته، واحسن اليهم· وامرني ان ابيت انا واصحابي في داره، وافرد لي موضعاً في الدار اكون فيه· وابن مصال في الحوف قد جمع من لَوَاتة(١٢) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقاً كثيراً· وقد خرج عبّاس ركن الدين، وهو ابن امرأة علي بن السلّار، ضرب خيمه في ظاهر مصر· فغدتْ سرية من لَوَاتة، ومعهم نسيب لابن مصال، وقصدوا مخيم عبّاس· فانهزم عنه جماعة من المصريين، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم

وبلغ الخبر الى ابن السلّار فاستدعاني في الليل، وانا معه في الدار، وقال «هاولاء الكلاب (يعني جند مصر) قد شغلوا الامير (يعني عبّاساً) بالفوارغ، حتى عدا اليه قوم من لَوَاتة سباحة، فانهزموا عنه ودخل بعضهم الى بيوتهم بالقاهرة، والامير مواقفهم»· قلت «يامولاي، نركب اليهم في سحر· وما يضحي النهار الا وقد فرغنا منهم، ان شاء الله تعالى»· قال «صواب· ابكرْ في ركوبك»· فخرجنا اليهم من بكرة، فلم يسلم منهم الا من سبحت به فرسُه في النيل· واخذ نسيب ابن مصال ضرب رقبته

هزيمة ابن مصال

[٢ ق] وجَمع العسكر مع عبّاس وسيّره الى ابن مصال· فلقيه على دلاص(١٣)، فكسرهم وقتل ابن مصال وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر الف رجل· وحملوا رأس ابن مصال الى القاهرة· ولم يبقَ لسيف الدين من تعانَدَهُ ولا تشاققه

وخلع عليه(١٤) الظافر خلع الوزارة ولقّبه الملك العادل، وتولّى الامور

(١٢) قبيلة بربرية في افريقية الشمالية

(١٣) اسم لبلدة ومقاطعة في الصعيد· «معجم البلدان» لياقوت طبعة ڤستنفلد (ليبزغ ١٨٦٦ — ٧٣) ج ٢ ص٥٨١

(١٤) على ابن السلّار

الخليفه بكيد لوزيره الجديد

كلّ ذلك والظافر منحرف عنه، كاره له، مضمر له الشرّ. فعمل على قتله وقرّر مع جماعة من صبيان الخاصّ وغيرهم ممن استمالهم واتفق فيهم ان يهجموا داره ويقتلوه. وكان شهر رمضان(١٥)، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسُّط الليل وافتراق اصحاب العادل. وانا تلك الليلة عنده

فلمّا فرغ الناس من العساء وافترقوا، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين(١٦) عليه، احضر رجلين من غلمانه وامرهم ان يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون. وكانت الدار، لما اراده الله من سلامة بعضهم، لها بابان: الواحد قريب من دار العادل، والاخر بعيد. فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب، قبل وصول اصحابهم الى الباب الاخر، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب. وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاصّ نحو عشرة رجال(١٧)، كانوا اصدقاء غلماني نخبوءهم. واصبح البلد فيه الطلب لاولئك المنهزمين، ومن ظُفر بهم منهم قُتل

أسامة يخلّص زنجياً

وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا في العَمْلة انهزم الى عُلو داري، والرجال بالسيوف خلفه، فاشرف على القاعة من ارتفاع عظيم. وفي الدار شجرة نَبْق كبيرة. فقفز من السطح الى تلك الشجرة، فثبت عليها. ثم نزل ودخل من كمّ مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس، فكسرها، ودخل الى خلف رحل في المجلس اختبى(١٨) فيه

واشرف اولئك الذين كانوا خلفه. فصحتُ عليهم واطلعت اليهم

(١٥) كانون الثاني سنة ١١٥٠
(١٦) «المعاجلين» طبعة درنبورغ ص٦
(١٧) «رحاله» في الاصل
(١٨) كذا في الاصل

الغلمان، دفعوهم. ودحلت الى ذلك الاسود. فنزع كساء كان عليه وقال «خذه لك». قلت «اكثر الله خيرك. ما احتاجه». واخرجته وسيَّرت معه قوماً من غلماني، فنجا

مزوّر التوقيع تُضرب رقبته

وجلست في صفّة في دهليز داري. فدخل عليّ شابّ سلّم وجلس. فرأيته حسن الحديث حسن المحاصرة. هو يتحدّث وانسان استدعاه فمصى معه ونفّذت خلفه غلاماً يبصر لماذا استُدعي. وكنت بالقرب من دار العادل. فساعة ما حضر ذلك الشابّ بين يدي العادل امر بضرب رقبته. فقُتل. وعاد الغلام، وقد استخبر عن ذنبه، فقيل له «كان يزوّر التواقيع». فسبحان مقدّر الاعمار وموقّت الآجال

وقُتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان

أسامة بمهمّة حربية لدى نور الدين

[٣ و] وتقدّم اليّ الملك العادل، رحمه الله، بالتّجهز للمسير الى الملك العادل نور الدين(١٩)، رحمه الله، وقال «تأخذ معك مالا وتمضي اليه ليبازل طبريّة، ويشغل الفرنج عنّا، لنخرج من هاهنا نخرب غزّة». وكان الافرنج، خذلهم الله، قد شرعوا في عمارة غزّة(٢٠) ليحاصروا عسقلان. قلت «يامولاي، فان اعتذر او كان له من الاشغال ما يعوقه، ايّ شيء تأمرني؟» قال «ان نزل على طبريّة، فاعطه المال الذي معك. وان كان له مانع، فدَيّون من قدرتَ عليه من الجند واطلع الى عسقلان اقم بها في قتال الافرنج، واكتب اليّ بوصولك لآمرك بما تعمل»

ودفع اليّ ستّة آلاف(٢١) دينار مصريّة، وحمل جمل ثياب

(١٩) ابن اتابك زنكي وخلفه سنة ١١٤٦

(٢٠) بالدوين الثالث Baldwin ملك اورشليم شرع بعمارة غزّة عام ١١٤٩ أو ١١٥٠.

(٢١) «الف» في الاصل

دبيقي(٢٢) وسقلاطون(٢٣) ومستجب(٢٤) ودمياطي(٢٥) وعمائم٠ ورتّب معي قوماً من العرب ادلاء

وسرت وقد ازاح(٢٦) علّة سفري بكلّ ما احتاجه من كثير وقليل٠ فلمّا دنونا من الجَفر(٢٧) قال لي الادلاء «هذا مكان لا يكاد يخلو من الافرنج»٠ فامرت اثنين من الادلاء ركبا مَهريين وسارا قدّامنا الى الجفر٠ فما لبثا ان عادا، والمهاريُ(٢٨) تطير بهما، وقالا «الفرنج على الجفر!» فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثَقَلي ورفاقاً من السفّارة كانوا معي، ورددتهم الى الغرب٠ وندبت ستّة فوارس من مماليكي وقلت «تقدمونا، وانا في اثركم»٠ فساروا يركضون وانا اسير خلفهم٠ فعاد اليّ واحد منهم وقال «ما على الجفر احد٠ ولعلّهم ابصروا عُرباناً(٢٩)»٠ وتنازع هو والادلاء٠ فنفّذتُ مَن ردّ الجمال، وسرت

فلمّا وصلت الجفر، وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب اسود، فاخذناه٠ وتفرّق اصحابي فاخذوا رجلاً اخر وامرأتين وصبياناً(٣٠)٠ فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت «ياشيخ، انا في حسبك»٠ قلت «انت آمنة٠ ما لك؟» قالت «قد اخذ اصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وحرزة»٠ قلت لغلماني «من كان اخذ شيئاً يردّه»٠

(٢٢) دبيق واسمها اليوم دبيج بلدة في مقاطعة دمياط من الدلتا اشتهرت بجودة اقمشتها

(٢٣) كلمة يونانية تُطلق على ثياب كتّان موشّية

(٢٤) فرو يُتَّخذ من جلود السنجاب

(٢٥) امتازت دمياط في العهد الفاطمي بصناعة الاقمشة الحريرية والكتّانية المقصّبة٠ «الخطط» للمقريزي (طبعة غاستون ويت ١٩٢٢) ٣: ٢٠٠

(٢٦) «أراح»؟

(٢٧) واحة بين مصر وفلسطين

(٢٨) الجمع بدل المثنى٠ عامية

(٢٩) «عربان» في الاصل٠ «غربان» طبعة درنبورغ ص٨

(٣٠) «وصبيان» في الاصل

فاحضر علام قطعة كساء لعلّ(٣١) طول ذراعين. قالت «هذا الثوب». واحضر آخر قطعة سنْدَروس(٣٢). قالت «هذه الخرزة». قلت «فالحمار والكلب؟» قالوا «الحمار قد ربطوا يديه ورجليه، وهو مرميّ في العشب. والكلب مفلوت(٣٣) يعدو من مكان الى مكان»

فجمعتهم ورأيت بهم من الضُرّ امرّاً عظيماً: قد يبست جلودُهم على عظامهم. قلت «ايش(٣٤) انتم؟» قالوا «نحن من [٣ ق] بني أُبَيّ». وبنو أُبَيّ فرقة من العرب من طيّء لا يأكلون الا الميّتة(٣٥) ويقولون «نحن خير العرب. ما فينا مجذوم ولا ابرص ولا زمن ولا اعمى». واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم. قلت «ما جاء بكم الى هاهنا؟» قالو «لنا بحِسْمى(٣٦) كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها». قلت «وكم لكم هنا؟» قالوا «من عيد رمضان لنا هاهنا، ما رأينا الزاد باعيننا». قلت «فمن اين تعيشون؟» قالوا «من الرمّة (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقّها و نعمل عليها الماء وورق القَطَف (شجر بتلك الارض) و نتقوّت به». قلت «فكلابكم وحُمُركم؟» قالوا «الكلاب نُطعمهم(٣٧) من عيشنا، والحمر تأكل الحشيش». قلت «فلم لا دخلتم الى دمشق؟» قالوا «خفنا الوبأ». ولا وبأ اعظم مما كانوا فيه! وكان ذلك بعد عيد الاضحى(٣٨)

فوقفت حتى جاءت الجمال، واعطيتهم من الزاد الذي كان معنا. وقطعت فوطة كانت على رأسي اعطيتها للمرءتين. فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد. وقلت «لا تقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج»

(٣١) كذا في الاصل. والاصحّ «لعلّها»
(٣٢) كلمة فارسية تُطلق على صمغ من الشجر او معدن شبيه بالكهرباء
(٣٣) «مقلوب» طبعة درنبورغ ص٨
(٣٤) استعمال عاميّ لم يزل دارجاً لليوم في بلاد الشام
(٣٥) حرّمها القرآن ٥: ٤
(٣٦) او «حسْماء» في القسم الجنوبي من البادية السورية والشمالي من الحجاز
(٣٧) عامية فصيحها « نطعمها»
(٣٨) فالقافلة اذن قد مضى عليها اكثر من شهرين وهي في الصحراء

فطنة دليل

ومن طريف ما جرى لي في الطريق انني نزلت ليلة اصلّي المغرب والعشاء قَصْراً وجَمْعاً(٣٩)٠ وسارت الجمَال٠ فوقفت على رفعة من الارض وقلت للغلمان «تفرّقوا في طلب الجمال، وعودوا اليّ٠ فانا ما ازول من مكاني»٠ فتفرّقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم٠ فعادوا كلهم اليّ وقالوا «ما لقيناهم٠ ولا ندري كيف مضوا»٠ فقلت «نستعين بالله تعالى ونسير على النوء»٠ فسرنا ونحن قد اشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البريَّة على امر صعب

وفي الادلاء رجل يقال له جزّيَّة(٤٠) فيه يقظة وفطنة٠ فلمَّا استبطأنا علمَ انَّا قد تُهنا عنهم٠ فاخرج قدّاحة وجعل يقدح، وهو على الجمل، والشرار من الزند يتفرّق كذا وكذا٠ فرأيناه على البعد٠ فقصدنا النار حتى لحقناهم٠ ولولا لطف الله وما الهمه ذلك الرجل كنَّا هلكنا

خرج المال يضيع

ومما جرى لي في تلك الطريق ان الملك العادل، رحمه الله، قال لي «لا تُعلم الادلاء الذين معك بالمال»٠ فجعلت اربعة آلاف(٤١) دينار في خرج على بغل سروجيّ مجنوب معي وسلَّمته الى غلام وجعلت الفي دينار ونفقة لي وسَرْفَسار دنانير(٤٢) مغربيَّة في خرج على حصان مجنوب معي وسلَّمته الى غلام٠ فكنت اذا نزلت جعلت الاخراج في [٤ و] وسط بساط، ورددتُ طرفَيه عليها، وبسطت فوقه بساطاً(٤٣) اخر، وانام على الاخراج واقوم وقت الرحيل قبل اصحابي٠ يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان

(٣٩) اي انه ركع اثنتين بدل الاربع وجعل صلاة المغرب وصلاة العشاء واحده

(٤٠) «جرّيه» في الاصل

(٤١) «الف» في الاصل

(٤٢) كذا في الاصل٠ وربما كان الصواب «وسَرْفَسار ذهب ودنانير»٠ سرفسار تحريف «سَرْأفسار» الفارسية ومعناها رأس العنان الذي يُمسك باليد

(٤٣) «بساطٌ» في الاصل

فيتسلّمانهما. فاذا شدّاهما على الجنائب ركبت وايقظت اصحابي، تهمّمنا بالرحيل

فنزلنا ليلة فـي تيه بني اسرائيل. فلمّا قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب اخـذ الخرج وطرحه علـى وركَي البغل ودار يريد يشدّه بالسُّموط. فزلّ البغـل وحرج يركض وعليـه الخرج. فركبت حصاني، وقد قدّمه الركابيّ، وقلت لواحد من غلماني «اركب. اركب». وركضت خلف البغل فما لحقته، وهـو كأنّه حمار وحش، وحصاني قـد اعيى من الطريق. ولحقني الغلام، فقلت «اتبع البغل كذا». فمضى وقال «والله، يامولاي، مـا رأيت البغل. ولقيت هذا الخرج قد شُلتُه». فقلت «للخرج كنت اطلب. والبغل اهون مفقود»

ورجعت الى المنزلة واذا البغل قد جاء يركض دخل في طُوالة الخيل ووقف. فكأنه(٤٤) ما كان قصده الا تضيع اربعة آلاف(٤٥) دينار

مقابلة نور الدين

ووصلنافي طريقنا الى بصرى(٤٦). فوجدنا الملك العادل نور الدين، رحمـه الله، علـى دمشق. وقـد وصـل الـى بصرى الامير اسَد الديـن شيركوه(٤٧)، رحمه الله. فسرت معه الى العسكر. فوصلته ليلة الاثنين، واصبحتُ تحدّثت مع نور الدين بمـا جئت به. فقال لـي «يافلان، اهل دمشق اعداء، والافرنج اعداء، ما آمن منهما اذا دخلت بينهما». قلت لـه «فتأذن لي ان أُدَيْوِن مـن محرومي الجند قوماً آخذهم وارجع، وتُنفذ معي رجلاً من اصحابك فـي ثلثين فارساً ليكون الاسم لك؟». قال «افعلْ». فدَيْونتُ الـى الاثنين الاخَر ثماني(٤٨) مائة وستّين فارساً واخذتُهم.

(٤٤) «فكانه» طبعة درنبورغ ص١٠
(٤٥) «الف» في الاصل. وتكرارها يدل على ان «الاف» كانت تُكتَب كذلك
(٤٦) إسكي شام من عمال حورن
(٤٧) عمّ صلاح الدين الايوبي
(٤٨) «ثمان» في الاصل

وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق و نرحل بالبوق

الشق في مسجد الرقيم

وسيَّر معي نور الدين الامير عين الدولة الياروقي(٤٩) في ثلثين فارساً فاجتزتُ فـي طريقي بالكهف والرقيم(٥٠)٠ فنزلت فيه ودخلتُ صلَّيت في المسجد، ولم ادخل في ذلك المضيق الذي فيه٠ فجاء امير من الاتراك الذين كانوا معي يقـال له بَرْشَك(٥١) يريد الدخول فـي ذلك الشقّ الضيّق٠ قلت «ايّ شيء تعمل في هذا؟ صلِّ برّا»٠ قال «لا اله الا الله٠ انا حرام اذا حتى لا ادخل في ذلك الشقّ الضيّق!» قلت «ايّ شيء تقول؟» قـال «هذا الموضع [٤ ق] مـا يدخل فيه ولد زنا ــ ما يستطيع الدخول»٠ فاوجب قوله ان قمتُ دخلت في ذلك الموضع صلَّيت، وخرجت، وانا ــ الله يعلم ــ ما اصدّق ما قاله٠ وجاء اكثر العسكر فدخلوا وصلّوا

ومعي فـي الجند بَراق(٥٢) الزُبيدي معـه عبد لـه اسود ديّن كثير الصلاة، ادق مـا يكون مـن الرجال واذبّهم٠ فجاء الـى ذلك الموضع، وحرص بكلّ حرص علـى الدخول، فمـا قـدر يدخل٠ فبكى المسكين و توجّع و تحسَّر، وعاد بعد الغلبة عن الدخول

موقعة مع الافرنج في عسقلان

فلمَّا وصلنا عسقلان سحر، ووضعنا اثقالنا عند المصلَّى، صبحونا [كذا] الافرنج عند طلوع الشمس٠ فخرج الينا نـاصر الدولة يـاقوت، والـي عسقلان، فقال «ارفعوا، ارفعوا اثقالكم»٠ قلت «تخـاف لا يغلبو نـا(٥٣) الافرنج عليهـا»٠ قال «نعـم»٠ قلت «لا تخف٠ هم يرونـا في البريّة

(٤٩) امير تركي كان سابقاً في خدمة زنكي

(٥٠) البتراء٠ راجع القرآن ١٨:٨

(٥١) « برنك» في الاصل

(٥٢) « براف» في الاصل

(٥٣) كذا٠ والمقصود «لئلا يغلبنا»

ويعارضونا، الى ان وصلنا الى عسقلان، ما خفناهم. نخافهم الان ونحن عند مدينتنا؟»

ثم ان الافرنج وقفوا على بُعد ساعة. ثم رجعوا الى بلادهم جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان. فخرجنا اليهم، وقد خرج راجل عسقلان. فدرتُ على سرب الرجّالة وقلت «يااصحابنا، ارجعوا الى سوركم، ودعونا وايّاهم. فان نصرنا عليهم فانتم تلحقونا. وان نصروا علينا كنتم انتم سالمين عند سوركم». فامتَنَعوا من الرجوع. فتركتُهم ومضيت الى الافرنج، وقد حطّوا خيامهم ليضربوها. فاحتطنا بهم، واعجلناهم عن طيّ خيامهم. فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين

فلمّا انفسحوا عن البلد تبعهم من الطفوليين(٥٤) اقوام ما عندهم مَنَعة ولاغَنَاء. فرجع الافرنج حملوا على اولئك فقتلوا منهم نفراً. فانهزمت الرجّالة، الذين رددتهم فما رجعوا، ورموا تراسهم. ولقينا الافرنج، فرددناهم. ومضوا عائدين الى بلادهم وهي قريبة من عسقلان

وعاد الذين انهزموا من الرجّالة يتلاومون، وقالوا «كان ابن منقذ اخبر منا. قال لنا ‹ارجعوا›، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا»

موقعة أخرى في بيت جبريل

وكان اخي عزّ الدولة ابو الحسن علي(٥٥)، رحمه الله، في جملة من سار معي من دمشق هو واصحابه الى عسقلان. وكان، رحمه الله، من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة

(٥٤) الكلمة نصف ممحوّة في الاصل. «المستوليين» طبعة درنبورغ ص١٢، «المتولين» في كتابه *Ousāma Ibn Mounkidh* (باريز ١٨٨٩) ص٦٢٥. «المستولبين ــ المستالبين» في لاندبرغ ص١٧

(٥٥) اخو أسامة الاكبر

على بيت جبريل(٥٦) وقتالها. فوصلناها وقاتلناهم. [٥ و] ورأيت عند رجوعنا على البلد غلّة كبيرة. فوقفت في اصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر. وصرنا تتنقّل من موضع الى موضع، ومضى العسكر تقدّمني. فاجتمع الافرنج، لعنهم الله، من تلك الحصون، وهي كلّها متقاربة وفيها خيل كثيرة للافرنج، لمغاداة عسقلان ومراوحتها. وخرجوا على اصحابنا

فجاءني فارس منهم يركض وقال «قد جاء الافرنج!» فسرت الى اصحابنا وقد وصلهم اوائل الفرنج. وهم، لعنهم الله، اكبر الناس احترازا في الحرب. فصعدوا على رابية وقفوا عليها. وصعدنا نحن على رابية مقابلهم. وبين الرابيتين فضاء. اصحابنا المنقطعون واصحاب الجنائب عبور تحتهم، لا ينزل اليهم منهم فارس خوفا من كمين او مكيدة. ولو نزلوا اخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلّة، وعسكرنا قد تقدّمنا منهزمين

وما زال الافرنج وقوفا على تلك الرابية الى ان انقطع عبور اصحابنا. ثم ساروا الينا. فاندفعنا بين ايديهم ـ والقتال بيننا ـ لا يجدّون في طلبنا، ومن وقّف فرسه قتلوه، ومن وقع اخذوه. ثم عادوا عنّا

وقدّر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم. ولو كنّا في عددهم ونصرنا عليهم، كما نصروا علينا، كنّا افنيناهم

مهاجمة يُبنى

فاقمت بعسقلان لمحاربة الافرنج اربعة اشهر هجمنا فيها مدينة يُبْنى(٥٧) وقتلنا فيها نحو مائة نفس واخذنا منها اسارى

مقتل اخي أسامة

وجاءني بعد هذه المدّة كتاب الملك العادل، رحمه الله، يستدعيني.

(٥٦) او «بيت جبْرين». وهي في منتصف الطريق بين غزّة واورشليم. ياقوت ١:٧٧٦

(٥٧) «بُسا» في الاصل. وهي قرية بحرية في فلسطين ذكرها يشوع ١٥:١١ واخبار الايام الثاني ٢٦:٦

فسرت الــى مصر وبقي اخي عزّ الدولــة ابــو الحسن علــيّ، رحمه الله، بعسقلان· فخرج عسكرها الــى قتال عزّة فاستشهد، رحمه الله، وكان مــن علماء المسلمين وفرسانهم وعُبَّادهم

اغتيال ابن السلّار

وامَّا الفتنة التي قُتل فيها الملك العادل بــن السَّلار، رحمه الله، فانــه كان جهَّز عسكراً الى بِــلْبيس(٥٨)، ومقدّمه ابن امرأته ركن الدين عبَّاس بن ابي الفتوح بن تميم بن باديس، لحفظ البلاد من الافرنج، ومعه ولده ناصر الدين نصر بــن عبَّاس، رحمه الله· فاقام مع ابيه فــي العسكر ايَّاماً· ثم دخل الى القاهرة بغير اذن من العادل ولا دستور· فانكر عليه ذلك وامره بالرجوع الــى العسكر، وهو يظنّ انه دخــل القــاهرة للعب والفرجة [٥ ق] وللضجر من المقام في العسكر

وابن عبَّاس قــد رتَّب امره مع الظافر، ورتّب معه قومــاً مــن غلمانه، يهجم بهم على العادل فــي داره اذا ابَرَد فــي دار الحُرَم ونام، فيقتله· وقرّر مع استاذ من استاذِ يِ(٥٩) دار العادل ان يُعلمه اذا نام· وصاحبة الدار امرأة العادل جدّته، فهو يدخل اليها بغير استئذان

فلمَّا نام العادل اعلمه ذلك الاستاذ بنومه· فهجم عليه في البيت الذي هــو نائم فيه، ومعه ستّة نفر مــن غلمانه، فقتلوه، رحمه الله· وقطع رأسه وحمله الى الظافر· وذلك فــي يوم الخميس السادس مــن المحرّم سنه ثمان واربعين وخمس مائة(٦٠)· وفي دار العادل من مماليكه واصحاب النوبة نحو من الف رجل· لكنهم في دار البلام، وهو قُتل في دار الحرم

فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين اصحاب الظافر وابن عبَّاس الى ان رفع رأس العادل على رمح· فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين: فرقة

(٥٨) «بِــلْبَيْــس» في العامية· وموقعها الى الشمال الشرقي من القاهرة
(٥٩) الفلقشندي ٣: ٤٨٤ — ٤٨٥
(٦٠) ٤ بسان سنة ١١٥٣

خرجت من باب القاهرة الى عبّاس لخدمته وطاعته، وفرقة رمت السلاح وجاءوا الى بين يدي نصر بن عبّاس قبّلوا الارض ووقفوا في خدمته

عبّاس يتولّى الوزارة

واصبح والده عبّاس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة. وخلع عليه الظافر وفوّض اليه الامر. وابنه نصر(٦١) مخالطه ومعاشره، وابوه عبّاس كاره ٌ لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يُفنوهم ويحوزوا كلّما لهم: حتى يتفانوا. فاحضراني ليلة وهما في خلوة يتعاتبان، وعبّاس يردّد عليه الكلام، وابنه مطرق كأنه نمر يردّ عليه كلمة بعد كلمة يشتاط منها عبّاس ويزيد في لومه وتأنيبه. فقلت لعبّاس «يامولاي الافضل، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبّخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي. فانا معه في كلّ ما يعمله، ما اتبرّأ من خطاه ولا صوابه. ايّ شيء هو ذنبه؟ ما اساء الى احد من اصحابك، ولا فرط في شيء من مالك، ولا قدح في دولتك. خاطر بنفسه حتى نلتَ هذه المنزلة. فما يستوجب منك اللائمة». فامسك عنه والده، ورعى لي ابنُه ذلك

الخليفة يحرّش ابن عبّاس على ابيه

وشرع الظافر مع ابن عبّاس في حمله على قتل ابيه، ويصير في الوزارة مكانه. وواصله بالعطايا الجزيلة. فحضرتُه يوماً وقد ارسل اليه عشرين صينيّة فضّة فيها عشرون الف دينار. ثم اغفله ايّاماً وحمل اليه من الكسوات من كلّ نوع [٦ و] ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله. واغفله ايّاماً. وبعث اليه خمسين صينيّة فضّة فيها خمسون الف دينار. واغفله اياماً. وبعث اليه ثلثين بغلاً رحلاً(٦٢) واربعين جملاً بعددها وغرائرها وحبالها.

(٦١) ابو شامة «كتاب الروضتين في اخبار الدولتين» (مصر ١٢٨٧ — ٨٨) ١: ٩٧ — ٩٨ ننقل عن أسامه مختصراً من هنا الى رأس ص٢٧ ادناه

(٦٢) « بغل رحل» في الاصل

وكان يتردّد بينهما رجل يقال له مُرتَفع بن فحل. وانا مع ابن عبّاس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً: انام وراسي على راس مخدّته

فكنت عنده ليلة، وهو في دار الشابورة، وقد جاء مرتفع بن فحل. فتحدّث معه الى ثلث الليل، وانا معتزل عنهما ثم انصرف. فاستدعاني وقال «اين انت؟» قلت «عند الطاقة اقرأ القرآن. فاني اليوم ما تفرّغت اقرأه». فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك، ويريد بي اقوّي عزمه على سوء ما قد حمله عليه الظافر. فقلت «يامولاي، لا يستزلّك الشيطان وتنخدع لمن يغرّك. فما قتل والدك مثل قتل العادل. فلا تفعل شيئاً تُلعَن عليه الى يوم القيامة». فاطرق، وقاطعني الحديث. ونمنا

فاطلع والده على الامر، فلاطفه، واستماله، وقرر معه قتل الظافر

الوزير يغتال الخليفة

وكانا يخرجان في الليل متنكرين، وهما اتراب، وسنهما واحد. فدعاه الى داره، وكانت في سوق السيوفيين(٦٣)، ورتّب من اصحابه نفراً في جانب الدار. فلمّا استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه. وذلك ليلة الخميس سلخ المحرّم سنة تسع واربعين وخمس مائة(٦٤). ورماه في جبّ في داره. وكان معه خادم له اسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة، فقتلوه

واصبح عبّاس جاء الى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس. فجلس في خزانة في مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام. فلمّا جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال «ما لمولانا ما جلس للسلام؟» فتبلّد الزمام في الجواب. فصاح عليه وقال «مالك لا تجاوبني؟» قال «يامولاي مولانا ما ندري اين هو». قال «مثل مولانا يضيع؟ ارجع فاكشف الحال». فمضى ورجع وقال «ما وجدنا مولانا». فقال عبّاس «ما

(٦٣) «السيُوفين» في الاصل
(٦٤) ١٥ نيسان سنة ١١٥٤

يبقى الناس بلا خليفة. ادخلْ الى الموالي اخوته يخرج منهم واحد نبايعه». فمضى وعاد وقال «الموالي يقولون لك «نحن ما لنا في الامر شيء. والده عزله عنا وجعله في الظافر. والامر لولده بعده»». قال «اخرجوه حتى نبايعه»

مبايعة ابن الظافر

وعبّاس قد قتل الظافر وعزم على [٦ ق] ان يقول «اخوتُه قتلوه» ويقتلهم به. فخرج ولد الظافر، وهو صبيّ محمول على كتف استاذ من استاذِي القصر. فاخذه عبّاس، فحمله، وبكى الناس. ثم دخل به، وهو حامله، الى مجلس ابيه، وفيه اولاد الحافظ: الامير يوسف، والامير جبريل، وابن اخيهم الامير ابو البقى(٦٥)

الاجهاز على أسرة الخليفة

ونحن في الرواق جلوس، وفي القصر اكثر من الف رجل من المصريين فما راعنا الا فوج قد خرج من المجلس الى القاعة، وصوت السيوف على انسان. فقلت لغلام لي ارمنيّ «ابصر من هذا المقتول». فمضى ثم عاد وقال «ما هاولاء مسلمون! هذا مولاي ابو الامانة (يعني الامير جبريل) قد قتلوه، وواحد قد شقّ بطنه يجذب مصارينه». ثم خرج عبّاس، وقد اخذ رأس الامير يوسف تحت ابطه ورأسه مكشوف، وقد ضربه بسيف والدّم يفور منه. وابو البقى ابن اخيه مع نصر بن عبّاس. فادخلوهما(٦٦) في خزانة في القصر وقتلوهما، وفي القصر الف سيف مجرّدة(٦٧)

وكان ذلك اليوم من اشدّ الايّام التي مرّت بي، لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق

(٦٥) «ابو البقاء» ابو شامة ١:٩٨

(٦٦) «فادخلاهما» في الاصل

(٦٧) «مُجرّد» ابو شامة ١:٩٨

بوّاب يموت جزعاً

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم ان عبّاساً لمّا اراد الدخول الى المجلس وجد بابه قد قُفل من داخل. وكان يتولّى فتح المجلس وغلقه استاذ شيخ يقال له امين الملك. فاحتالوا في الباب حتى فتحوه. ودخلوا فوجدوا ذلك الاستاذ خلف الباب، وهو ميت، وفي يده المفتاح

عبّاس يقمع الثورة

وامّا الفتنة التي جرت بمصر ونُصر فيها عبّاس على جند مصر فانه لمّا فعل باولاد الحافظ، رحمه الله، ما فعل جفت عليه قلوب الناس واضمروا فيها العداوة والبغضاء. وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين ابا الغارات طلائع بن رُزّيك، رحمه الله، يستصرخون [!] به. وحشد وخرج من ولايته(٦٨) يريد القاهرة. فامر عبّاس فعُمرت المراكب، وحُمل فيها الزاد والسلاح والخزانة. وتقدّم الى العسكر بالركوب والمسير معه. وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع واربعين(٦٩). وامر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة. وقال لي «تقيم معه»

فلمّا خرج من داره متوجهاً الى لقاء ابن رزّيك خامر عليه الجند وغلقوا ابواب القاهرة. ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والازقّة: خيّالتهم تقاتلنا في الطريق، ورجّالتهم يرموننا [٧ و] بالنشّاب والحجارة من على السطوحات، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات. ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار الى العصر. فاستظهر عليهم عبّاس. وفتحوا ابواب القاهرة وانهزموا. ولحقهم عبّاس الى ارض مصر فقتل منهم من قتل وعاد الى داره وامره ونهيه

(٦٨) مُنية بني الخصيب في صعيد مصر

(٦٩) وخمسمايه. ٢٦ نيسان سنه ١١٥٤

وامر باحراق البرقيّة(٧٠) لانها مجمع دور الاجناد. فتلطّفت الامر معه وقلت «يامولاي، اذا وقعت النار احرقت ما تريد وما لا تريد. وبعلت عن ان تطفئها». ورددت رأيه عن ذلك

واخذت الامان للامير المؤتمن بن ابي رمّادة، بعد ان امر بتلافه، واعتذرت عنه. فصفح عن جرمه

عبّاس يفرّ الى الشام

ثم سكنت تلك الفتنة، وقد ارتاع منها عبّاس، وتحقّق عداوة الجند والامراء، وانه لا مقام له بينهم. وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشأم الى الملك العادل نور الدين، رحمه الله، يستنجد به. والرسل بين من في القصور(٧١) وبين ابن رزّيك متردّدة. وكان بيني وبينه، رحمه الله، مودّة ومخالطة من حين(٧٢) دخلت ديار مصر. فنفّذ اليّ رسولا يقول لي «عبّاس ما يقدر على المقام بمصر، بل هو يخرج منها الى الشأم، وانا املك البلاد. وانت تعرف ما بيني وبينك، فلا تخرج معه. فهو بحاجته اليك في الشأم يرغبك ويُخرجك معه. فالله الله لا تصحبه. فانت شريكي في كلّ خير اناله». فكأنّ الشياطين وسوست لعبّاس بذلك، او توهّمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزّيك من المودّة

فامّا الفتنة التي خرج فيها عبّاس من مصر وقتله الافرنج فانه لمّا توهّم من امري وامر ابن رزّيك ما توهّمه، او بلغه، احضرني واستحلفني بالأيمان المغلّظة التي لامحرج(٧٣) منها انني اخرج معه واصحبه. ولم يقنعه ذلك حتى نفّذ في الليل استاذ داره الذي يدخل على حرمه اخذ اهلي ووالدتي واولادي الى داره، وقال لي «انا احمل كلفتهم عنك في الطريق، واحملهم مع والدة ناصر الدين»

(٧٠) حيّ في شرقيّ القاهرة تقيم فيه فرقة أصل انفارها من برقة
(٧١) اي بين أنسباء الخليفة
(٧٢) «حيث» طبعة درنبورغ ص١٧
(٧٣) «مخرج» طبعة درنبورغ ص١٧

واهتم بامر سفره بخيله وجماله وبغاله. فكان له مائتا حصان وحِجرة مجنوبة على ايدي الرجّالة، كعادتهم بمصر، ومائتا بغل رحل، واربع مائة جمل تحمل اثقاله

وكان كثير اللهج بالنجوم، وهو معوّل على المسير بالطالع يَوم السبت الخامس عشر من ربيع الاول من السنة(٧٤). فحضرته وقد دخل عليه غلام يقال له عنتر(٧٥) الكبير، وهو متولّي اموره كبيرها وصغيرها، فقال له «يامولاي، ايّ شيء مرجو من مسيرنا الى الشأم؟ خذ خزائنك واهلك وغلمانك.ومن [٧ ق] تبعك وسر بنا الى الاسكندرية، نحشد من هناك ونجمع، ونرجع الى ابن رزّيك ومن معه. فان نصرنا عدتَ الى دارك والى ملكك. وان عجزنا عنه عدنا الى الاسكندريّة الى بلد نحتمي فيه ويمتنع على عدوّنا». فنهره وخطّأ رأيه، وكان الصوابُ معه

ثم اصبح يوم الجمعة استدعاني من بكرة. فلمّا حضرت عنده قلت «يامولاي، اذا كنت عندك من الفجر الى الليل فمتى اعمل شغل سفري؟» قال «عندنا رسل من دمشق، تسيّرهم وتمضي تعمل شغلك»

المكيدة ضد عبّاس

وكان قبل ذلك احضر قوماً من الامراء واستحلفهم انهم لا يخونونه ولا يخامرون عليه. واحضر جماعة من مقدّمي العرب من درماء وزُريق وجُذام وسنبس وطلحة وجعفر ولَواتة واستحلفهم بالمصحف والطلاق على مثل ذلك. فما راعنا، وانا عنده بكرة الجمعة، الا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا الينا وروءوسُهم الامراء الذين استحلفهم بالامس. فامر بشدّ دوابّه فشُدّت وأُوقفت على باب داره. فكانت بيننا وبين المصريّين كالسدّ لا يصلون الينا لازدحام الدوابّ دوننا.

فخرج اليهم غلامه عنتر الكبير الذي كان اشار عليه بذلك الرأي، وهو

(٧٤) ١٣٠ يار سنة ١١٥٤

(٧٥) أو «عنبر» كما ورد في «ديوان» أسامه وفي ابي شامة ٩٨.١

زمامهم، صاح عليم وشتمهم وقال «روحوا الى بيوتكم»· فسيّبوا الدوابّ ومضى الركابيّة والمكارية(٧٦) والجمّالون(٧٧)، وبقيت الدوابّ مهملة· ووقع فيها النهب

فقال لي عبّاس «اخرج احضر الاتراك، وهم عند باب النصر(٧٨)، والكتّاب ينفقون فيهم»· فلمّا جئتهم واستدعيتهم ركبوا كلّهم، وهم في ثماني(٧٩) مائة فارس، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال· وركب المماليك، وهم اكثر من الاتراك، وخرجوا ايضاً من باب النصر· ورجعت اليه عرّفته، ثم اشتغلت باخراج اهلي الذين كان حملهم الى داره· فاخرجتهم واخرجت حرم عبّاس· فلمّا خلت الطريق ونُهبت تلك الدوابّ باجمعها وصل المصريّون الينا فاخرجونا، ونحن في قلّة، وهم في خلق كثير

فلمّا خرجنا من باب النصر وصلوا الى الابواب اغلقوها وعادوا الى دورنا نهبوها· فاخذوا من قاعة داري اربعين غرارة جُمَّالية(٨٠) مخاطة فيها من الفضّة والذهب والكسوات شيء كثير· واخذوا من اصطبلي ستّة وثلثين حصاناً وبغلة سروجيّة بسروجها وعدّتها كاملة وخمسة وعشرين جملاً· واخذوا من اقطاعي من كُوم اشفين مائتي رأس بقر للتنّائين والف شية(٨١) واهراء غلّة

ولمّا سرنا عن باب النصر تجمّعت قبائلُ العرب الذين استحلفهم عبّاس وقاتلونا من يوم الجمعة [٨ و] ضحى نهار الى يوم الخميس

(٧٦) عامية فصيحها «المكارُون»

(٧٧) «والجمالين» في الاصل

(٧٨) ذكره المقريزي في «الخطط» ٢: ٩٢ و١٧٤

(٧٩) «ثمان» في اصل

(٨٠) الجُمالية من النوق العظيمة

(٨١) «للتنّابين والف شية» طبعة درنبورغ ص١٩· «للبساتين والوسيّة» لاندبرغ ص١٨· والكلمات غير واضحة في الاصل

العشرين مـن ربيع الاوّل(٨٢)٠ فكانوا يقاتلونا النهار كلّه٠ فاذا جنّ الليل ونزلنا اغفلونا الى ان ننام، ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون اصواتهم بالصياح٠ فما تفر مـن خيلنا وخرج اليهم اخذوه

أسامة جريح

وانقطعتُ يوماً عن اصحابي وتحتي حصان ابيض، هو اردى(٨٣) خيلي، شدّه الركابي ولا يدري ما يجري، وما معي من السلاح غير سيفي٠ فحمل عليّ العرب فلم أجد ما ادفعهم به، ولا ينجيني منهم حصاني، وقد وصلتني رماحهم٠ قلت «أثب عن الحصان واجدب سيفي، ادفعهم»٠ فجمعت نفسي لاثب، فتعتع الحصان٠ فوقعت على حجارة وارض خشنة، فانقطعتْ قطعة من جلدة رأسي ودختُ حتى ما بقيت ادري بما انا فيه٠ فوقف عليّ منهم قوم، وانـا جالس مكشوف الرأس، غائب الذهن، وسيفي مرميٌ بجهازه٠ فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال «هـات الوزن» وانا لا ادري مـا يقول٠ ثم اخذوا حصاني وسيفي

ورآني الاتراك فعادوا اليّ٠ ونفّذ لي ناصر الدين بن عبّاس حصانـاً وسيفاً وسرتُ وانا لا اقدر على عصابـة اشدّ بها جراحي٠ فسبحان مـن لا يزول ملكه

وسرنا وما مع احد منا كفُ زاد٠ واذا اردت اشرب ماء ترجّلت شربت بيدي، وقبل ان اخرج بليلة جلستُ فـي بعض دهّاليز داري على كرسيّ وعرضوا علـيّ ستّة عشر جمل(٨٤) روايا وما شاء الله سبحانه مـن القرب والسطائح

وعجزت عن حمل اهلي٠ فرددتهم من بلبيس الى عند الملك الصالح ابي الغارات طلائع بن رزّيك، رحمه الله، فاحسن اليهم وانزلهم فـي دار

(٨٢) ٢٩ ايار ــ ٤حزيران سنة ١١٥٤
(٨٣) عامية فصيحها «اردأ»
(٨٤) «حمْلة»؟

واجرى لهم ما يحتاجونه. ولمّا اراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حَسَبنا اذا عُدنا(٨٥)

عبّاس يقتله الافرنج

وسرنا الى يوم الاحد ثالث وعشرين ربيع الاوّل فصبّحنا(٨٦) الافرنج في جمعهم على المُوَيْلح(٨٧) فقتلوا عبّاساً وابنه حُسام الملك واسروا ابنه ناصر الدين(٨٨) واخذوا خزاناته وحُرمَه. وقتلوا من ظفروا به. واخذوا اخي نجم الدولة ابا عبد الله محمداً(٨٩)، رحمه الله، اسيراً. وعادوا عنا، ونحن قد تحصّنا عنهم في الجبال

مخاطر وادي موسى

فسرنا في اشدّ من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل الى ان وصلنا [٨ ق] جبال بني فُهيد، لعنهم الله، في وادي موسى. وطلعنا في طرقات ضيّقة وعرة الى ارض فسيحة ورجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منّا منفرداً قتلوه

وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الامراء الطائيين. فسألت «من هاهنا من الأمراء بني ربيعة؟» قالوا «منصور بن غِدَفل»(٩٠). وهو صديقي. فدفعت لواحد دينارين وقلت «امضِ الى منصور قل له ‹صديقك ابن منقذ يسلّم عليك ويقول لك صل اليه بكرة›». وبتنا في مبيت سوء من خوفهم

فلمّا اضاء الصبح اخذوا عدّتهم ووقفوا على العين وقالوا «ما ندعكم

(٨٥) «ثم جاؤا اليه واخذوا منه حسباً على اموالهم وانفسهم وبيوتهم ظناً منهم ان له عودة اليهم» ابو شامة ١:٩٨

(٨٦) «وصبحونا» في الاصل. وذلك في ٥ حزيران سنة ١١٥٤

(٨٧) محطة في الصحراء على طريق مصر ـ فلسطين

(٨٨) كيفية قتله والتمثيل به وصفها «تاريخ» ابن خلكان (القاهرة) ٢:١٢٣

(٨٩) «محمد» في الاصل

(٩٠) «عدفل» في الاصل

تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش». وتلك العين تكفي ربيعة ومضر، وكم في ارضهم مثلها، وانما قصدهم ان ينشئوا الشرّ بيننا وبينهم ويأخذونا. فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن غدفل وصل. فصاح عليهم وسبَّهم. فتفرّقوا. وقال «اركب». فركبنا ونزلنا في طريق اضيق من الطريق التي طلعت فيها واوعر. فنزلنا الى الوطا سالمين، وماكدنا نسلم. فجمعت للامير منصور الف دينار مصريّة ودفعتُها اليه، وعاد

في دمشق

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الافرنج وبني فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الاخر من السنة(٩١). وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عزّ وجلّ وحسن دفاعه

قصّة السرج

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الوقعة ان الظافر كان ارسل الى ابن عبّاس رهواراً صغيراً مليحاً افرنجيّاً. وكنتُ قد خرجت الى قرية لي، وابني ابو الفوارس مرهف عند ابن عبّاس، فقال «كنّا نريد لهذا الرهوار سرجاً مليحاً من السروج الغزّيّة(٩٢)». فقال له ابني «قد وجدته، يامولاي، وهو فوق الغرض(٩٣)». قال «اين هو؟» قال «في دار خادمك والدي. له سرج غزّيّ مليح». قال «انفذ احضره». فارسل رسولا الى داري اخذ السرج، فاعجبه، وشدّ به على الرهوار. وكان السرج طلع معي من الشأم على بعض الجنائب وهو منبّت مُجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلثون مثقالا(٩٤)

(٩١) ١٩ حزيران سنة ١١٥٤

(٩٢) اشتهرت غزّة لذلك العهد بصناعة السروج

(٩٣) «العرض» طبعة درنبورغ ص٢١٠ والغرض الحاجة والبغية

(٩٤) لعلّ المقصود ان هذا وزن الذهب عليه

ووصلت انا مـن الاقطاع٠ فقال لـي ناصر الدين «ادللنا(٩٥) عليك واخذنا هذا السرج من دارك»٠ فقلت «يامولاي، ما اسعدني بخدمتك!»

فلمـّا خرج علينا الافرنج بالمويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال اخذت العرب خيلهم٠ فلمـّا وقع الافرنج(٩٦) بقيت الخيل سائبة٠ فنزل الغلمان عن [٩ و] الجمال واعترضوا الخيل واخذوا منهـا ما ركبوه٠ فكان على بعض الخيل التي اخذوها ذلك السرج الذهب الذي اخذه ابن عبـّاس

وكان حسام الملك ابن عمّ عبـّاس، واخو عبـّاس ابن العادل(٩٧) قد سلما فيمن سلم منـّا٠ وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وانـا اسمع «كلّ ما كان لهذا المسكين (يعني ابن عبـّاس) نُهب٠ فمنه ما نهبه الافرنج، ومنه مـا نهبه اصحابه»٠ قلت «لعلـّك تعني السرج الذهب»٠ قال «نعم»٠ فامرت باحضـاره وقلت «اقرأْ مـا عليه٠ اسم عبـّاس عليه واسم ابنـه او اسمي؟ ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في ايـّام الحافظ غيري؟» وكان اسمي مكتوباً علـى دائر السرج بالسواد، ووسطه منبـّت٠ فلمـّا قرأ ما عليه اعتذر وسكت

عدم الاتعاظ بنكبة رضوان

ولولا نفاذ المشيئة فـي عبـّاس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كـان اتـّعظ بمـا جرى قبله للافضل رِضوان بن الولَخشي، رحمه الله٠ كان وزيرًا فقام الجند عليه بامر الحافظ كمـا قاموا على عبـّاس٠ فخرج مـن مصر يريد الشأم ونُهبت داره وحُرمه حتى ان رجلاً يُعرف بالقائد مقبل رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها الى داره٠ وكانت له امرأة صالحة٠ فاطلعت الجارية الى حجرة في عُلْو الدار فسمعتـْها تقول «لعل

(٩٥) «أذللنا» في الاصل٠ والمقصود اخذنا السرج بنوع الدالـّة التي لنا عليك
(٩٦) عن خيولهم
(٩٧) هذا العادل هو الوزير ابن السلاّر

الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا». فسألتها «من انت؟» فقالت «انا قطر الندى(٩٨) بنت رضوان». فنفذت المرأة الى زوجها القائد(٩٩) مقبل احضرته وهو على باب القصر في خدمته. فعرفته حال البنت. فكتب الى الحافظ مطالعة، فعرفه بذلك. فنفذ من خدام القصر من اخذها من دار مقبل ورفعها الى القصر

أسامة بمهمة سياسية تجاه رضوان

ثم ان رضوان وصل الى صلخد، وفيها امين الدولة طغدكين(١٠٠) اتابك، رحمه الله. فاكرمه وانزله وخدمه. وملكُ الامراء اتابك زنكي ابن آقسُنقُر، رحمه الله، على بعلبك يحاصرها. فراسل رضوان واستمر اله يمضي اليه. وكان رجلاً كاملاً كريماً شجاعاً كاتباً عارفا، وللجند اليه ميل عظيم لكرمه. فقال لي الامير معين الدين(١٠١)، رضي الله عنه، «هذا الرجل ان انضاف الى اتابك دخل علينا منه ضرر كثير». قلت «فايّ شيء ترى؟» قال «تسير اليه لعلّك تردّ رأيه عن قصد اتابك. ويكون وصوله الى دمشق. وانت ترى فيما تفعله في هذا رأيك». فسرت اليه الى صلخد واجتمعت به وباخيه الأوحد وتحدّثت معهما. فقال لي الافضل رضوان «فرط الأمر مني ورهنت قولي عند [٩ ق] هذا السلطان بوصولي اليه، ولزمني الوفاء بقولي». قلت «اقدمك الله على خير! وانا اعود الى صاحبي، فانه ما يستغني عنّي، بعد ان اخرج اليك بما في نفسي». قال «قل». قلتُ «اذا وصلت الى اتابك، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك الى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به؟» قال «لا». قلت «فاذا هو نزل على دمشق وحاصرها واخذها بعد المدّة الطويلة يقدر، وقد ضعف عسكره

(٩٨) «الندا» في الاصل. «الندا» طبعة درنبورغ ص٢٢

(٩٩) القائد من كان تحت إمرته مائة. الطبري «تاريخ» (ليدن ١٨٨٣ – ٨٤) ٣ ١٧٩٩

(١٠٠) ربما كان المراد «كُمُشتكين» لان طُغدكين كان قد توفي قبل الان

(١٠١) معين الدين أُنَر، وزير دمشق

وفَرغَتْ نفقاتُهم وطالت سفرتهم، يسير معك الى مصر قبل ان يجدّد بركه ويقوّي عسكره؟» قال «لا». قلت «ذلك الوقت يقول لك «نسير الى حلب نجدّد آلة سفرنا». فاذا وصلتم الى حلب قال «نمضي الى الفرات(١٠٢) نجمع التركمان». فاذا نزلتم على الفرات قال «ان لم نعدّ الفرات ما يجتمع لنا التركمان». فاذا عدّيتم تشوّف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال «هذا عزيز مصر(١٠٣) في خدمتي». وتمنّى ذلك الوقت ان ترى حجرًا من حجارة الشام فلا تقدر عليها وتذكر حينئذٍ كلامي وتقول «نصحني ما قبلتُ»». فاطرق مفكرًا لا يدري ما يقول. ثم التفت اليّ وقال «ماذا اعمل؟ وانت تريد ترجع». قلت «ان كان في مقامي مصلحة اقمت». قال «نعم». فاقمت

وتكرّر الحديث بيني وبينه حتى استقرّ وصوله الى دمشق، وان يكون له ثلاثون الف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع، ويكون له دار العَقيقيّ، ويخرج لاصحابه ديوان. وكتب لي خطّه بذلك، وكان كاتبًا حسنًا. وقال «ان شئت سرتُ معك». قلت «لا، انا اسير ومعي الحمام من هاهنا. فاذا وصلتُ واخليتُ الدار ورتبتُ الامر، طيّرت اليك الحمام وسرت انا في الوقت الماك في نصف الطريق وادخل بين يديك». فتقرّر ذلك. وودّعتُه وسرت

رضوان في حبس مصر

وكان امين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به واطمعه فيه. فجمع له من قدر عليه وسيّره بعد مفارقتي له. فلمّا دخل حدود مصر(١٠٤) غدر به الذين كانوا معه من الاتراك ونهبوا ثقلَه، والتجأ هو الى حيّ من احياء العرب. وراسل الحافظ وطلب منه الامان، وعاد الى مصر. فساعة وصوله الى مصر امر به الحافظ فحُبس هو وولده

(١٠٢) «القراه» في الاصل
(١٠٣) لقب لحكام مصر بعد الخليفة الفاطمي العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦)
(١٠٤) ايلول سنة ١١٣٩

واتّفق طلوعي الى مصر(١٠٥) وهو في الحبس في دار في جانب القصر. فنقب بمسمار حديد اربعة عشر ذراعاً وخرج ليلة الخميس، وله من الامراء نسيب قد عرف امره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواتة، ومشوا الى النيل عدّوا الى الجيزة. واختبطت القاهرة لهروبه. [١٠ و] واصبح في مَنْظَرة في الجيزة والناس يجتمعون اليه. وعسكر مصر قد تأهّب لقتاله. ثم اصبح بكرة الجمعة عدى الى القاهرة والعسكر المصري مع قَيماز(١٠٦) صاحب الباب مدرّعين للقاء. فلمّا وصلهم هزمهم ودخل القاهرة

رضوان يقتله الحرس الفاطمي

وكنت قد ركبت انا واصحابي الى باب القصر، قبل دخوله البلد، فوجدت ابواب القصر مغلّقة وما عندها احد. فرجعت نزلت في داري. ونزل رضوان في الجامع الاقمر(١٠٧). واجتمع اليه الامراء وحملوا اليه الطعام والنفقة. وقد جمع الحافظ قوماً من السودان في القصر شربوا وسكروا. وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضواناً(١٠٨). فلمّا وقع الصياح ركب الامراء كلّهم من عند رضوان وتفرّقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد اخذه الركابي وراح. فرآه رجل من صبيان الخاص واقفاً على باب الجامع فقال «يامولاي، ما تركب حصاني؟» قال «بلى». فجاء اليه يركض وسيفه في يده. فاوما كانه بميل للنزول وضربه بالسيف، فوقع. ووصله السودان قتلوه. وتقاسم اهل مصر لحمه ياكلونه ليكونوا شجعاناً. فقد كان فيه معتبر(١٠٩) وواعظ لولا نفاذ المشيئة

(١٠٥) تشرين الثاني سنة ١١٤٤

(١٠٦) تاج الملوك قيماز. ولقبه «صاحب الباب» كان يُطلق على الوزير الثاني. القلقشندي ٣: ٤٨٣

(١٠٧) بناه الخليفة الآمر سنة ١١٢٥

(١٠٨) «رضوان» في الاصل

(١٠٩) قابل عنوان الكتاب «كتاب الاعتبار»

بالفصاد ينجو جريح

واصاب ذلك اليوم رجلاً من اصحابنا الشاميّين جراح كثيرة. فجاءني اخوه وقال «اخي تالف». قد وقع فيه كذا وكذا جرحُ سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق». قلت «ارجع افصده». قال «قد خرج منه عشرون رطل دم». قلت «إرجع إفصده، فانا اخبر منك بالجراح. وليس له دواء غير الفصاد». فمضى غاب عنّي ساعتين ثم عاد وهو مستبشر، قال «انا فصدته، وهو افاق وجلس واكل وشرب وذهب عنه البوس». قلت «الحمد لله! ولولا اني جرّبت هذا في نفسي عدّة مرار ما وصفته لك»

٤ ـ زيارة أسامة الثانية لدمشق
١١٥٤ ـ ١١٦٤م

ثم اتّصلت بخدمة الملك العادل نور الدين، رحمه الله. وكاتب الملك الصالح(١) في تسيير اهلي واولادي الذين تخلّفوا بمصر، وكان محسناً اليهم. فردّ الرسول واعتذر بانه يخاف عليهم من الافرنج. وكتب اليّ يقول «ترجع الى مصر وانت تعرف ما بيني وبينك. وان كنت مستوحشاً من اهل القصر فتصل الى مكّة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان(٢) اليك، وامدّك بما تتقوى به على محاربة الحبشة (فاسوان ثغر من ثغور المسلمين)، واسيّر اليك اهلك واولادك»

ففاوضت الملك العادل واستطلعت امره فقال «يافلان، ما صدقتَ متى تخلص من مصر وفتنها، تعود اليها! العمرُ اقصرُ من ذلك. انا [١٠ ق] انفذ آخذ لاهلك الامان من ملك الافرنج(٣) واسيّر من يُحضرهم». فانفذ، رحمه الله، اخذ امان الملك وصليبه في البر والبحر

أسرة أسامة بيد الافرنج

وسيَّرتُ الامان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي الى الملك الصالح. فسيّرهم في عُشاريّ من الخاصّ الى دمياط. وحمل لهم كلّ ما يحتاجونه من النفقات والزاد، ووصى بهم. واقلعوا من دمياط في بُطسة(٤) من بطس الافرنج. فلمّا دنوا من عكّا والملك، لا رحمه

(١) ابن رُزّيك
(٢) «أصوان» اليوم
(٣) بالدون الثالث ملك اورشليم ١١٤٢ ـ ٦٢
(٤) «بُطسة» في Dozy, *Supplément aux dictionnaires Arabes*.
«بَطْسة» في «المحيط» وهي المركب

الله، فيها نفذقوماً في مركب صغير كسروا البطسة بالفوموس(٥)، واصحابي يرونهم. وركب ووقف على الساحل نهب كلّ ما فيه

فخرج اليه غلام لـي سباحة، والامان معه وقال له «ياmolاي الملك، ما هذا امانك؟» قال «بلى. ولكن هذا رسم المسلمين: اذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه اهل ذلك البلد». قال «فتسبينا؟» قال «لا». وانزلهم، لعنه الله، في دار وفتّس النساء حتى اخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلى اودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضّة بنحو من ثلاثين الف دينار. فاخذ الجميع ونفّذ لهم خمس مائة دينار وقال «توصلوا بهذه الى بلادكم» ـ وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نسمة

وكنت اذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود(٦) رَعبان وكَيسُون(٧). فهوّن عليّ سلامة اولادي واولاد اخي. وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال، الا ما ذهب لي من الكتب، فانها كانت اربعة آلاف(٨) مجلّد من الكتب الفاخرة. فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتُفني الاموال. والله سبحانه يعوّض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة الى نكبات نُكِبتُها سَلِمت فيها النفس لتوقيت الآجال، وأُجحفتُ بهلاك المال

(٥) «بالفوس» في الاصل. قابل ادناه ص ٢١٠ ح ٥٩

(٦) سلطان قونية

(٧) اي في رعبان وكيسون

(٨) «الف» في الاصل

٥ ـ معارك مع الافرنج ومع المسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفّار والمسلمين ما لا احصيها. وساورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره. وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه ممرُّ الاعوام، وهو وراثة بني آدم من ابيهم عليه الصلاة والسلام

شرف الفارس: جُمعة

فمن ذلك ما شاهدته من انفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الاخطار، اننا كنا التقينا نحن وشهاب الديـن محمود بن قَراجا، صاحب حماة ذلك الوقت(١)، وكانت الحرب بيننا وبينه [١١ و] ما تغبّ(٢)، والمواكب واقفة والطراد بين المتسرّعة(٣). فجاءني رجل من اجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جُمعة من بني نُمير، وهو يبكي. فقلت له «ما لك ياابا محمود؟ هذا وقت بكاء؟» قال «طعنني سَرْهَنْك(٤) بن ابي منصور». قلت «واذا طعنك سرهنك اي شيء يكون؟» قال «ما يكون شيء الا يطعنني مثل سرهنك! والله ان الموت اسهل عليّ من ان يطعنني. لكنّه استغفلني واغتالني». فجعلت أُسكّنه واهوّن الامر عليه. فردّ رأس فرسه راجعاً. فقلت «الى اين ياابا محمود؟» قال «الى سرهنك. والله لأطعننّه او لأموتنّ دونه»

فغاب ساعة واشتغلت انا بمن مقابلي. ثم عاد وهو يضحك فقلت «ما

(١) حوالى ١١٢٣
(٢) « تغب» في الاصل
(٣) «المتسرغه» في الاصل
(٤) «سَرْهَنك» فارسية معناها الزعيم

عملت؟» فقال «طعنته والله. ولو لم اطعنه لفاظت روحي». فحمل عليه في جمع اصحابه فطعنه وعاد. فكأنَّ هذا الشعر عني سرهنك وجُمعة بقوله:

لله درُّك ما نَطَسٌ شائر حرّان ليس عن التِّرات براقد
أيقَظتَه ورقدتَ [عنه](٥) ولم ينم حنقاً عليك وكيف نوم الجاهد
إن تُمكن الايام منك وعلّها يوماً يُكَلْ لك بالصُّواع الزائد

وقد كان سرهنك هذا من الفرسان المذكورين مقدّماً في الأكراد، الا انه كان شاباً وجُمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدّميّة في الشجاعة

براز في صدر الاسلام

وذكرتُ بفعلة سرهنك ما فعله مالك بن الحارث(٦) الاشتر، رحمه الله، بابي مُسَيكة الايادي

وذلك انه لمّا ارتدّت العرب في ايام ابي بكر الصدّيق، رضوان الله عليه، وعزم الله سبحانه له على قتالهم، جهّز العساكر الى قبائل العرب المرتدين. فكان ابو مُسَيكة الايادي مع بني حنيفة وكانوا اشدّ العرب شوكة. وكان مالك الاشتر في جيش(٧) ابي بكر، رحمه الله. فلمّا تواقفوا برز مالك بين الصفّين وصاح «ياابا مُسَيكة!» فبرز له. فقال «ويحك! ياابا مُسَيكة، بعد الاسلام وقراءة القرآن رجعت الى الكفر؟» فقال «ايّاك عني يامالك! انهم يحرمون الخمر، ولاصبر عنها». قال «فهل لك في المبارزة؟» قال «نعم». فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف. فضربه ابو مُسَيكة فشقّ رأسه وشتر عينه [١١ ق] وبتلك الضربة سُمّي الاشتر

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه الى رحله. واجتمع له قوم من اهله وإصدقائه يبكون. فقال لاحدهم «ادخلْ يدك في فمي». فادخل اصبعه

(٥) ناقصة في الاصل
(٦) «ملك بن حرث» في الاصل
(٧) «حبس» في الاصل. «حبس» طبعة درنبورغ ص٢٧

في فمه. فعصها مالك. فالتوى الرجل من الوجع. فقال مالك «لا بأس على صاحبكم. يقال اذا سلمت الاضراس سلم الرأس. احشوها (يعني الضربة) سَويقاً وشدّوها بعمامة». فلمّا حشوها وشدّوها قال «هاتوا فرسي». قالوا «الى اين؟» قال «الى ابي مُسيكة»

- فبرز بين الصفين وصاح «ياابا مُسَيكة!» فخرج اليه مثل السهم. فضربه مالك بالسيف على كتفه فشقّها الى سرجه فقتله. ورجع مالك الى رحله فبقي اربعين يوماً لا يستطيع الحراك. ثم ابلّ وعوفي من جرحه ذلك

سلامة المطعون ابن زمام

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون، وقد ظُن انه قد هلك، اننا التقينا بوادرَ خيل شهاب الدين محمود بن قَراجا(٨) وقد جاء الى ارضنا وكمن لنا كميناً. فلمّا تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا. فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام نُميري وقال «اصحابنا قد انتشروا. ان حملوا عليهم اهلكوهم». قلت «احبس عنّي اخوتي وبني عمّي حتى اردهم». فقال «ياامراء، دعوا هذا يردّ الناس ولا تتبعوه، والا حملوا عليهم قلعوهم». قالُوا «يمضي». فخرجت أُناقلُ(٩) حصاني حتى رددتهم، وكانوا ممسكين عنهم ليستجرّوهم ويتمكّنوا منهم

فلمّا رأوني قد رددتهم حملوا علينا. وخرج كمينهم وانا على فسحة من اصحابي. فرجعت مباريهم اريد احمي اعقاب اصحابي. فوجدت ابن عمّي ليث الدولة يحيى، رحمه الله، قد حدب(١٠) من وراء اصحابي من قبليّ الطريق وانا في شماليّه. فجئناهم. فتسرّع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام، رجل عربي فارس مشهور، وجازنا يريد الطعن

(٨) أمير حماة
(٩) «اناقل» في الاصل
(١٠) «حدُب» في الاصل. «جدب» طبعة درنبورغ ص٢٨

في اصحابنا. فسبقني اليه ابن عمّي. فطعنه. فوقع هو وحصانه وفقع الرمح فقعة سمعتها انا واولئك

وكان الوالد، رحمه الله، ارسل رسولا الى شهاب الدين، فاخذه معه لمّا جاء لقتالنا. فلمّا طُعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما اراد نفّذ الرسول من مكانه بجواب ما سار(١١) فيه، ورجع الى حماة. فسألت الرسول «هل مات فارس بن زمام؟» قال «لا، والله، ولا فيه جرح». قال «ليث الدولة طعنه، وانا اراه، فرماه ورمى حصانه. وسمعت قعقعة كسر الرمح. لمّا غَنيه ليث الدولة من يساره مال(١١) على جانبه الايمن وفي يده قُنطاريته(١٢). فوقع حصانه [١٢ و] على قُنطاريته وهي على وهدة، فانكسرت. وتذنّب ليث الدولة برمحه، فوقع من يده. والذي سمعتَ قعقعة قُنطارية فارس بن زمام. ورمح ليث الدولة احضروه بين يدي شهاب الدين، وانا حاضر، وهو صحيح ما فيه كسر، ولا في فارس جرح». فعجبتُ من سلامته. وكانت تلك الطعنة طعنة فيصلٍ كما قال عنترة:

الخَيْـلُ تَعلـم والفَوارسُ أنّني ... فرّقتُ جَمْعَهُمُ بطَعْنةِ فيْصَلِ

ورجع جميعهم وكمينهم ما نالوا منه ما ارادوه

والبيت المقدّم من ابيات لعنترة بن شدّاد يقول فيها:

إني أمرُؤٌ من خَيرِ عَبسٍ مَنصباً ... شَطري وأحمي سائري بالمُنصُلِ(١٣)
واذا الكَتيبةُ أحجَمَت فتَلاحظَت ... ألفيتُ خَيراً من مُعَمٍ مُخوَلِ
إن المَنيّةَ لو تُمثَّلُ مُثّلَت ... مثلي اذا نزلوا بضَنكِ المَنزلِ
والخيلُ تَعلم والفَوارسُ أنّني ... فرّقتُ جمعَهم بطعنةِ فَيْصَلِ
ودعَوا نَزالِ فكُنتُ أوّلَ نازلٍ ... وعَلامَ أركَبُه اذا لم أنزلِ

(١١) غير واضحة في الاصل
(١٢) يونانية معناها قناة الرمح وتُطلق على الرمح كله
(١٣) كان والد عنترة عربياً ووالدته جارية سوداء

اوّل قتال حضره أسامة

ومثل ذلك مـا جرى لي علـى افامية(١٤)٠ فان نجم الدين بـن إيلغازي(١٥) بن أُرتُق، رحمـه الله، كسر الافرنج علـى البلاط(١٦)، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة(١٧)، وافناهم وقتل صاحب انطاكية روجار(١٨) وجميع فرسانه٠ فسار اليه عمّي عزّ الدين ابـو العساكر سلطان، رحمه الله٠ وتخلّف والدي، رحمه الله، في حصن شيزر، وقد وصّاه ان يسيّرني الى افامية بمن معي بشيزر من الناس و ستنفر الناس والعرب لنهب زرع افامية٠ وكان قد هدف من العرب الينا خلق كثير

فلمّا سار عمّي نادى المنادي بعد يُويمات من مسيره٠ وسرت في نفر قليل، ما يلحق عشرين فارساً، ونحن على يقين ان افامية ما فيها خيّالة، ومعي خلق عظيم مـن النهابة والبادية٠ فلمّا صرنا علـى وادي ابو الميمون(١٩)، والنهابة والعرب متفرقون في الزرع، خرج علينا من الافرنج جمع كثير ٠وكان قـد وصلهـا تلك الليلة ستون فارساً وستون راجلاً٠ فكشفونا عن الوادي٠ فاندفعنا بين ايديهم الى ان وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه٠ فضجّوا ضجّة عظيمة٠ فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم [١٢ ق] معي٠ فرجعت على فارس فـي اوّلهم قد القى عنه درعـه وتخفف ليحوزنا من بين ايدينا٠ فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً٠

(١٤) شمالي شيزر٠ وهي اليوم قلعة المُضيق

(١٥) «س الغازي» في الاصل وهو امير ماردين٠ و «بن» هذه زائدة

(١٦) شمالي الأثارب٠ «منتخبات مـن تاريخ حلب» لكمال الدين في *Recueil des historiens des croisades: historiens orientaux* (بـاريـز ١٨٨٤) ٦١٧:٣

(١٧) ١٤ آب سنة ١١١٩٠ وهو تاريخ موقعة دانيث٠ علـى ان موقعة البلاط التي قُتل فيها روجار تاريخها ٢٨ حزيران

(١٨) Roger

(١٩) تعريب Bohemond

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولّوا، وانا غرٌّ من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم، وتحتي فرس مثل الطير، الحق اعقابهم لاطعن فيهم ثم اجتنُّ عنهم

وفي اخرهم فارس على حصان ادهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب انا خائف منه لا يكون جاذباً لي ليعود علي، حتى رايته ضرب حصانه بمهمازه فلوّح بذنبه. فعلمت انه قد اعيا. فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع، وخرجت من السرج لخفّة جسمي وقوّة الطعنة وسرعة الفرس. ثم تراجعت وجذبت رمحي وانا اظن اني قتلته. فجمعت اصحابي وهم سالمون

وكان معي مملوك صغير يجرُّ فرساً لي دهماء مجنوبة وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة. فنزل عن البغلة وسيّبها وركب الحجْرة فطارت به الى شيزر. فلمّا عدت الى اصحابي وقد مسكوا البغلة سألتَ عن الغلام فقالوا «راح». فعلمت انه يصل شيزر ويُشغل قلب الوالد، رحمه الله. فدعوت رجلاً من الجند وقلت «تسرعُ الى شيزر تعرّف والدي بما جرى»

وكان الغلام لمّا وصل احضره الوالد بين يديه وقال «اي شيء لقيتم؟» قال «يامولاي، خرج علينا الافرنج في الف. وما اظن احدًا يسلم الا مولاي». قال «كيف يسلم مولاك دون الناس؟» قال «رايته قد لبس وركب الخضراء...» هو يحدّثه وذلك الفارس قد وصله واخبره باليقين. ووصلت بعده. فاستخبرني، رحمه الله. فقلت «يامولاي، كان اوّل قتال حضرته. فلمّا رأيت الافرنج قد وصلوا الى الناس هان عليّ الموت. فرجعت الى الافرنج لأُقتل او احمي ذلك العالم». فقال، رحمه الله، متمثلاً:

يفرُّ جَبانُ القوم عن امّ رأسه وتحمي شُجاعُ القوم من لا يلازمُه

ووصل عمّي، رحمه الله، من عند نجم الدين ايلغازي، رحمه الله بعد ايام. فاتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه. فجئته

فاذا عنده رجل من الافرنج . فقال «هذا الفارس فد جاء من افامية يريد بصر الفارس الذي طعن فليب(٢٠) الفارس . فان الافرنج تعجبوا [١٣ و] من تلك الطعنة وانها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس» . قلت «كيف سلم؟» قال ذلك الفارس الافرنجي «جاءت الطعنة في جلدة خاصرته» . قلت «نعم الاجل حصن حصين» . وماظننته يسلم من تلك الطعنة

قلت يجب على من وصل الى الطعن ان يشد يده وذراعه على الرمح الى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة . فانه متى حرّك يده بالرمح او مدّها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية

يسلم بعد ان قُطع شريان قلبه

وشاهدتُ فارساً من رجالنا يقال له ندى(٢١) بن تَليل القُشيري، وكان من شجعاننا، وقد التقينا نحن والافرنج وهو مُعرى ما عليه غير ثوبين . فطعنه فارس من الافرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه . فرجع وما نظنه يصل منزله حياً . فقدّر الله سبحانه ان سلم وبرأ جرحه . لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لا يقدر يجلس ان لم يجلسه انسان باكتافه(٢٢) . ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد الى تصرّفه وركوبه كما كان

قلت فسبحان من نفذت مشيئتُه في خلقه يُحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير(٢٣)

وآخر يموت من ابرة

كان عندنا رجل من المصطنعة، يقال له عتّاب، اجسم ما يكون من الرجال واطولهم . دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين

(٢٠) Philip
(٢١) «ندى» في الاصل . ولعلها «نَدِيّ» «بَدّي» الخ .
(٢٢) كذا في الاصل بصيغه الجمع بدل المثنى
(٢٣) قابل القرآن ٣ . ٢٥

يديه، كـانت فيه ابرة، دخلت فـي راحته فمات منهـا٠ وبالله لقد كـان يثن(٢٤) في المدينة فيُسمع انينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته٠ يموت من ابرة وهذا القُشيري يدخل في صدره قُنطارية تخرج مـن جنبه لا يصيبه شيء

حوادث الزَّمرَّكل

نزل علينا صاحب انطاكية(٢٥)، لعنه الله، بفارسه وراجله وخيامه فـي بعض السنين(٢٦)٠ فركبنا ولقيناهم نظن انهـم يقاتلوننا٠ فجاؤا نزلوا منزلا كانوا ينزلونه، وهجموا في خيامهم٠ فرجعنا نحن الى آخر النهار٠ ثم ركبنا، ونحن نظن انهم يقاتلونا، فما ركبوا من خيامهم

وكان لابن عمّي ليث الدولة يحيى غلّة قد نجزت وهي بالقرب من الافرنج فجمع دوابّ(٢٧) يريد يمضي الى الغلّة يحملها٠ فسرنا معه فـي عشرين فارساً معدّين، وقفنا بينه وبين الفرنج، الـى ان حمل الغلّة ومضى٠ فعدلت انا ورجل من مولّدينا يقال له حسام الدولة مسافر، رحمه الله، الى كرم رأينا فيه [١٣ ق] شخوصاً، وهم على شط النهر(٢٨)٠ فلمّا وصلنا الشخوص التي رأيناها، والشمس علـى مغيبها، فاذا شيخ عليه مَعرقة(٢٩) امرأة ومعه آخر٠ فقال له حسام الدولة وكان، رحمه الله، رجلاً جيداً كثير المزاح «ياشيخ، اي شيء تعمل هاهنا؟» قال «انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هاؤلاء الكفّار»٠ قال «ياشيخ، باسنانك تقطع عن خيلهم؟» قال «لا، بهذه السكين»٠ وجذب سكيناً من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار، وهو بغير سراويل٠ فتركناه وانصرفنا

واصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون مـن الافرنج، واذا الشيخ

(٢٤) «يا نّ» في الاصل
(٢٥) لعله بالدون الثالث
(٢٦) حوالى سنة ١١٢٢
(٢٧) «دوابا» في الاصل٠ (٢٨) العاصي
(٢٩) غطاء للرأس٠ قابل «عَرقيّة» في اللغة العامية

جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد. قلت «يهنئك السلامة، اي شيء عملت؟» قال «احدت منهم حصاناً وترساً ورمحاً. ولحقني راجل، وانا خارج من عسكرهم، طعنني نفذ القنطارية في فخذي. وسبقت بالحصان والترس والرمح» — وهو مستقل(٣٠) بالطعنة التي فيه كأنها في سواه. وهذا الرجل يقال له الزمركل(٣١) من شياطين اللصوص

حدثني عنه الامير معين الدين(٣٢)، رحمه الله، قال «اغرت زمان مقامي بحمص على شيزر وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماة، وانا عدو لصاحب حماة. (قال) فجاءني قوم معهم شيخ قد انكروه فقبضوه وجاؤني به. فقلت 'ياشيخ ابش انت؟' قال 'يامولاي، انا رجل صعلوك شيخ زمن (واخرج يده وهي زمنة) قد اخذ لي العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان ينصدقوا علي بهما(٣٣)'. فقلت لقوم من الجندارية 'احفظوه الى غد(٣٤)'. فاجلسوه بينهم وجلسوا على اكمام فروة عليه. فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار. فعدوا في اثره، سبقهم ومضى. (قال) وكنت قد نفذت بعض اصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له سوماں(٣٥) قد كان يسكن بشيزر. فحدثته حديث الشيخ قال 'وآحسرتي عليه! لو كنت لحقته كنت شربت دمه. هذا الزمركل'. فلت 'فاي شيء بينك وبينه؟' قال 'نزل عسكر الفرنج على شيزر فخرجت ادور به لعل اسرق حصاناً منهم. فلما اظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي واذا هذا جالس بين يدي. فقال لي:

(٣٠) من استقل الشيء اي عده قليلا
(٣١) يصعب ضبط الحركات في هده الكلمة
(٣٢) أنر
(٣٣) «بها» في الاصل
(٣٤) «عدا» في الاصل. «عداء» طبعة درنبورغ ص٣٣
(٣٥) «شومان»؟

الى اين؟ قلت: آخذ حصاناً(٣٦) من هذه الطوالة. قال: [١٤ و] وانا من العشاء انظرها حتى تأخذ انت الحصان! قلت: لا تهذ (٣٧). قال: لا تغترّ. والله، ما ادعك تأخذ شيئاً. فما التفتُّ الى قوله ويمّمت الى الطوالة. فقام وصاح باعلى صوته: وافقري! واخيبة تعبي وسهري! وصيّح حتى خرج علي الافرنج. فاما هو فطار. فطردوني حتى رميت نفسي في النهر، وما ظننت اني اسلم منهم. ولو لحقته كنت شربت دمه. وهو لص عظيم. وما تبع العسكر الا يسرق منه.»

فكان هذا الرجل يقول من يراه «مـا في(٣٨) هذا يسرق رغيف خبز من بيته»

سرقة الخيل

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلاً كان بخدمتي يقال له عليّ بـن الدُّودَوَيْه من اهل مثكير(٣٩). نزل يوماً(٤٠) الافرنج، لعنهم الله، على كفرطاب، وهي اذ ذاك لصلاح الدين محمّد بن ايّوب الغسياني(٤١)، رحمه الله. فخرج هذا عليّ بن الدُّودَوَيْه دار بهم واخذ حصاناً ركبه وخرج به من العسكر بركض، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد ان بعضهم قد ركب في طلبه، وهو مجدّ في الركض والحس خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه. فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام، واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقوَدها وتبعته. فوقف حتى شدّ فوطته في رأسها واخذها واصبح عندي فـي حماة بالحصان والبغلة. وكان الحصان من اجود الخيل واحسنها واسبقها

(٣٦) «حصان» في الاصل
(٣٧) «تهذى» في الاصل
(٣٨) عامية
(٣٩) «مثكين»؟ «تنكير» طبعة درنبورغ ص٣٣ حيث هـي اسم نكـرة لا علم في ترجمة Shumann ص٧٥ "Muthakīr"
(٤٠) بين سنة ١١٣٥ و١١٣٨
(٤١) اختصار «الياغـيسياني». *Recueil* ١:٨٦٣

اتابك يستولي على حصان أسامة

كنت يوماً عند اتابك وهو يحاصر رفَنيَّة(٤٢) وقد استدعاني فقال لي «يافلان، ايّ شيء من حصانك الذي خبَّيته(٤٣)؟» وكان قد بلغه خبر الحصان. قلت «لا، والله يامولاي، ما لي حصان مخبَّى. حصني كلها في العسكر». قال «فالحصان الافرنجي؟» قلت «حاضر». قال «انفذ احضره». انفذت احضرته وقلت للغلام «امضِ به الى الاصطبل». قال اتابك «اتركه الساعة عندك». ثم اصبح سبق، فسبق، وردّه الى اصطبلي. وعاد استدعاه من البلد وسبق به فسبق. فحملته الى اصطبله

سهم في حلق

وشاهدتُ في الحرب عند انتهاء المدة: كان عندنا رجل من الجند يقال له رافع الكلابيّ، وهو فارس مشهور. اقتتلنا نحن وبنو قَراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم وحشدوا وباسطناهم على فسحة من البلد. ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضاً. وهذا رافع في من يحمي الاعقاب، وهو لابس كُزاغند(٤٤) وعلى رأسه خوذة بلا لثام. فالتفت لعلّه يرى فيهم فرصة [١٤ ق] فينحرف عليهم، فضربه سهم كشما(٤٥) في حلقه ذبحه. ووقع مكانه ميتاً

طعنة في فرس

وكذلك شاهدتُ شهاب الدين محمود بن قَراجا، وقد انصلح ما بيننا وبينه، وقد نفّذ الى عمّي يقول له «تأمر اسامة يلقاني هو وفارس واحد

(٤٢) بين حمص وحماة. راجع R. Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (باريز ١٩٢٧) ٩٨ — ١٠١

(٤٣) عامة فصيحها «خبّأته»

(٤٤) فارسية «كزآغند» «كزاكند» — سترة سميكة تقوم مقام الدرع في القتال

(٤٥) «كسما» في الاصل. وهي غير واضحة. ولقد وردت ادناه ص١٩٦ س٨

الى كرعة [؟] لنمضي نبصر موضعاً نكمن فيه لأفامية ونقاتلها». فأمرني عمّي بذلك. فركبت ولقيته وابصرنا المواضع

ثم اجتمع عسكرنا وعسكره(٤٦)، وانا على عسكر شيزر وهوفي عسكره، وسرنا الى افامية. فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها وهو مكان لا يتصرّف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصول الحيطان الخراب. فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان. فقال لي رجل من جندنا «تريد تكسرهم؟» قلت «نعم». قال «اقصد بنا باب الحصن». قلت «سيروا» .وندم القائل وعلم انهم يدوسونا ويجوزون الى حصنهم. فاراد ان يردني عن ذلك، فابيتُ وقصدت الباب

فساعة ما رآنا(٤٧) الفرنج قاصدين الباب عاد الينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا. ترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم الى الحصن وصفّوا عوالي قنطاريّاتهم في الباب، وانا وصاحب لي من مولّدي ابي، رحمه الله، اسمه رافع بن سُوتَكين [؟] وقوف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والنشّاب. وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على خوف الاكراد. فقد طُعن صاحب لنا يقال له حارثة النُّميريّ نسيب(٤٨) جُمعة في صدر فرسه طعنة معترضة. ونزلت(٤٩) القنطارية في الفرس فتخبّطت حتى(٥٠) وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها، فبقيت مسبلة على اعضادها

في زند

وشهاب الدين بمعزل عن القتال. فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة. فجاءني

(٤٦) سنة ١١٢٤
(٤٧) «راونا» في الاصل. عامية
(٤٨) «النُّمرى بسبب» طبعة درنبورغ ص٣٥
(٤٩) «ونزل» في الاصل
(٥٠) مكرّرة في الاصل

رسوله يقول «لا تزُل(٥١) مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرّقوا في البلد. فانا قد جُرحت وكأني احسّ الجرح في قلبي. وانا راجع، فاحفظ انت الناس». ومضى ورجعت انا بالناس نزلت على برج خربة(٥٢). وكان الافرنج لهم عليه ديدبان يكشفنا اذا اردنا الغارة على افامية

ووصلت العصر الى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يَحلّ جرحه ويداويه، وعمّي قد منعه وقال «والله، ما تحلّ جرحك الا في دارك». قال «انا في دار والدي» ـ يعني الوالد، رحمه الله. قال «اذا(٥٣) [١٥ و] وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك»

فركب المغرب وسار الى حماة. فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودّت يده وغاب عنه رشده ومات. وما كان به الا فراغ الاجل

طعنة تقطع عدّة اضلاع

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج، خذلهم الله، فارساً من اجنادنا يقال له سابه(٥٤) بن قُنَيب كلابيّ قطع له ثلاثة اضلاع من جانبه اليسار وثلاثة اضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزّار المفصل. ومات لساعته

واخرى تقطع الزرد

وطعن رجل من اجنادنا كرديّ يقال له ميّاح فارساً من الافرنج ادخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله. ثم ان الافرنج غاروا علينا بعد ايام، وميّاح قد تزوّج وخرج، وهو لابس وفوق درعه ثوب احمر من ثياب

(٥١) «تزول» في الاصل

(٥٢) غير واضحة في الاصل حيث وردت «مسفار» أو «مسفان» قبل «خربة» (أو «خربته»). وفوق «مسفار» علامة كالميم اما يُقصد منها شطب الكلمة او تأخيرها. قابل «حصن الخربة» ادناه ص٧٨ س١٥

(٥٣) «قال اذا» مكرّرة

(٥٤) «سابه» في الاصل

العروس(٥٥)، قد تشهّر به. فطعنه فارس من الافرنج فقتله، رحمه الله. «ياقرب ما ثمه من العرس!»

فذكرت به الخبر عن النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وقد أنشد قول قيس بن الخَطيم:

أجالِدُهم يومَ الحقيقة حاسراً كأنَّ يدي بالسيف مِخْراقُ لاعبِ(٥٦)

فقال النبيّ صلّى الله عليه للحاضرين من الانصار، رضي الله عنهم «هل حضر احد منكم يوم الحديقة؟»(٥٧) فقال رجل منهم «انا حضرته، يارسول الله، صلّى الله عليك وسلّم، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء. فوالذي بعثك بالحقّ لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه»

وثالثة تنفذ في صدر الافرنجي

ومن عجائب الطعن ان رجلاً من الاكراد يقال له حَمَدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي، رحمه الله، الى اصبهان الى دركاه(٥٨) السلطان ملكشاه(٥٩). فكبر وضعف بصره ونشأ له اولاد. فقال له عمّي عزّ الدين، رحمه الله، «ياحَمَدات، قد كبرت وضعفت. ولك علينا حقّ وخدمة. فلو لزمت مسجدك (وكان له مسجد على باب داره) واثبتنا اولادك في الديوان ويكون لك انت كل شهر ديناران وحمل دقيق وانت في مسجدك». قال «افعل ياامير». فأُجري له ذلك مُديدة

ثم جاء الى عمّي وقال «ياامير، والله، ما تطاوعني نفسي على القعود

(٥٥) بمعنى العريس
(٥٦) الاصفهاني «كتاب الاغاني» (بولاق ١٢٨٥ هـ.) ٢:١٦٢
(٥٧) بجوار المدينة. واليوم هذا من ايام العرب وقعت حوادثه بين الأوس والخزرج. ياقوت «معجم البلدان» ٢:٢٢٦
(٥٨) فارسية «درگاه» ــ بلاط، ديوان. وكان ذلك سنة ١٠٨٥
(٥٩) السلجوقي المتوفى سنة ١٠٩٢

في البيت. وقتلي على فرسي اشهى الي مـن موتي على فراشي». قال «الامر لك». وامر(٦٠) [١٥ ق] بردّ ديوانه عليه كما كان

فما مضى الا الايـام القلائل(٦١) حتى غـار علينـا السّردانـي(٦٢) صاحب طرابلس. ففزع الناس اليهم، وحمدات في جملة الرّوع، فوقف على رفعة من الارض مستقبل القبلة. فحمل عليه فارس من الافرنج من غربيّه. فصاح اليه بعض اصحابنا «ياحمدات!» فالتفت رأى الفارس قاصده. فردّ رأس فرسه شمالا(٦٣) ومسك رمحه بيده وسدّده الى صدر الافرنجي، فطعنه نفذ الرمح منه. فرجع الافرنجي متعلقاً برقبة حصانه في اخر رمقه. فلمّا انقضى القتال قال حمدات لعمّي «ياامير، لو ان حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة؟»

فاذكرني قول الفِنْد الزِّمّاني(٦٤)

أيَـا طَعنةَ مـا شَيخٍ كَبير يَفَـنٍ بالِـي
تَفتَّيتُ بهـا اذ كَـرِهَ الشِّكّةَ أمثـالِـي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعاً

طعنة تودي بفارسين وفرسين

وقد كان جرى لنا مثل ذلك: وهو ان فلاحاً من العَلاة جاء يركض الى ابي وعمّي، رحمهما الله، قال «شاهدت سربة افرنج تائهين قد جاءوا من البريّة. لو خرجتم اليهم اخذتموهم». فركب ابي وعمّاي وخرجوا بالعسكر الى السربة التائهة واذا به السّرداني صاحب طرابلس فـي

(٦٠) مكرّرة
(٦١) سنة ١١٠٨
(٦٢) William Jourdain هو كونت Cerdagne
(٦٣) «شمال» في الاصل
(٦٤) سهل بن شيبان شاعر جاهلي

ثلاثمائة فارس ومائتي تُركبولي(٦٥)، وهم رماة الافرنج. فلمّا راْوا اصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على اصحابنا هزموهم، وتمّوا(٦٦) يطردونهم. فاحرف عليهم مملوك لوالدي يقال له ياقوت الطويل، وابي وعمّي، رحمهما الله، يريانه. فطعن فارساً منهم الى جانبه فارس آخر، وهما يتبعان اصحابنا. فرمى الفارسين والفرسين

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لا يزال قد فعل فعلة يجب تاْديبه عليها. فكلّما همّ والدي به وبتاْديبه يقول عمّي «ياأخي، بحياتك هب لي ذنبه ولا تنس(٦٧) له تلك الطعنة». فيصفح عنه لكلام اخيه

وكان حمدات الذي تقدّم ذكره ظريف الحديث. حدّثني والدي، رحمه الله، قال «قلتُ لحَمَدات ونحن سائرون في طريق اصبهان سحراً ‹امير حمدات، اكلت اليوم شيئاً؟› قال ‹نعم ياامير. اكلت ثريدة›. قلت ‹ركبنا في الليل وما [١٦ و] نزلنا ولا اوقدنا ناراً. من اين لك الثريدة؟› قال ‹ياامير عملتها في فمي. اخلط في فمي الخبز واشرب عليه الماء يصير كالثريدة›»

والد أُسامة مقاتلاً

وكان الوالد، رحمه الله، كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة. ومات على فراشه. وحضر يوماً القتال وهو لابس وعليه خوذة اسلاميّة بانف فزرقه رجل بحربة ــ وكان معظم قتالهم مع العرب ذلك الزمان ــ فوقعت الحربة في انف الخوذة فانطوى وادمى انفه ولم يوءذه. ولو كان قدّر الله سبحانه ان يميل المزراق عن انف الخوذة كان اهلكه.

(٦٥) تعريب Turcopole جند في خدمة الافرنج آباؤهم اتراك (او عرب) وامهاتهم يونان. ذكرهم عماد الدين الكاتب «الفتح القسّي» (ليدن ١٨٨٨) ص٤٢٥ وغيره من مؤرخي الافرنج. راجع Hitti, *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades* (نيويورك ١٩٢٩) ص٧٩ حاشية ٤٢

(٦٦) «وسوا» في الاصل. عامية بمعنى «وما زالوا»

(٦٧) «تسى» في الاصل

وضُرب مرّة اخرى بنشّابة فـي ساقه، وفي خفّه دُشنيّ(٦٨)، فوقع السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه· هذا لحسن دفاع الله تعالى

وشهد، رحمه الله، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين شوّال سنة سبع وتسعين واربعمائة(٦٩) مع سيف الدولة خلَف بن مُلاعب الاشهبي(٧٠) صاحب افامية بارض كفرطاب· فلبس جوشنه، وعجّل الغلام عن طرح كلّاب الجوشن من الجانب· فجاءه خشْت(٧١) فضربه في ذلك الموضع الذي احلّ الغلام بستره فوق بزّه الايسر خرج الخشت من فوق بزّه الايمن· فكانت اسباب السلامة لما جرت بها المسيئة من العجب، والجرح لـما قدّره الله سبحانه من العجب

فطعن، رحمه الله، في ذلك اليوم فارساً واحرف حصانه و ثنى يده برمحه وجذبه من المطعون· فحدّثني قال «حسست شيئاً قد لذع زندي، فظننته من حرارة صفائح الجوشن· الا ان رمحي سقط من يدي، فرددتها فاذا قد طُعنت في يدي وقد استرخت لقطع شيء مـن الاعصاب»· فحضرته، رحمه الله، وزيد الجرائحيّ يداوي جرحه، وعلى راسه غلام واقف، فقال «يازيد، اخرج هده الحصاة من الجرح»· فما كلّمه الجرائحيّ· فعاد فقال «يازيد ما تبصر هـذه الحصاة؟ مـا(٧٢) تزيلها مـن الجرح!» فلمّا اضجره قال «اين الحصاة؟ هـذا راس عصب قد انقطع»· وكان بالحقيقة ابيض كانه حصاة من حصا الفرات

واصابه ذلك اليوم طعنة اخرى وسلّم الله حتى مات على فراشه، رحمه

(٦٨) او «دشن»· فارسية «دَشْنَه» ـ خنجر

(٦٩) ٢٥ تموز سنة ١١٠٤

(٧٠) ذكره ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» (جامعة كليفورنيا) جلد٢ حر٢٠ ص٢٨٤ و٢٨٧

(٧١) فارسية معناها حربة

(٧٢) يظهر ان استعمال «ما» هنا وفي غير مواضع هو للامر (كما في اللغة العامية اليوم) وليست للاستفهام

الله، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة(٧٣)

والد أسامة ناسخاً

وكان يكتب خطاً مليحاً، فما غيّرت تلك الطعنة من خطّه. وكان لا ينسخ سوى القرآن. فسالته يوما فقلت «يامولاي كم كتبت ختمة؟» قال «الساعة تعلمون». فلمّا حضرته الوفاة قال «في ذلك الصندوق مساطر كتبتُ على كلّ مسطرة ختمة ضعوها [١٦ ق] (يعني المساطر) تحت خدّي في القبر». فعددناها فكانت ثلاثاً واربعين مسطرة

فكان كتب بعدّتها ختمات: منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب وكتب فيها علوم القرآن قراآته وغريبه وعربيّته وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه، بالحبر والحمرة والزرقة، وترجمه بالتفسير الكبير. وكتب ختمة اخرى بالذهب مجرّدة من التفسير. وباقي الختمات بالحبر مذهّبة الاعشار والاخماس والآيات وروس السور وروس الاجزاء

وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وانما ذكرته لاستدعي له الرحمة ممّن وقف عليه

غلام يفدي مولاه

اعود الى ما تقدّم

وفي ذلك اليوم(٧٤) اصاب غلاماً كان لعمّي عزّ الدولة ابي المرهف نصر، رحمه الله، يقال له موفّق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمّي عزّ الدين ابي العساكر سلطان، رحمه الله. واتفق ان عمّي ارسله رسولا الى الملك رضوان بن تاج الدولة تُتُش الى حلب. فلمّا حضر بين يديه قال لغلمانه «مثل هذا يكون الغلمان واولاد الحلال في حق مواليهم». وقال لشمعون «حدّثهم حديثك ايّام والدي وما فعلته مع مولاك». فقال «يامولانا، بالامس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه

(٧٣) ٣٠ ايار سنة ١١٣٧

(٧٤) ٢٥ تموز سنة ١١٠٤

فارس يطعنه. فدخلت بينه وبين مولاي لافديه بنفسي فطعنّي قطع من اضلاعي ضلعين وهي(٧٥) ـ ونعمتك ـ عندي في قمطرة». فقال له الملك رضوان «والله، ما اعطيك الجواب حتى تنفّذ تحضر القمطرة والاضلاع». فاقام عنده وارسل من احضر القمطرة وفيها عظمان من اضلاعه. فعجب رضوان من ذلك وقال لاصحابه «كذا اعملوا في خدمتي»

فامّا الامر الذي سأله عنه ايام والده تاج الدولة فان جدي سديد الملك ابا الحسن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ، رحمه الله، سيَّر ولده عزّ الدولة نصرًا(٧٦)، رحمه الله، الى خدمة تاج الدولة وهو معسكر بظاهر حلب. فقبض عليه واعتقله ووكّل به من يحفظه. وكان لا يدخل اليه سوى مملوكه هذا شمعون والموكّلون حول الخيمة. فكتب عمّي الى ابيه، رحمهما الله، يقول «تنفّذ لي في الليلة الفلانية (وعيّنها) قوماً من اصحابه (ذكرهم) وخيلاً اركبها الى الموضع الفلاني». فلمّا كانت تلك الليلة دخل شمعون خلع ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكّلين في الليل، فما انكروه، ومضى الى اصحابه وركب وسار. ونام شمعون في فراشه

وجرت العادة ان يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان، رحمه الله، من الزهّاد القائمين [١٧ و] ليلهم يتلون كتاب الله تعالى. فلمّا اصبحوا ولم يروا شمعون دخل كعادته دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون وعزّ الدولة قد راح. فانهوا ذلك الى تاج الدولة. فامر باحضاره. فلمّا حضر بين يديه قال «كيف عملت؟» قال «اعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح، ونمت انا في فراشه». قال «وما خشيتَ ان اضرب رقبتك؟» قال «يامولاي، اذا ضربت رقبتي وسلم مولاي وعاد الى بيته فانا السعيد بذلك. ما اشتراني وربّاني الا لافديه بنفسي»

فقال تاج الدولة، رحمه الله، لحاجبه «سلّم الى هذا الغلام خيل مولاه

(٧٥) هكذا في الاصل. والاصح «وهما»
(٧٦) «نصر» في الاصل

ودوابّه وخيامه وجميع بركه، وسيّره يتبع صاحبه»٠ وما انكر عليه وما احنقه ما فعل في خدمة مولاه٠ فهذا الذي قال له رضوان «حدّث اصحابي ما عملتّه ايّام والدي مع مولاك»

اعود الى حديث الحرب المقدّم ذكرها مع ابن مُلاعب

عم أسامة يُطعن في جفن عينه

وجُرِح عمّي عزّ الدولة، رحمه الله، فـي ذلك اليوم عدّة جراح منها طعنة طُعنها في جفن عينه السفلانيّ من ناحية المأق٠ ونشب الرمح في المأق عند موءخر العين فسقط الجفن جميعه و بقي معلقاً بجلده من موءخر العين، والعين تلعب لا تستقر٠ وانما الجفون التي تمسك العين٠ فخاطها الجرائحيّ وداواها فعادت كحالها الاوّلة(٧٧) لا تُـعرَف العين المطعونة من الاخرى

شجاعة عم أسامة ووالده

وكانا، رحمهما الله، من اشجع قومهما٠ ولقد شهدتهما يوماً وقد خرجا الى الصيد بالبزاة نحو تلّ ملح(٧٨) وهناك طير ماء كثير٠ فما شعرنا الا وعسكر طرابلس قد اغار(٧٩) علـى البلد ووقفوا عليه٠ فرجعنا وكـان الوالد من اثر مرض٠ فامّا عمّي فخفّ بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض الى الافرنج، وهم يرونه٠ وامّا الوالد فسار والحصان يخبّ به، وانا معه صبيّ(٨٠) وفي يده سفرجلة يمتص منها٠ فلمّا دنونا من الافرنج قال لـي «امضِ انت ادخل مـن السكر» وعبر هو مـن ناحية الافرنج

(٧٧) كذا في الاصل٠ وقد تكرّرت ادناه ص٨٨ وص١٠٤ س٢١

(٧٨) "Meleḥ" أو "Mellaḥ" في Dussaud ص٢٠٨

(٧٩) «غار» فـي الاصل٠ عامية٠ وهذه حملة الكونت برترانـد Bertrand سنة ١١١٠

(٨٠) كان عمر أسامة ١٥ سنة

ومرّة اخرى شاهدته وقد اغارت(٨١) علينا خيل محمود(٨٢) قَراجا، ونحن على فسحة من البلد(٨٣)، وخيل محمود اقرب الي وانا قد حضرت القتال ومارست الحرب. فلبست كزاغندي و حصاني واخذت رمحي، وهو، رحمه الله، على بغلة. فقلت «ياه ما تركب حصانك!» قال «بلى» وسار كما هو غير منزعج ولا مست وانا لخوفي عليه الح عليه في ركوبه حصانه، الى ان وصلنا الى ا وهو على بغلته. فلمّا عاد اولئك وامنّا قلت «يامولاي، ترى العد حال بيننا وبين البلد وانت لا تركب بعض جنائبك [١٧ ق] وانا اخ فلا تسمع!» قال «ياولدي، في طالعي انني لا ارتاع»

وكان، رحمه الله، اه اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه و الدهر وتلاوة القرآن. وكان يحرّضني على معرفة علم النجوم وامتنعُ. فيقول «فاعرف اسماء النجوم: ما يطلع منها ويغرب». يريني النجوم ويعرّفني اسماءها

مكيدة افرنجية على شيزر

ورأيت من إقدام الرجال وتخواتهم في الحرب انّا اصبحنا وقت الصبح(٨٤) رأينا سربة من الافرنج، نحواً من عشرة فوارس، جاءو باب المدينة(٨٥) قبل [ان] يُفتح. فقالوا للبوّاب «ايّ شيء اسم البلد؟» والباب خشب بينهما [!] عوارض، وهو داخل الباب. قال «شيز فرموهُ بنشّاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخبّ بهم. فركبنا

(٨١) «غارت» في الاصل

(٨٢) شهاب الدين امير حماة. وذلك سنة ١١٢٠

(٨٣) ذلك القسم من شيزر الواقع ضمن القلعة. اما القسم الواقع على النهر الجسر فهو «المدينة». والافرنج اطلقوا على «البلد» اسم praesidium او oppidum وعلى «المدينة» suburbium وعلى حصن الجسر Gistrum

(٨٤) من سنة ١١٢٢ في الراجح

(٨٥) ذلك القسم من شيزر الواقع على النهر بقرب الجسر

عمّي، رحمه الله، اوّل راكب وانا معه، والافرنج رائحون غير منزعجين يلحقنا(٨٦) من الجند نفر. فقلت لعمّي «على امرك آخذ اصحابنا واتبعهم اقلعهم وهم غير بعيدين». قال «لا، (وكان اخبر مني بالحرب) في الشام افرنجيّ لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة»

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق [!] وقال امضيا اكشفا تلّ ملح» وكان مكمناً للافرنج. فلمّا شارفاه خرج عليهما عسكر انطاكية جميعه فاستقبلنا متسرّعيهم نريد الفرصة فيهم قبل ركود الحرب، ومعنا جُمعة النُّميريّ وابنه محمود، وجُمعة فارسنا وشيخنا. فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جُمعة «يافرسان الخيل! ولدي!» فرجعنا معه في ستة عشر فارساً طعنّا ستة عشر فارساً من الفرنج واخذنا صاحبنا من بينهم، واختلطنا نحن وهم حتى اخذ واحد رأس [ابن] جُمعة تحت ابطه، فخلص ببعض تلك الطعنات

أسامة وجُمعة يهزمان ثمانية فرسان

ومع هذا فلا يثق انسان بشجاعته ولا يُعجب باقدامه. فوالله لقد سرت مع عمّي، رحمه الله، اغرنا(٨٧) على افامية. واتّفق ان رجالها خرجوا ليسيّروا قافلة فسيّروها، وعادوا، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً. ورايت جُمعة النُّميري، رحمه الله، وفيه نصف قنطارية قد طُعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البدّاد الى فخذه، ونفذ الى خلفه، فانكسرت القنطارية فيه. فراعني ذلك. فقال «لا بأس، انا سالم». ومسك سنان القنطارية وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان

فقلت «ياابا محمود، اشتهي اتقرّب [١٨ و] من الحصن ابصره». قال «سر». فرحت انا وهو نُخبّ فرسينا. فلمّا اشرفنا على الحصن اذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق وهي مشرفة على الميدان

(٨٦) ولعلها «فلحقنا»

(٨٧) «غرنا» في الاصل. وذلك حوالى سنة ١١٢٤

من ارتفاع لا يُنزَل منه الا من تلك الطريق. فقال لي جُمعة «قف حتى اريك ما اصنع فيهم». قلت «ما هذا انصاف. بل نحمل عليهم انا وانت». قال «سر». فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى انّا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا ــ نحن اثنان قدْ هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

ثم يهزمهما رُوَيجلٌ

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن، فما راعنا الا رُوَيجلٌ قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشّاب، فرمانا، ولا سبيل لنا اليه فهزمنا، والله ما صدقنا تتخلّص منه وخيلنا سالمة. ورجعنا دخلنا مرج افامية فسقنا منه غنيمة كبيرة(٨٨) من الجواميس والبقر والغنم. وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هزمنا حسرة الذي(٨٩) ما كان لنا اليه سبيل، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

المداواة بالعلل

وشهدت يوماً وقد اُغارت(٩٠) علينا خيل كفرطاب في قلّة ففزعنا(٩١) اليهم طامعين فيهم لقلّتهم، وقد كمنوا لنا كميناً في جماعة منهم. وانهزم الذين اغاروا(٩٢) فتبعناهم حتى ابعدنا عن البلد. فخرج الينا الكمين ورجع الينا الذين كنّا نطردهم. فراينا اننا ان انهزمنا قلعونا كلنا. فالتقيناهم مستقتلين(٩٣). فنصر الله عليهم. فقلعنا منهم ثمانية عشر فارساً: منهم من طُعن فمات، ومنهم من طُعن فوقع وهو سالم، ومنهم من طُعن حصانه فهو راجل

فجذب الذين في الارض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز

(٨٨) «كسرة» في الاصل

(٨٩) في العامية «إللّي». هنا وادناه ص٦٣ س٧

(٩٠) «غارت» في الاصل هنا وادناه ص٦٢ س٩

(٩١) «فعرعنا» في الاصل

(٩٢) «غاروا» في الاصل

(٩٣) «مستقبلين» طبعة درنبورغ ص٤٣

بهم ضربوه. فاجتاز جُمعة النُّميري، رحمه الله، بواحد منهم فخطا اليه وضربه على رأسه، وعلى رأسه قلنسوة، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح. وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة. فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له «باابا محمود، ما تعصب جرحك!» فقال «ما هذا وقت العصائب وشد الجراح». وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينيه عروق حمر. فلمّا اصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكوه من عينيه ولم يعد يناله منهما رمد ولا الم: «فربما صحَّت الاجسام بالعللِ (٩٤)»

استخلاص ابن عم أُسامة من ايدي الافرنج

[١٨ ق] واما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا. فجاءني ابن عمّي ذخيرة الدولة ابو القنا خطام، رحمه الله، فقال «ياابن عمّي، معك جنيبتان وانا على هذا الفرس الحَطِم». قلت للغلام «قدّم له الحصان الاحمر». فقدّمه له. فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى توسَّطهم وطعنوه رموه، وطعنوا الحصان واقلبوا قنطاريّاتهم وصاروا يركشونه بها، وعليه زردية حصينة ما تعمل رماحهم فيها. فتصايحنا «صاحبكم! صاحبكم!» وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم. واما الحصان فمات في يومه. فسبحان المسلّم القادر

وتلك الوقعة انما كانت لسعادة جُمعة وشفاء عينيه. فسبحان القائل «وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم(٩٥)»

ضربة سكين تشفي من الاستسقاء

وقد جرى لي مثل ذلك. كنت بالجزيرة في عسكر اتابك(٩٦) فدعاني

(٩٤) «لعلّ عتبك محمود عواقبه فربما صحت الاجسام بالعللِ» — للمتنبي
(٩٥) القرآن ٢١٣:٢
(٩٦) زنكي

صديق لي الى داره ومعي ركابي ٌ اسمه غُنيم قد استسقى ودقّت رقبته وكبر جوفه وقد تغرّب معي، فانا ارعى له ذلك. فدخل بالبغلة الى اصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين. وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر، فخرج الى الاصطبل جذب سكّينه وهجم على الغلمان. فانهزموا وخرجوا. وغُنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت راسه ونام. فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل. فضربه ذلك السكران بالسكّين تحت سُرّته فشقّ من جوفه قدر اربع اصابع. فوقع موضعه. فحمله الذي دعانا، وهو صاحب قلعة باشمرا [؟](٩٧)، الى داري، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه الى داري. فاطلقته. وتردّد اليه الجرائحيّ فصلح ومشى وتصرّف. الا ان الجرح ما ختم. وما زال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدّة شهرين. ثم ختم وضمر جوفه وعاد الى الصحّة. فكان ذلك الجرح سبباً لعافيته

شوكة تشفي عين باز

ورأيت يوماً البازدار قد وقف بين يدي والدي، رحمه الله، وقال «يامولاي، هذا الباز قد لحقه حصّ(٩٨) وهو يموت. وعينه الواحدة قد تلفت. فتصيّد به. فهو [١٩ و] باز شاطر وهو تالف». فخرجنا الى الصيد وكان معهه، رحمه الله، عدّة بزاة. فرمى ذلك الباز على درّاجة وكان يهجم في النبج. فنبجت(٩٩) الدرّاجة في اجمة(١٠٠) غلفاء. ودخل الباز معها. وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة. فضربته شوكة

(٩٧) «باسهرا» في الاصل. وموقع باشمرا في جبل سمعان في شمالي سورية راجعها في Dussaud ٢٢٤

(٩٨) مرض يفقد الطائر ريشه

(٩٩) او «بنجت» اختبأت. وتأتي بمعنى صاحت او خرجت من جُحْرها. وقد وردت مراراً ادناه ص٢١١ س٤ فما بعد

(١٠٠) «جمة» في الاصل. «الغلفاء» الارض لم ترعَ

من الغلفاء في تلك النقطة ففقأتها(١٠١)· فجاء به البازدار، وعينه قد سالت وهي مطبوقة، فقال «يامولاي، تلفت عين الباز»· فقال «كلّه تالف»· ثم مـن الغد فتح عينه وهـي سالمة· وسلم ذلك الباز عندنـا حتى قرنص قرناصين فكان من اشطر البزاة

ذكرته بما جرى لجُمعة وغُنَيم وان لم يكن موضع ذكر البزاة

ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات، وغُنَيم شقّ ذلك السكران جوفه سلم وعوفي· فسبحان القادر

الهزيمة امام افرنج انطاكية

واغار (١٠٢) علينا عسكر انطاكية واصحابنا قد التقوا اوائلهم وجاءوا قدّامهم· وانا واقف في طريقهم انتظر وصولهم الي لعلّي انالُ منهم فرصة، واصحابنا يعبرون عليّ منهزمين· فعبر عليّ في من عبر محمود بن جُمعة· فقلت «قف يامحمود»· فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عنّي· ووصلني اوائل خيلهم· فاندفعت بين ايديهم وانا رادّ رمحي اليهم ملتفت انظرهم لا(١٠٣) يتسرّع اليّ منهم فارس يطعنّي· وبين يديّ جماعة من اصحابنا· ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل· فندس فرسي بصدرها رجلٌ من اصحابنا· فرددت(١٠٤) رأس فرسي على يساري· وضربتها بالمهاميز ففزّت الحائط· فضبطتُ حتى صرت انا والافرنج مصطفين و بيننا الحائط· فتسرّع منهم فارس عليه تشهير حرير اخضر واصفر· فظننت ان ما تحته درع· فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس بالمهاميز، ففزّت(١٠٥) الحائط· وطعنته، فمال الـى ان وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخوذة عن رأسه، ونحن قد وصلنا

(١٠١) «ففقتها» في الاصل· عامية
(١٠٢) «وغار» في الاصل· وذلك حوالى سنة ١١٢٧
(١٠٣) بمعنى «لئلا»
(١٠٤) «فردت» في الاصل
(١٠٥) «فقرب» طبعة درنبورغ ص٤٥ هنا وايضاً س١٧

الى رجّالتنا. ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زردية تحت التشهير. فما جرحته الطعنة. وادركه اصحابه ثم عادوا. واخذ الرجّالة الترس والرمح والخوذة

جُمعة نفسه يهرب

فلمّا انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جُمعة، رحمه الله، يعتذر عن ابنه محمود وقال «هذا الكلب انهزم عنك». قلت «واي شيء يكون؟» قال «ينهزم عنك ولا يكون شيء؟» قلت «وحياتك [١٩ ق] ياابا محمود وانت تنهزم عنّي ايضاً». قال «ياشَين! والله ان موتي اسهل عليّ من ان انهزم عنك». ولم يمضِ الا ايام قلائل حتى اغارت علينا خيل حماة فاخذوا لنا باقورة وحبسوها فيجزيرة(١٠٦) تحت الطاحون الجلاليّ. وطلع الرماة علىالطاحون يحمون الباقورة. فوصلتُهم انا وجُمعة وشجاع الدولة ماضي مولّد لنا وكان رجلاً شجاعاً. فقلت لهما «نعبر الماء وناْخذ الدوابّ». فعبرنا. فامّا ماضيفضربت فرسه نشّابةفقتلتهاوبالجهد اوصلته الى اصحابه. واما انا فضربت فرسي نشّابة في اصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر، فوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها احسّت بالجرح. وامّا جُمعة فرجع خوفاً على فرسه. فلمّا عدنا قلت «ياابا محمود، ما قلت لك انك تنهزمعنّيوانت تلوم ابنك محموداً؟» قال «والله ما خفت الاعلىالفرس. فانها تعزُّ عليّ» واعتذر

أسامة يطعن رفيقه خطأً

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة الى الجزيرة. فاقتتلنا نحن وهم، وفيهم فرسان عسكر حماة: سرهنك وغازي التّلّي ومحمود بن بَلداجي وحَضر الطّوط واسباسلار

(١٠٦) في العاصي قرب شيزر

خُطلخ(١٠٧)، وهم اكبر عددا منّا. فحملنا عليهم. فهزمناهم وقصدت فارساً منهم اريد اطعنه واذا هـو حضر الطُّوط. فقال «الصنيعة، يافلان!» فعدلت عنه الى آخر فطعنته فوقع الرمح تحت ابطه. فلو تركه ما كان وقع. فشدّ عصده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مُسَنْدرة(١٠٨) بي فطار في السرج على رقبة الحصان، فوقع. ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر الـى الجلالي(١٠٩). فضرب حصانـه وساقه بين يديه ونزل. وحمدت الله سبحانه الذي مـا ناله ضررٌ مـن تلك الطعنة لانه كان غازي التَّلّي. وكان رحمه الله، رجلاً جيّدًا

جُمعة يستخلص اسيرًا

ونزل علينا عسكر انطاكية في بعض الايام(١١٠) منزلا كان ينزله كلّما نزل علينا. ونحن ركّاب مقابلهم وبيننا النهر(١١١). فلم يقصدنا منهم احد. وضربوا خيامهم ونزلوا فيها. فرجعنا نحن نزلنا في دورنا، ونحن نراهم من الحصن(١١٢). فخرج من جندنا نحو مـن عشرين فارساً الـى بندرقنين(١١٣) قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم، وقد تركوا رماحهم في دورهم. فخرج من الافرنج فارسان سارا الى قريب من اولئك الجند الذين يرعون خيلهم. فصادفا(١١٤) رجلاً [٢٠ و] على الطريق يسوق بهيمة فاخذاه(١١٥) وبهيمته ونحن نراهم من الحصن. وركب اولئك

(١٠٧) إسْباسلار أو إسْفهسلار فارسية (سيه سالاري ـ قائـد جيش). خطلخ تترية (فنلع). ذكره كمال الدين في *Recueil* ٣:٥٩٥

(١٠٨) مسرعة

(١٠٩) نهر يصبّ في العاصي

(١١٠) حوالى سنة ١١٢٩

(١١١) العاصي

(١١٢) شيزر

(١١٣) «فس» في الاصل

(١١٤) «فصادفوا» في الاصل. عامية

(١١٥) «فاخذوه» في الاصل. عامية

الجند ووقفوا مـا معهم رمـاح. فقـال عمّي «هاولاء عشرون لا يخلّصون اسيرًا مع فارسين! لو حضرهم جُمعة راٰيتم ما يعمل». هو يقول ذلك وجُمعة لابس يركض اليهم. فقال عمّي «ابصروا الساعة ما يعمل». فلمّا دنا من الفارسين وهو يركض كفّ راس فرسه وسار خلفهم سترة. فلمّا راٰى عمّي توقّفه عنهما، وهو على روشن له في الحصن يراه، دخل من الروشن مغضباً وقال «هذا خذلان!» وكان توقّف جُمعة خوفاً من جورة كانت بين يدي الفـارسين لا(١١٦) يكون لهم فيهـا كمين. فلمّا وصل تلك الجورة ومـا فيها احد حمل على الفارسين خلّص الرجل والبهيمة وطردهما الى الخيام

وكان ابن ميمون(١١٧) صاحب انطاكية يرى ما جرى. فلمّا وصل الفارسان اخذ اخـذ ترسيهما جعلهمـا معالف(١١٨) للدوابّ ورمى خيمتهما وطردهما وقال «فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج! ما انتم رجال انتم نساء»

وامّا جُمعة فوبّخه وحرد عليه لوقوفه عنهما اوّل ما وصلهما. فقال «يامولاي، خفت لا(١١٩) يكون لهم فـي جورة رابيـة القرامطـة كمين يخرج علـيّ. فلمّا كشفتها ومـا رايت فيها احـدا استخلصت الرجـل والبهيمة وطردتهما حتى دخلا عسكرهما». فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه

منزلة الفارس عند الافرنج

والافرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولاعندهم تقدمة ولامنزلة عالية الا للفُرسان، ولاعندهم ناس الا الفرسان ـــ فهم اصحـاب الراٰي وهـم اصحاب القضاء والحكم. وقـد حاكمتُهم

(١١٦) بمعنى «لئلا»
(١١٧) Bohemond II
(١١٨) «معالفا» في الاصل
(١١٩) بمعنى «لئلا»

مرّة(١٢٠) على قُطعان غنم اخذها صاحب بانياس(١٢١) من الشَّعراء وبيننا وبينهم صلح، وانا اذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك(١٢٢) «هذا تعدّى علينا واخذ دوابّنا، وهو وقتُ ولاد الغنم. فولدت وماتت اولادها وردّها علينا بعد ان اتلفها». فقال الملك لستة سبعة من الفرسان «قوموا اعملوا له حكماً». فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتّفق رأيهم كلّهم على شيء واحد وعادوا الى مجلس الملك. فقالوا «قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم». فامره الملك بالغرامة. فتوسّل الي وثقل(١٢٣) علي وسألني حتى اخذت منه اربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان [٢٠ ق] ما يقدر الملك ولا احد من مقدّمي الافرنج يغيّرهُ ولا ينقضه. فالفارس امر عظيم عندهم

ولقد قال لي الملك «يافلان، وحق ديني لقد فرحتُ البارحة فرحاً عظيماً». قلت «الله يفرّح الملك بماذا فرحت؟» قال «قالوا لي انك فارس عظيم. وما كنت اعتقد انك فارس». قلت «يامولاي، انا فارس من جنسي وقومي» واذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان اعجب لهم(١٢٤)

أمان تنكرد لا قيمة له

وكان نزل علينا(١٢٥) دنكري(١٢٦) وهو اوّل اصحاب انطاكية بعد ميمون(١٢٧)، فقاتلنا ثم اصطلحنا. فنفّذ يطلب حصاناً لغلام لعمّي

(١٢٠) سنة ١١٤٠

(١٢١) واسمه رنيه Renier

(١٢٢) Fulk V تتوّج ملكاً على اورشليم سنة ١١٣١

(١٢٣) «ولعل» في الاصل

(١٢٤) الضمير يعود للافرنج ولكن درنبورغ في ترجمته الافرنسية *Autobiographie d' Ousāma Ibn Mounkidh* (باريز ١٨٩٥) ص٦٦ يرجعه لِ «قومي» و بنفس العبارة الاخيرة كلها في كلام أسامة المقتبس

(١٢٥) ٢٧ تشرين الثاني سنة ١١٠٨

(١٢٦) Tancred

(١٢٧) Bohemond I وخلفه تنكرد سنة ١١٠٤

عزّ الدين، رحمه الله، وكان فرساً جواداً. فنفذه لـه عمّي تحت رجل من اصحابنا كرديّ يقال له حَسَنون، وكان من الفرسان الشجعان وهو شابٌّ مقبول الصورة دقيق، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري. فسابق به فسبق الخيل المجراة كلّها. وحضر بين يدي دنكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجّبون من دقّته وشبابه، وقد عرفوا انه فارس شجاع. فخلع عليه دنكري. فقال له حَسَنون «يامولاي، اريدك تعطيني امانك انك ان ظفرتَ بي في القتال تصطنعني وتطلقني». فاعطاه امانه — على ما توهّم حَسَنون، فانهم لا تتكلّمون الا بالافرنجي ما ندري ما يقولون

ومضى على هذا سنة او اكثر(١٢٨) وانقضت مدّة الصلح. وجاءنا دنكري في عسكر انطاكية، فقاتلنا عند سور المدينة. وكانت خيلنا لقيت اوائلهم. فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من اصحابنا كرديّ، وهو وحَسَنون نظراء في الشجاعة، وحسنون واقف مع والدي، رحمه الله، على حجرة له ينتظر حصانه ياتيه به غلامه من عند البيطار وياتيه كزاغنده. فابطأ عليه واقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي «يامولاي، أمُر(١٢٩) لي بلباس خفيف». فقال «هذه البغال عليها السلاح واقفة. مهما اصلح لك البسه». وانا اذ ذاك واقف خلف والدي، وانا صبيّ(١٣٠)، وهو اوّل يوم رايت فيه القتال. فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال فما وافقته، وهو يغلي يريد يتقدّم يعمل كما عمل كامل المشطوب. فتقدّم على حجرته، وهو معرّى، فاعترضه فارس منهم. فطعن الفرس في قطاتها فعضّت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب الافرنج. فاخذوه اسيرا وعذّبوه انواع العذاب وارادوا قلع عينه [٢١ و] اليسرى. فقال لهم دنكري، لعنه الله، «اقلعوا عينه اليمين، حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً». فقلعوا

(١٢٨) ربيع ١١١٠
(١٢٩) «آمُر» في الاصل
(١٣٠) كان عمر أسامة ١٥ سنة

عينه اليمين كما امرهم وطلبوا منه الف دينار وحصاناً ادهم كان لوالدي من خيل خَفَاجة(١٣١) جواداً مـن احسن الخيل٠ فاشتراه بالحصان، رحمه الله

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير٠ فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم٠ فحرد دنكري وقال «انتم فرساني، وكل واحد منكم لـه ديوان مثل ديوان مائـة مسلم٠ وهـاولاء سرجند(١٣٢) (يعني رجّالة) ما تقدرون(١٣٣) تقلعونهم مـن موضعهم!» قالوا «انمـا خوفنا على الخيل، والا دساهم وطعنّاهم»٠ قال «الخيل لي، من قُتل حصانه اخلفته عليه»٠ فحملوا على الناس عدّة حملات، فقُتل منهم سبعون حصاناً وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم

فارس افرنجي يهزم اربعة مسلمين

وكان بافامية فارس من كبار فرسانهم يقال لـه بدرهوا(١٣٤)٠ فكان ابدا يقول «تُرى ما التقي جُمعة في القتال؟» وجمعة يقول «تُرى ما التقي بدرهوا في القتال؟»

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله، وبيننا وبينهم الماء(١٣٥)، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم٠ فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا، والماء بينه وبينهم، وصاح بهم «فيكم جُمعة؟» قالوا «لا»٠ والله ما كان حاضراً فيهم٠ وكـان ذلك الفارس بدرهوا٠ فالتفت فرأى اربعة فوارس منّا من ناحيته: يحيى بـن صافي الاعسر وسهل بن ابي غانم الكردي وحارثة النُّميري وفارس آخر٠

(١٣١) قبيلة عربية اشتهرت خيلها بالجودة

(١٣٢) sergeant

(١٣٣) «تقدروا» في الاصل٠ عامية

(١٣٤) لعله Pedrovant . راجع درنبورغ *Vie d' Ousāma* (باريز ١٨٨٩) ص٥٧ حاشية ٢

(١٣٥) العاصي

فحمل عليهم فهزمهم· ولحق واحدا منهم طعنه طعنةً فشلةً ما الحقه حصانه ليمكن الطعن· وعاد الى الخيام

ودخل اولئك النفر الى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولاموهم وازروا بهم وقالوا «اربعة فوارس يهزمهم فارس واحد! كنتم افترقتم لـه فكان طعن واحدا منكم وكان الثلاثة قتلوه، ولا قد افتضحتم»· وكان اشدّ الناس عليهم جُمعة النُّميري

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها· فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين، بعد تلك الهزيمة

وامّا بدرهوا فانه سار بعد ذلك من افامية في بعض شغله يريد انطاكية· فخرج عليه الاسد من غاب في الرُّوج(١٣٦) في طريقه فخطفه عـن بغلته ودخل به الى الغاب اكله ـ لا رحمه الله

وآخر يحمل على عسكر

ومن إقدام الرجـل الواحد علـى الجمع الكثير: فمن ذلك [٢١ ق] ان اسباسلار مَودُود(١٣٧)، رحمه الله، نزل بظاهر شيزر يـوم الخميس تاسع ربيـع الاوّل سنـة خمس وخمس مائة(١٣٨)، وقـد قصده دنكري صاحب انطاكية في جمع كثير· فخرج اليه عمّي ووالدي، رحمهما الله، وقالا «الصواب ان ترحل (وكان نازلاً شرقيّ البلد على النهر) وتنزل فـي البلد، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة(١٣٩)· ونلقى

(١٣٦) بين حلب والمعرّة · ياقوت ٢:٨٢٨

(١٣٧) شرف الدين مودود بن ألتونتكين حاكم الموصل باسم السلطان السلجوقي محمد شاه فـي اصبهان· وهو قائد الجيش الذي نفذه السلطان لمحاربة تنكرد· بناء على طلب الخليفة العباسي· ابن تغري بردي جلد ٢ جزء ٢ ص٣٥٤

(١٣٨) ١٥ ايلول سنة ١١١١

(١٣٩) البلد هو القسم من شيزر الواقع ضمن القلعة· «المدينة» هو القسم من شيزر الواقع على النهر قرب الجسر

الافرنج بعد ان تحرّز خيامنا واثقالنا». فرحل ونزل كما قالا له. واصبحا خرجا اليه وخرج من شيزر خمسة آلاف(١٤٠) راجل معدّين. ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه

وكان معه، رحمه الله، رجال جياد. فصفّوا من قبليّ الماء والافرنج نزول شماليّه، فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم. فلمّا كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم والناس حولهم. فنزلوا على تلّ التُرْمُسي(١٤١) فمنعوهم الورود كما عملوا بالامس. فرحلوا في الليل ونزلوا على تلّ التلول(١٤٢) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير. فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود. ورحلوا في الليل متوجّهين الى افامية. ففرغ اليهم العسكر واحتاطوا بهم، وهم سائرون. فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسّطهم، فقتلوا حصانه واثخنوه بالجراح. فقاتل وهو راجل حتى وصل الى اصحابه

ودخل الافرنج ارضهم، وعاد المسلمون عنهم

ومضى اسباسلار مّودود، رحمه الله، الى دمشق. فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان واصحاب يقول «هذا فارس محتشم من الافرنج، وصل حجّ ويريد الرجوع الى بلاده. وسألني ان اسيّره اليكم يبصر فرسانكم. وقد نفّذته، فاستوصوا به». وكان شاباً حسن الصورة حسن اللباس، الا ان فيه اثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدّت من مفرقه الى حكَمَته. فسألت عنه فقالوا «هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود، وقتلوا حصانه، وقاتل حتى رجع الى اصحابه». فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يوءخّر الاجل الاِحجام ولا يقدّمه الاِقدام

(١٤٠) «الف» في الاصل

(١٤١) تِيرْمِسي في Dussaud ٢٠٨

(١٤٢) «سل اللول» في الاصل. Dussaud يجعلها "Tawil" (الطويل) ص٢٠٨ حاشية ٧

واحد يغزو ثمانية

ومن ذلك ما حكاه لي العُقاب الساعر، رجل من اجنادنا من المغرب، قال «خرج ابي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه اربعة فوارس واربعة رجّالة وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها. [٢٢ و] (قال) بينا نحن نسير اذا فارس مقبل من صدر البريّة. فجاء بسير حتى صار بالقرب منّا. فقال: خلّوا عن الجمال! فصحنا عليه وشتمناه. فاطلق حصانه علينا. فطعن منّا فارساً رماه عن فرسه وجرحه. فطردناه فسبق، ثم عاد الينا وقال: خلّوا عن الجمال! فصحنا عليه وشتمناه. فحمل علينا، فطعن راجلاً منّا اوثقه بالجرح. وتبعناه فسبقنا، ثم عاد وقد بطل منّا رجلان فاطلق علينا. فاستقبله رجل منّا. فطعنه صاحبنا فوقعت الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبنا. وطعنه الفارس فجرحه. ثم حمل علينا فطعن رجلاً منّا فصرعه. وقال: خلّوا عن الجمال! والا افنيتكم. قلنا: تعال خذ نصفها. قال: لا. احبسوا منها اربعة اتركوها وقوفاً وخذوا اربعة وامضوا. ففعلنا وما صدقنا نخلص بما سلم معنا. وساق هو تلك الاربعه ونحن نراه ما لنا فيه حيلة ولا طمع. وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال»

افرنجي يستولي على مغار

ومن ذلك ان دنكري صاحب انطاكية اغار على شيزر فاستاق دوابّ(١٤٣) كثيرة وقتل وسبى(١٤٤). ونزل على قرية يقال لها زلين(١٤٥) فيها مغار معلّقة [كذا] لا يوصل اليها في وسط الجبل: ما اليها من فوق منزل ولا اليها من اسفل مطلع. انما ينزل اليها من يحتمي فيها بالحبال. وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين

(١٤٣) «دوابا» في الاصل

(١٤٤) «سبا» في الاصل

(١٤٥) «رلس» في الاصل

وخمس مائة(١٤٦). فجاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال «اعمل لي صندوقاً من خشب، وانا اقعد فيه، ودلّوني من الجبل اليهم بسلاسل او ثقوها في الصندوق حتى لا يقطعوها بالسيوف، فاسقط». فعملوا له صندوقاً ودلّوه بالسلاسل المعلّقات الى المغار، فاخذها وانزل كل من كان فيها الى دنكري. وذلك ان المغار بهوٌ ما فيه مكان يستتر الناس فيه ــ وذلك يرميهم بالنشّاب فلا تقع نشّابة الافي انسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه

عم أسامة يفك اسر مسلمة

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيّد من العرب ُوصفت لعمّي عزّ الدين ابي العساكر سلطان، رحمه الله، قبل ذلك وهي في بيت ابيها. فارسل عمّي عجوزاً من اصحابه تبصرها فعادت تصفها [٢٢ ق]وجمالها وعقلها امّا لرغبة بَذلُوها لهاوامّا اثروها غيرها. فخطبها عمّي وتزوّجها. فلمّا دخلت عليه رأى غير ما وُصف له منها. ثم هي خرساء. فوفاها مهرها وردّها الى قومها. فأُسرت من بيوت قومها ذلك اليوم. فقال عمّي «ما ادع امرأة تزوّجتُها وانكشفت عليّ في اسر الافرنج». فاشتراها، رحمه الله، بخمس مائة دينار وسلّمها الى اهلها

فطنة فتاة تركية

ومن ذلك ما حدّثني به المويّد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة(١٤٧) قال «اقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردّد اليها. وبها جماعة من العيّارين يقطعون الطريق والدي يصانعهم لخوفه منهم ولانتفاعه بشيء ممّا يأخذونه. فنحن يوماً جلوس بها اقبل غلام تركيّ على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجارية راكبة فوق الخرج. فنزل وانزل الجارية فقال «يافتيان، اسعدوني على حطّ الخرج». فجئنا

(١٤٦) ٢٧ تشرين الثاني سنة ١١٠٨
(١٤٧) ٢٥ ايلول سنة ١١٦٩ ــ ١٣ ايلول ١١٧٠

حططناه(١٤٨) معه، واذا به كلّه دنانير ذهب ومصاع. فجلس هو والجارية اكلا(١٤٩) شيئاً ثم قال «اسعدوني على رفع الخرج». فرفعناه معه. فقال لنا «كيف طريق الأنبار؟» فقال له والدي «الطريق هاهنا (واشار الى الطريق) ولكن في الطريق ستون عيّاراً اخاف عليك منهم». فضرط له وقال «انا أخاف من العيّارين!»

فتركه والدي ومضى الى العيّارين اخبرهم خبره وما معه. فخرجوا حتى عارصوه في الطريق. فلمّا رآهم اخرج قوسه وترك فيه سهماً واستوفاه يريد برميهم، فانقطع الوتر. فهجم عليه العيّارون، فانهزم. واخذوا البغل والجارية والخرج. فقالت لهم الجارية «ياشباب، بالله لاتهتكوني. وبيعوني نفسي والبغل ايصاً بعقد جوهر مع التركيّ قيمته خمس مائة دينار، وخذوا الخرج وما فيه». قالوا «قد فعلنا». قالت(١٥٠) «ابعثوا معي بعضكم حتى اتحدّث مع التركيّ وآخذ العقد». فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركيّ وقالت له «قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق موزك(١٥١) خفّك اليسار. فادفعه لي». قال «نعم». وانفسح عنهم واخرج الساق موزا واذا فيه وتر قوس. فركّبه على قوسه ورجع اليهم. فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحداً واحداً حتى قتل منهم ثلاثة واربعين رجلاً. ونظر فاذا والدي في [٢٣ و] الجماعة الباقين من العيّارين فقال «وانت فيهم! فتشتهي اعطيك نصيبك من النشّاب!» قال «لا». قال «خذ هاولاء السبعة عشر الباقين امضِ بهم الى شحنة البلد يشنقهم(١٥٢)». واولئك قد زنهروا ورموا سلاحهم. وساق بغله بما

(١٤٨) «حطناه» في الاصل

(١٤٩) «اكلوا» في الاصل. عامية

(١٥٠) «فال» في الاصل

(١٥١) «مُورا» تعريب «مُوزه» الفارسية ــ الخف. ويظهر ان ناسخ المخطوطة اضاف «خفّك» لزيادة الايضاح

(١٥٢) «تسبقهم» طبعة درنبورغ ص٥٤. «تسنبقـهم» لاندبرغ ص٢٦

عليه ومضى. وقد ارسل الله تعالى على العيّارين منه مصيبة وسخطة عظيمة.

مغامرات اخرى

ومن ذلك ما حضرته في سنة تسع وخمس مائة(١٥٣) وقد خرج والدي، رحمه الله، بالعسكر الى اسباسلار بُرسق بن برسق، رحمه الله، وقد وصل بامر السلطان(١٥٤) الى الغزاة، وهو في خلق عظيم وجماعة من الامراء: منهم امير الجيوش اوزبه(١٥٥) صاحب الموصل، وسُنقُر دِراز صاحب الرحبة، والامير كُندُغدي، والحاجب الكبير بكتمُر، وزنكي بن برسق وكان من الابطال، وتَميرك، واسمعيل البكجي(١٥٦)، وغيرهم من الامراء. فنزلوا على كفرطاب وفيها اخوا تيوفل والافرنج. فقاتلوها. ودخّلوا الخراسانيّة في الخندق ينقبون، والافرنج قد ايقنوا بالهلاك. فطرحوا النار في الحصن فاحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدوابّ والغنم والخنازير والأسارى. فاحترق الجميع. وبقي الافرنج معلّقين في اعلاه على الحيطان

فوقع لي ان ادخل في النقب ابصره. فنزلت في الخندق، والنشّاب والحجار مثل المطر علينا، ودخلت النقب. فرأيت حكمة عظيمة: قد نقبوا من الخندق الى الباشورة واقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضيّة تمنع من تهدّم ما فوقها. ونظموا النقب بالاخشاب كذلك الى اساس الباشورة. ثم نقبوا حائط(١٥٧) الباشورة وعلّقوه. وبلغوا اساس البرج. والنقب ضيّق، انما هو طريق الى البرج. فلمّا وصلوه

(١٥٣) ٢٧ ايار سنة ١١١٥ ــ ١٥ ايار سنة ١١١٦

(١٥٤) محمد شاه بن ملكشاه السلجوقي في اصبهان

(١٥٥) او «أزبك» تتربة ــ قائد جيش. ولقد ذكره ابو الفدا وابن الاثير بلقب «اميرُ الجيوش بك» راجع *Recueil* ١٣:١ و٣٠٠

(١٥٦) «البلحي» في الاصل. قابل ابن الاثير (ليدن ١٨٦٤) ٤٦٦:١٠ و *Recueil* جلد٢ جزء٢ ص٤٥ حاشية٣

(١٥٧) «حيط» في الاصل. عامية

وسّعوا النقب في حائط البرج وحمّلوه على الاخشاب، ويخرجون نُقارة الاحجار اوّلا فاوّلا(١٥٨)٠ وارض النقب من النقش قد صارت طيناً٠ فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانيّة٠ ولو عرفوني ما تركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم

وشرعوا فـي تقطيع الخشب اليـابس وحشوا النقب بذلك الخشب٠ واصبحوا طرحوا فيه النار٠ وقد لبسنا وزحفنا الى الخندق [٢٣ ق] لنهجم الحصن اذا وقع البرج، وعلينا من الحجارة والنشّاب بلاءٌ عظيم٠ فاوّل ما عملت النار صار يسقط ما بين الاحجار من تكحيل الكلس ثم انشقّ واتّسع الشقّ ووقع البرج، ونحن نظن انه اذا وقع تمكّنّا من الدخول عليهم٠ فوقع الوجه البرّاني وبقي الحائط(١٥٩) الجوّاني كما هو٠ فوقفنا الى ان حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا، وقد نالنا من الحجارة اذىً كثير(١٦٠)

فمكثنا الى الظهر واذا قد خرج مـن العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى الى حائط(١٦١) البرج الذي قد وقع، وقد صارت جوانبه كدرج السلم، فتوقّل فيه حتى صعد الى اعلاه٠ فلمّا رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرّعوا بعدّتهم فصعدوا واحداً وراء واحد حتى صاروا على البرج والافرنج لا يشعرون بهم٠ ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا٠ فكثروا على البرج قبل ان يتكامل الناس عندهم

ففرغ اليهم الافرنج فرموهم بالنشّاب، فجرحوا الذي طلع في الاوّل، فنزل٠ وتتابع الناس فـي الطلوع، وصاروا مع الافرنج على بدن مـن حيطان البرج، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج٠ وعلى البرج جماعة من الافرنج يقاتلون الناس

(١٥٨) «فاول» في الاصل
(١٥٩) «حيط» في الاصل
(١٦٠) او «كبير»٠ «كسر» في الاصل
(١٦١) «حيط» في الاصل

بالنسّاب والحجارة. فصعد رجل من الاتراك، ونحن نراه، ومسى والبلاء بأخذه الى ان دنا من البرج وصرب الدي عليه بقارورة نفط. فرأيه كالسهاب على تلك الحجارة اليهم(١٦٢) وقد رموا نفوسهم الى الارص حوفاً من الحريق. ثم عاد

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس. فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زرديّتان وبيده قنطارية وما معه ترس. فلقيه التركيّ وفي يده سيفه. فطعنه الافرنجيّ. فدفع سنان القنطارية عنه بالترس ومشى الى الافرنجيّ وقد دخل، على الرمح، اليه. فولّى عنه وادار ظهره واماك ظهره كالراكع خوفاً على رأسه. فضربه التركي ضربات ما عملت فيه شيئاً. ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا. فسلّموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق ابن برسق

فشاهدتُ ذلك الذي خرج بقنطاريّته على التركيّ وقد جمعوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمناً يخلصون به. فوقف وكان سرجندياً(١٦٣) وقال «كم تأخذون منّي؟» قالوا «نريد ستّمائة دينار». فضرط لهم وقال «انا سرجنديّ ديواني كل شهر ديناران(١٦٤). من اين لي ستّمائة دينار؟» وعاد جلس بين اصحابه. وكان خِلقة عظيمة. فقال الامير السيّد الشريف(١٦٥)، وكان من كبار الامراء، لوالدي، رحمهما الله، «ياأخي، ترى هاولاء القوم؟ نعوذ بالله منهم»

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث(١٦٦). وصبّحهم عسكر انطاكية يوم الثلثاء الثالث والعشرين من ربيع الاخر(١٦٧).

(١٦٢) «السهم» في الاصل. ولعلها «البهم»
(١٦٣) «سرحدى» في الاصل. تعريب sergeant
(١٦٤) «د سارس» في الاصل. عامية
(١٦٥) قابل ابن الاثير في *Recueil* ١: ٢٨٢
(١٦٦) من اعمال حلب وموقعها بين حلب وكفرطاب. ياقوت ٢: ٥٤٠
(١٦٧) ١٥ ايلول سنة ١١١٥

وكان تسليم كفرطاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الاخر(١٦٨)٠ فقُتل الامير السيّد، رحمه الله، وخلق كبير من المسلمين

وعاد الوالد، رحمه الله، وكنتُ فارقته من كفرطاب وقد كُسر العسكر٠ ونحن في كفرطاب نحرّزها نريد نعمّرها، وكان اسباسلار سلّمها الينا٠ ونحن نخرج الأسارى كلّ اثنين في قيد من اهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فَخذُه، وذا قد مات في النار٠ فرأيت منهم عبرة(١٦٩) عظيمة٠ فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد، رحمه الله٠ وقد اخذ كل ما كان معه من الخيام والحمال والبغال والبرك والنحمّل(١٧٠)٠ وتفرّق العسكر

مكيدة لوءلوء

وكان ما جرى عليهم بمكيدة من لوءلوء الخادم(١٧١) صاحب حلب ذلك الوقت٠ قرّر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرّقهم ويخرج ذلك من انطاكية بعسكره يكسرهم٠ فارسل الى اسباسلار برسق، رحمه الله، يقول «تنفّذ لي بعض الامراء ومعه جماعة من العسكر اسلّم اليه حلب٠ فاني اخاف من اهل البلد ان لا يطاوعوني على التسليم٠ فاريد ان يكون مع الامير جماعة اتقوّى بهم على الحلبيين»٠ فنفّذ اليه امير الجيوش اوزبة(١٧٢) ومعه ثلاثة آلاف(١٧٣) فارس٠ وصبّحهم روجار(١٧٤)، لعنه الله، كسرهم لنفاذ المشيئة

وعاد الافرنج، لعنهم الله، الى كفرطاب عمّروها وسكنوها

(١٦٨) ٥ ايلول سنة ١١١٥٠ مقابلة هذين التاريخين ويوميّ وقوعهما يدل على وجود خطإ فيهما او في احدهما

(١٦٩) قابل عنوان الكتاب «كتاب الاعتبار»

(١٧٠) «والنجمل» في الاصل

(١٧١) بدر الدين لؤلؤ الذي خلف رضوان بن تتش في إمارة حلب سنه ١١١٧

(١٧٢) «اوربه» في الاصل

(١٧٣) «الف» في الاصل

(١٧٤) Roger صاحب انطاكية كانون الاول ١١١٢ ــ حزيران ١١١٩

وقدّر الله تعالى ان خلص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفرطاب. فان الامراء اقتسموهم وابقوهم معهم ليستروا انفسهم الا ما كان من امير الجيوش فانه تقدّم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل [ان] يتوجّه الى حلب. وافترق العسكر – من سلم منهم من دانيث – وتوجّهوا الى بلادهم. فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفرطاب كان سبب اخذها

نُمير يستولي على مغارة للافرنج

ومن ذلك: كان في خدمتي رجل يقال له نُمير العلّارُوزي، راجل شجاع ايّد، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الرُّوج الى الافرنج. فعثروا في البلد على قافلة من الافرنج في مغارة. فقال بعضهم لبعض «من يدخل عليهم؟» قال نُمير «انا». فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكّينه ودخل [٢٤ ق] عليهم. فاستقبله رجل منهم. فضربه بالسكّين رماه وبرك عليه يقتله، وخلفه افرنجيّ معه سيف فضربه، وعلى ظهر نُمير مزود فيه خبز، فهو يردّ عنه. فلمّا قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريده. فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخدّه وانفه وشفته العليا. فتدلّى جانب وجهه على صدره. فخرج من المغارة الى اصحابه فشدّوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة. فوصل شيزر وهو على تلك الحالة. فخيّط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ما كان عليه. الا ان عينه تلفت. وهو احد الثلاثة الذين رماهم(١٧٥) الاسماعيليّة من حصن شيزر وقد تقدّم ذكرهم(١٧٦)

(١٧٥) «رموهم» في الاصل

(١٧٦) في الجزء الاول المخروم من المخطوطة – على ما يظهر. ولقد اشار ابو الفدا وابن الاثير الى هذه الحملة الاسماعيلية على شيزر بتاريخ يقابل نيسان سنة ١١٠٩ في *Recueil* ١ : ١٠ و٢٧٢ وسبط ابن الجوزي بتاريخ يقابل نيسان سنة ١١١٤ في *Recueil* ٣ : ٥٤٨

واحد يهزم قوماً في رفنيّة

وحدّثني الرئيس سهري(١٧٧)، وكان في خدمة الامير شمس الخواصّ آلتوتاش(١٧٨) صاحب رفَنيّة وكان بينه وبين علم الدين عليّ كرد صاحب حماة عداوة وخلف، قال «امرني شمس الخواصّ ان اخرج اقدّر بلد رفَنيّة وابصر زرعه. فخرجت ومعي قوم من الجند قدّرت البلد. ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رفَنيّة لها برج صعدنا الى سطحه تعشّينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج. فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شراريف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكّينة فانهزمنا ونزلنا في السلّم الاوّل وهو خلفنا، ونزلنا في السلّم الثاني، وهو خلفنا، حتى وصلنا الباب. فخرجنا واذا قد رتّب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعنا واوثقونا رباطاً ودخلوا بنا الى حماة الى عليّ كرد فما سلمنا من ضرب الرقبة الا بفسحة الأجل. فحُبسنا وغُرِّمنا. وكان الذي فعل بنا ذلك كلّه رجل واحد»

ابن المرجيّ يستولي على حصن

ومثل ذلك جرى في حصن الخربة(١٧٩) كانت لصلاح الدين محمّد ابن ايّوب الغسيانيّ، رحمه الله، وفيها الحاجب عيسى واليها. وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يُطلَع اليه بسلّم خشب ثم يرفع السلّم فلا يبقى اليها طريق. وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلامه وبوّاب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرْجيّ(١٨٠) يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في اشغاله. فتحدّث مع الاسماعيليّة وقرّر له

(١٧٧) «سهرى» في الاصل. والرئيس هنا رئيس المقدّر بن
(١٧٨) «البوساس» في الاصل
(١٧٩) «الحربه» في الاصل. Dussaud ص١٤٥ حاشية٦ يحسب هذا الحصن هو «الخَرِبْبة» الذي تقدّم ذكره ص٤٨ س٤. ومن اسمائه «الحصن الشرفي» Dussaud ص١٤٦
(١٨٠) «المرحى» في الاصل

معهم قراراً ارضاه من مال واقطاع ويسلّم اليهم حصن الخربة. ثم جاء الى الحصن فاستأذن وطلع. فبدأ بالبوّاب قتله، ولقيه الغلام فقتله، ودخل على الوالي قتله، وعاد الى ابن الوالي قتله. وسلّمه الى [٢٥ و] الاسماعيليّة. وقاموا له بما كانوا قرّروه له

والرجال اذا قوّوا نفوسهم على شيء فعلوه

مروءة مكارٍ نصراني

ومن ذالك تفاضل الرجال في هممهم ونخواتهم. وكان الوالد، رحمه الله، يقول لي «كلُّ جيّد من سائر الاجناس من الرديء من جنسه ما يكون بقيمته. مثل حصان جيّد يسوى مائة دينار، خمس حصن رديئة تسوى مائة دينار. وكذلك الجمال. وكذلك انواع الملبوس. الا ابن آدم فان الف رجل ارديا لا يساوون رجلاً واحداً جيّداً». وصدق، رحمه الله

كنت(١٨١) قد نفّذت مملوكاً لي في شغل مهمّ الى دمشق واتّفق ان اتابك زنكي، رحمه الله، اخذ حماة ونزل على حمص. فاستدّت الطريق على صاحبي. فتوجّه الى بعلبك ومنها الى طرابلس واكترى بغل رجل نصرانيّ يقال له يونان(١٨٢). فحمله الى حيث اكتراه وودّعه. ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصّل الى شيزر من حصون(١٨٣) الجبل. فلقيهم انسان فقال لارباب الدوابّ «لا تمضوا. فان في طريقكم في الموضع الفلانيّ عقد حراميّة في ستين سبعين رجلاً يأخذونكم». قال «فوقفنا لا ندري ما نعمل ما تطيب نفوسنا بالرجوع ولا نجسر على المسير من الخوف. فنحن كذلك اذا الريّس يونان قد اقبل مسرعاً. فقلنا «ما لك ياريّس؟» قال «سمعت ان في طريقكم حراميّة جئت لأسيّركم. سيروا». فسرنا معه الى ذلك الموضع. واذا قد نزل من الجبل خلقٌ عظيم من

(١٨١) سنة ١١٢٩ او ١١٣٠

(١٨٢) «يوبان» في الاصل

(١٨٣) «حصون» في الاصل. ولعلها «حُصُون»

الحراميّة يريدون اخذنا. فلقيهم يونان وقال «يافتيان، موضعكم! انا يونان، وهاؤلاء في خفارتي. والله ما فيكم من بتقرّب منهم؟» فردّهم والله جميعهم عنّا وما اكلوا من عندنا رغيف خبز. ومشى معنا يونان حتى امنّا، ثم ودّعنا وانصرف»

وفاء بدوي

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة(١٨٤) قال حدّثني ابن والي الطور(١٨٥) (وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله، رحمه الله، اذا اراد ابعاد بعض الامراء ولاه الطور. وهو قريب من بلاد الافرنج) قال «وليها والدي وخرجت انا معه الى الولاية وكنت مُغرىً بالصيد. فخرجت اتصيّد. فوقع بي قوم من الافرنج فاخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جبّ وحدي. وقطع عليّ صاحب بيت جبريل الفي دينار. فبقيت في الجبّ سنة لا يسأل(١٨٦) عنّي احد. فانا في بعض الايّام في الجبّ واذا قد رُفع عنه الغطاء [٢٥ ق] ودُلّي اليّ رجل بدويّ. فقلت «من اين اخذوك؟» قال «من الطريق». فاقام عندي يُوَيمات وقطعوا عليه خمسين دينارًا. فقال لي يوماً من الايّام «تريد تعلم انمايخلّصك من هذا الجبّ الا انا؟ فخلّصني حتى اخلّصك». فقلت في نفسي «رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص». فما جاوبته. ثم بعد ايّام اعاد عليّ ذلك القول. فقلت في نفسي «والله لاسعينّ(١٨٧) في خلاصه لعلّ الله يخلّصني بثوابه». فصحت بالسجّان فقلت له «قل للصاحب اشتهي اتحدّث معك». فعاد واطلعني من الجبّ واحضرني عند الصاحب. فقلت له «لي في حبسك سنة ما سأل احد عنّي ولا يدري

(١٨٤) انتهت هذه السنة في ٣ تموز سنة ١١٤٤
(١٨٥) جبل سيناء
(١٨٦) «سل» في الاصل
(١٨٧) «لاسعن» في الاصل

انا حيّ او ميت. وقد حبست عندي هذا البدويّ وقطعت عليه خمسين دينارًا اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيّره الى ابي حتى يفكّني». قال «افعل». فرجعتُ عرّفت البدويّ وخرج ودّعني ومضى

فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له اثرًا ولا سمعت له خبرًا. فيئست منه. فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قدخرج عليّ من نقب في جانب الجبّ وقال «قم والله لي خمسة(١٨٨) اشهر احفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك». فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي واوصلني الى بيتي. فما ادري ممّ اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبُه من جانب الجبّ»

واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما اسهل اسبابه

أسامة يفتدي الاسرى

كنت اتردّد الى ملك الافرنج(١٨٩) في الصلح بينه وبين جمال الدين محمّد بن تاج الملوك(١٩٠)، رحمه الله، ليد كانت للوالد، رحمه الله، على بغدوين(١٩١) الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك. فكان الافرنج يسوقون اساراهم اليّ لاشتريهم. فكنت اشتري منهم من سهّل الله تعالى خلاصه. فخرج شيطان منهم يقال له كليام جيبا [؟](١٩٢) في موكب له يغزي فأخذ مركبًا فيه حجّاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال ونساء. فكان يجيء اقوام مع مالكهم فاشتري منهم من قدرت على شراه. وفيهم رجل شابّ يسلّم ويقعد لا يتكلّم. فسألت عنه فقيل

(١٨٨) قابلها مع «شهرين» اعلاه. الظاهر ان تقويم البدوي غير مضبوط

(١٨٩) فُلْك الخامس ملك اورشليم. Fulk of Anjou

(١٩٠) تاج الملوك بُوري بن طُغْتكين امير دمشق (٢٤ حزيران ١١٣٩ — ٢٩ آذار ١١٤٠). وهو اخو شهاب الدين محمود

(١٩١) Baldwin الثاني ملك اورشليم والد Mélisende التي تزوجت Fulk الخامس سنة ١١٢٩

(١٩٢) «كليام حسا» في الاصل. «كليام» — William

لي هو رجل زاهد صاحبه دبّاغ. فقلت له «بكم تبيعني هذا؟» قال «وحق ديني مـا ابيعه الا هو وهـذا الشيخ جملة كمـا اشتريتهمـا بثلاثة واربعين دينار‍ًا». فاشتريتهمـا واشتريت لـي منهم نفر‍ًا. واشتريت للامير معين الدين(١٩٣)، رحمه الله، منهم نفر‍ًا بمائـة وعشرين دينـار‍ًا ووزنت [٢٦ و] ما كان معي وضمنت عليّ بالباقي

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين، رحمه الله، «قد اشتريت لك اسارى اختصّك بهم. ومـا كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت الـى بيتي. ان اردتهم وزنتَ ثمنهم، والا وزنته انا». قال «لا بل انـا ازن، والله، ثمنهم وانـا ارغب الناس فـي ثوابهم». وكـان، رحمه الله، اسرع الناس الى فعل خير وكسب مثوبة. ووزن ثمنهم. وعدت بعد ايّام الـى عكّا

وقد بقي من الأسرى عند كليام جيبا(١٩٤) ثمانية وثلاثون اسير‍ًا، وفيهم امرأة لبعض الذين خلّصهم الله تعالى على يدي. فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها. فركبت الى داره، لعنه الله، وقلت «تبيعني منهم عشرة؟» قال «وحق ديني ما ابيع الا الجميع». قلت «ما معي ثمن الجميع. وانـا اشتري بعضهم. والنوبـة الاخرى اشتري البـاقـي». قال «مـا ابيعك الا الجميع». فانصرفت وقدّر الله سبحانه انهم هربوا في تلك الليلة جميعهم. وسكّـان ضياع عكّـا كلّهم مـن المسلمين اذا وصل اليهـم الاسير اخفوه واوصلوه الى بلاد الاسلام

وتطلّبهم ذلك الملعون فمـا ظفر منهم باحد. واحسن الله سبحانه خلاصهم. واصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنتُ ثمنها وقد هربتْ في مـن هرب. فقلتُ «سلّمها اليّ وخذ ثمنها». قال «ثمنها لي من امس قبل ان تهرب». والزمني بوزن ثمنها. فوزنته وهان ذلك عليّ لمسرّتي بخلاص اولئك المساكين

(١٩٣) انر

(١٩٤) كذا في الاصل

عجائب السلامة: في آمـد

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن سُقمان بن أُرتُق(١٩٥)، رحمه الله، عمل على مدينة آمـد(١٩٦) عدّة مرار، وانا فـي خدمته، ولا يبلغ منهـا مقصوده. وكان آخر ما عمل عليها(١٩٧) ان اميرًا من الاكراد كان مُدَيونًا بآمـد راسله ومعه جماعة مـن اصحابه وقرّر الامر ان يصله العساكر فـي ليلـة تواعدوا اليها و يطلعهم بالحبال و يملك آمد. فعوّل فخر الدين فـي ذلك المهمّ على خادم له افرنجيّ يقال له ياروق(١٩٨) والعسكر كلّه يمقته و يكرهه لسؤ اخلاقـه. فركب فـي بعض العسكر وتقدّم. وركب باقي الامراء فتبعوه. وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء الى آمـد. فاشرف عليهم ذلك الامير الكردي واصحابه من برج ودلّوا اليهم الحبال وقالوا «اطلعوا» ــ ما طلع منهم احد. فنزلوا كسروا اقفال [٢٦ ق] بـاب المدينة وقالوا «ادخلوا» ــ ما دخلوا. كلُّ ذلك لاعتماد فخر الدين على صبيّ جاهل في هذا المهمّ العظيم دون الامراء الكبار

وعلم بذلك الامير كمـال الدين عليّ بـن نيسان(١٩٩) والبلدية والجند. ففرغوا اليهم. فقتلوا بعضهم، ورمـى بعضهم نفسه، وقبضوا بعضهم. ومدّ بعض الذين رموا نفوسهم، وهو نازل في الهواء، يده كأنّه يريد شيئًا يتمسّك به. فوقع فـي يده حبل مـن تلك الحبال التي دلّوها اوّل الليل وما طلعوا فيها فتعلّق بـه ونجا دون اصحابه. الا ان كفّيه انسلختا(٢٠٠) من الحبل. هذا وانا حاضر

(١٩٥) صاحب حصن كيفا في ديار بكر

(١٩٦) عاصمة مقاطعة ديار بكر. اما اليوم فديار بكر يطلق على المدينة آمد

(١٩٧) قابل أباشامة ٢: ٤٠

(١٩٨) «ناروق» في الاصل

(١٩٩) «سسان» في الاصل. وهو وزير صاحب آمد

(٢٠٠) «انسلخا» في الاصل

واصبح صاحب آمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم· وسلم ذلك من دونهم· فسبحان من اذا قدّر السلامة انقذ الانسان من لهاة الاسد فذلك حقّ لا مثل

الانقاذ من لهاة الاسد

كان في حصن الجسر(٢٠١) رجل من اصحابنا من بني كنانة يُعرف بابن الاحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفرطاب لشغل له· فاجتاز بكفر نبوذا(٢٠٢) وقافلة عابرة على الطريق· فرأوا الاسد ومع ابن الاحمر حربة تلمع· فصاح اليه اهل القافلة «ياصاحب الخشب البرّاق! دونك الاسد!» فحمله الحياء من صياحهم ان حمل على الاسد فحاصت به الفرس، فوقع· وجاء فبرك عليه· وكان لما يريد الله من سلامته، الاسد شبعان· فالتقم وجهه وجبهته· فجرح(٢٠٣) وجهه وصار يلحس الدم، وهو بارك عليه لا يؤذيه· قال «ففتحت عيني فابصرت لهاة الاسد· ثم جذبت نفسي من تحته، ورفعت فخذه عنّي، وخرجت تعلّقت بشجرة بالقرب منه، وصعدت فيها· فرآني وجاء خلفي· فسبقت وطلعت في الشجرة· فنام الاسد تحت الشجرة وعلاني من الذرّ شيء عظيم على تلك الجراح (والذّر يطلب جريح الاسد كما يطلب الفأر جريح النمر)· (قال) فرأيت الاسد قد قعد وانصب آذانه كأنه يتسمّع· ثم قام يهرول· فاذا قافلة قد اقبلت على الطريق، كأنه سمع حسّها»· فعرفوه وحملوه الى بيته· وكان اثر انياب السبع في جبهته وخدّيه كوسم النار فسبحان المسلّم

(٢٠١) الحصن القائم على جسر شيزر· والجسر هو المُوصل الوحيد بين شيزر وضفة العاصي اليمنى· ولقد ذكره مؤرخو الافرنج باسم Gistrum

(٢٠٢) «كَفَرْنَبُو» في ياقوت ٤:٢٩١· «كفرنبودي» اليوم Dussaud ص١٨٦ حاشية ٧

(٢٠٣) «فجرح» في الاصل «فخرج» طبعة درنبورغ ص٦٣

العقل والقتال

قلت: تفاوضنا يوماً في ذكر القتال وموءدّبي الشيخ العالم ابو عبد الله محمّد بن يوسف المعروف بابن المُنيرة(٢٠٤)، رحمه الله، يسمع. فقلت له «يااستاذ، لو ركبتَ حصاناً ولبست كزاغندا وخوذة وتقلّدت سيفاً وحملت رمحاً وترساً ووقفت عند مشهد(٢٠٥) . [٢٧ و] العاصي (موضع ضيّق كان الافرنج، لعنهم الله، يجتازون به) ما كان يجوزك احد منهم». قال «بلى والله، كلّهم». قلت «كانوا يهابونك، ولا يعرفونك». قال «سبحان الله! فانا ما اعرف نفسي!» ثم قال لي «يافلان، ما يقاتل عاقل». قلت «يااستاذ، تحكم على فلان وفلان (وعددتُ له رجالاً من اصحابنا من شجعان الفرسان) انهم مجانين!» قال «ما ذا قصدت. انما قصدي ان العقل لا يحضر وقت القتال .ولو حضر ما كان الانسان يلقى بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام. ما هذا شيء يقضي به العقل»

وكان، رحمه الله، بالعلم اخبر ممّا هو بالحرب. فان العقل هو الذي يحمل على الاِقدام على السيوف والرماح والسهام انفة من موقف الجبان وسوء الاحدوثة. ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمع والرعدة وتغيُّر اللون قبل دخوله في الحرب لـما يفكّر(٢٠٦) فيه وتحدّث به نفسه مما يريد يعمله ويباشره من الخطَر. والنفس ترتاع لذلك وتكرهه. فاذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغيُّر اللون. وكلُّ امر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأُ والزلل

الذهول وعواقبه

ومن ذلك ان الفرنج(٢٠٧) نزلوا مرّة على حماة في ازوارها،

(٢٠٤) وُلد في كفرطاب وتوفي عام ١١٠٩. ذكره حاجي خلفة «كشف الظنون» (ليبزغ ١٨٣٥ – ٥٨) ٢:٢٢ و٤:٢٣١ و٦:٣٧٨

(٢٠٥) مخاضة

(٢٠٦) «لمّا تفكّر» طبعة درنبورغ ص٦٤

(٢٠٧) من طرابلس وذلك سنة ١١١٧. ابن الاثير في *Recueil* ١:٣٠٩

وفيها زرع مخصب، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع. وخرج من شيزر جماعة من الحراميّة يدورون بعسكر الافرنج يسرقون منه، فرأوا الخيام في الزرع. فاصبح بعضهم حضر صاحب حماة(٢٠٨) وقال «الليلة احرق عسكر الافرنج كلّه». قال «ان فعلتَ خلعتُ عليك». فلمّا امسى خرج ومعه نفر على رأيه طرحوا النار غربيّ الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم. فصار الليل بضوء النار كالنهار. فرآهم الافرنج فقصدوهم فقتلوا اكثرهم. وما نجا منهم الا من رمى نفسه في الماء وسبح الى الجانب الآخر. فهذه اثار الجهل وعواقبه

ورأيت مثل ذلك، وان لم يكن في الحرب، وقد عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير، ومعه البطرك(٢٠٩)، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلّون فيها يتولّى خدمتها شيخ شمّاس منهم وقد فرش ارضها بالحلفاء والحشيش. فكثرت البراغيث فوقع لذلك الشمّاس ان يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث. فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت السنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً. فهذا لم يحضره العقل

حاضر الذهن تحت الاسد

وضدّه اننا ركبنا في بعض الايّام من شيزر الى الصيد [٢٧ ق] وعمّي، رحمه الله، معنا وجماعة من العسكر. فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدرّاج. فحمل عليه رجل من الجند كرديّ يقال له زهر الدولة بختيار القُبرصيّ(٢١٠) سُمّي بذلك للطف خلقته. وكان، رحمه الله، من فرسان المسلمين. فاستقبله السبع فحاص به الحصان، فرماه. وجاءه السبع وهو ملقىً. فرفع رجله، فتلقّمها السبع. وبادرناه فقتلنا السبع

(٢٠٨) شهاب الدين محمود بن قَراجا

(٢٠٩) بطريرك اورشليم واسمه وليم William . راجع R. Röhricht, *Geschichte des Königreichs Jerusalem* (انزبروك ١٨٩٨) ٢٢١

(٢١٠) «القَرصي» طبعة درنبورغ ص٦٤. والباء منقّطة في الاصل

واستخلصناه وهو سالم. فقلنا له «يازهر الدولة، لمَ رفعت رجلك الى فم السبع؟» قال «جسمي كما ترونه ضعيف نحيف. وعليّ ثوب وغلالة. وما فيّ اكسى(٢١١) من رجلي فيها الرانات والخف والساق موزّا. فقلت «اشغلُه بها عن اضلاعي او يدي او راسي الى ان يفرّج الله تعالى». فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول واولئك ما حضرهم العقل. فالانسان احوج الى العقل من كلّ ما سواه. وهو محمود عند العاقل والجاهل

عم اُسامة وحسن ادارته

ومن ذلك ان روجار(٢١٢) صاحب انطاكية كتب الى عمّي يقول «قد نفّذتُ فارساً من فرساني في شغل مهمّ الى القدس. اسأل(٢١٣) ان تنفّذ خيلك تأخذه من افامية ويوصلونه الى رفَنيّة». فركب وارسل اليه من احضره. فلمّا لقيه قال «قد نفّذني صاحبي في شغل وسرٍ له. لكنّي رأيتك رجلاً عاقلاً. فانا احدّثك به». فقال له عمّي «من اين عرفت اني عاقل وما رأيتني قبل الساعة؟» قال «لاني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر. فعرفت انك ما عمّرته الا بعقلك وسياستك». وحدّثه ما جاء فيه

تعقُّل صاحب ديار بكر

وحدّثني الامير فضل بن ابي الهيجاء صاحب اربل(٢١٤) قال «حدّثني ابو الهيجاء قال ‹بعثني السلطان ملكشاه(٢١٥) لمّا وصل الى الشام الى الامير ابن مروان صاحب ديار بكر يقول: اريد ثلاثين الف دينار. فاجتمعت

(٢١١) «اكسا» في الاصل

(٢١٢) Roger

(٢١٣) «اسل» في الاصل

(٢١٤) جنوبي الموصل. ولعد ذكر ابن خلّكان «تاريخ» ١:١١٠ زيارة أسامة لهذه المدينه. راجع ياقوت ١:١٨٦ – ٨٩

(٢١٥) ابن آلب ارسلان السلجوقي وخلفه في امارة اصبهان

بـه واعدت عليه الرسالة. فقال: تستريح وتتحدّث. واصبح امـر ان يدخلوني الحمّام ونفّذ آلة الحمّام جميعها فضّة ونفّذ لي بدلة ثياب. وقالوا لفرّاشي: كلّ آلة الحمّام لكم. فلمّا خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج. فتركني اياماً ثم امر لي بالحمّام وما انكر ردّ الحوائج. وحملوا معي آلة الحمّام افضل من الآلة الاوّلة وبدلة ثياب افضل مـن البدلة الاوّلة. وقال الفرّاش لفرّاشي كمـا قال اوّلا. فلمّا خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والثياب. فتركني ثلاثة اربعة ايّام ثم عاد ادخلني الـى [٢٨ و] الحمّام وحملوا معي آلات فضّة افضل مـن الاوّلة وبدلة ثياب افضل من الاوّلة. فلمّا خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع. فلمّا حضرتُ عند الامير قال لي: ياولدي، نفّذتُ اليك ثياباً ما لبستها، وآلة الحمّام ما قبلتها، ورددتها. ايّ شيء سبب هـذا؟ قلت: يامولاي، جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضى. اقبل ما تفضّلت به وارجع وما انقضى شغل السلطان فكأنّي ما جئت الا فـي حاجتي؟ قال: ياولدي، مـا رأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينهـا وكثرة فلّاحيهـا وعمارة ضياعهـا؟ أتُراني كنت اتلف هذا كلّه من اجل ثلاثين الف دينار؟ والله ان الذهب قد كيّسته من يوم وصولك. وانما انتظرت ان يتجاوز السلطان بلادي وتلحقه بالمال خوفاً من ان استقبله بالذي طلب فيطلب منّي اذا دنا من بلادي اضعافه. فلا تشغل قلبك. فشغلك قد انقضى. ثم نفّذ لي الثلاث بدلات، التي كان نفّذها لي ورددتها، مع جميع حوائج الحمّام التي نفّذها لي في الثلاث دخلات، فقبلتها. ولمّا تجاوز السلطان ديار بكر اعطاني المال فحملته ولحقتُ به السلطان.»

حسن سياسة صاحب بدليس

وفـي حسن السياسة ربـح كثير مـن عمارة البلاد. فمـن ذلك ان اتابـك زنكي، رحمه الله، خطب بنت صاحب خلاط(٢١٦) وقـد مـات

(٢١٦) قاعدة ارمينية. وذلك سنة ١١٣٤

ابوها(٢١٧) وامُّهامدبّرة البلد. ونفّذ حسام الدولة بن دِلماج(٢١٨) خطبها لابنه، وهو صاحب بَدْليس(٢١٩). فسار اتابك بعسكر حسن الى خلاط على غير الطريق المسلوك لاجل درب(٢٢٠) بَدْليس. فسلك فيها الجبال. فكنّا ننزل بغير خيام، وكلٌّ واحد في موضعه من الطريق، حتى وصلنا خلاط. فخيّم اتابك عليها ودخلنا قلعتها وكتبنا المهر

فلما انقضى الشغل(٢٢١) امر اتابك ان يأخذ صلاح الدين(٢٢٢) معظم العسكر ويسري الى بَدليس يقاتلها(٢٢٣). فركبنا اوّل الليل وسرنا واصبحنا على بَدليس. فخرج الينا حسام الدولة صاحبها. فلقينا على فسحة من البلد، وانزل صلاح الدين في الميدان، وحمل اليه الضيافة الحسنة. وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال «يامولاي، اي شيء ترسم؟ فقد تعنيت(٢٢٤) وتعبت في مجيئك». قال «اتابك احتقه خطبتك للبنت التي كان خطبها. وانت بذلت لهم عشرة الف دينار تريدها منك». قال «السمع والطاعة». فعجّل له بعض المال واستمهله بباقيه ايّاماً عيّنها. ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر ما دخل عليه خلل

وصاحب قلعة جعبر

[٢٨ ق] وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك(٢٢٥) بن سالم

(٢١٧) سكمان او سُقمان القطبي مؤسس دولة أرمين شاه توفي سنة ٥٠٦ (١١١٢ ـ ١٣). ابو الفدا «تاريخ» (الاستانة ١٢٨٦) ٢: ٢٣٧

(٢١٨) ولعله طُغان أرسلان بن آلكين. ابن الاثير ١٠: ٣٨٩ و٤٣٦ وفي *Recueil* ١: ٣٢٥ و ٣٥٤

(٢١٩) وبالتركية «بِدْليس» أو «بِتْليس» قاعدة كردستان

(٢٢٠) وفوقها في الاصل «دربند» وهي فارسية بمعنى درب

(٢٢١) قابل كمال الدين في *Recueil* ٣: ٦٦٦ ـ ٦٧

(٢٢٢) ابن ايوب الغسياني

(٢٢٣) «بعا تلها» في الاصل. «يعاملها» طبعة درنبورغ ص٦٦

(٢٢٤) «بعبب» في الاصل. «تعيبت» طبعة درنبورغ ص٦٧

(٢٢٥) «ملك» في الاصل هنا وفيما يلي. وهو صاحب قلعة جعبر على الفرات بقرب الرقّة

رحمه الله. وذلك ان جوسلين(٢٢٦) اغار(٢٢٧) على الرقّة والقلعة فأخذ كلّ ما عليها وسبى وساق غنائم(٢٢٨) كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات. فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة اربعة من غلمانه وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة، ولمالك عليه جميل. وظنّ جوسلين ان في الزورق رسولاً من مالك. فجاءه واحد من الافرنج وقال «هذا مالك في الزورق». قال «ما هو صحيح». فاتاه آخر قال «قد نزل مالك(٢٢٩) من الزورق وهو جاءني يمشي». فقام جوسلين والتقاه واكرمه وردّ عليه جميع ما كان اخذه من الغنائم والسبي. ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده

شدّة ابن سرايا لا تنفعه

اذا انقضت المدّة لم تنفع الشجاعة ولا الشدّة

شاهدتُ يوماً وقد زحف الينا عسكر الافرنج(٢٣٠) يقاتلنا. ومضى بعضهم مع طُغدكين(٢٣١) اتابك الى حصن الجسر يقاتله. وكان اتابك اجتمع هو وإيلغازي(٢٣٢) بن أُرتُق والافرنج في افامية لمحاربة عساكر السلطان(٢٣٣). وكان وصل بها الى الشأم إسباسلار بُرسق ابن بُرسُق وقد نزل حماه يوم الاحد تاسع عشر محرّم سنة تسع وخمس

(٢٢٦) Joscelin الاول صاحب تلّ باشر

(٢٢٧) «غار» في الاصل

(٢٢٨) «غنايماً» في الاصل

(٢٢٩) كذا في الاصل

(٢٣٠) اشترك في هذه الزحفة بالدوين الاول ملك اورشليم وروجار (Roger) صاحب انطاكية وبنتيوس (Pontius) صاحب طرابلس

(٢٣١) وفي الغالب «طُغْتكين» تركية معناها «الباز المقاتل». وهو وزير دُقاق ونلقب فيما بعد «سيف الدولة». ومؤرخو الافرنج يسمونه Doldequin

(٢٣٢) «والغازي» في الاصل هنا وفيما يلي. فكأن الناسخ حسب المقطع الاول اداة التعريف

(٢٣٣) محمدشاه سلطان اصبهان

مائة(٢٣٤)٠ فامّا نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة٠ فاسظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم٠ فساهدت رجلاً من اصحابنا يقال له محمّد ابن سرايا(٢٣٥)، وهو شاب شديد ابّد، قد حمل عليه فارس من الافرنج، لعنه الله، فطعنه في فخذه فنفّذ القنطاريّة فيها٠ فمسكها محمّد وهي في فخذه، وجعل الافرنجيّ يجذبها ليأخذها ومحمّد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قوّرت فخذه٠ واستلب القنطاريّة بعد ان اتلف فخذه٠ ومات بعد يومين، رحمه الله

اُسامة ينقذ ابن عمه

ورأيت في ذلك اليوم، وانا في جانب الناس في القتال، فارساً قد حمل على فارس منّا طعن حصانه قتله، وصاحبنا راجل في الارض ولا ادري من هو لبعد ما بيننا٠ فدفعت حصاني اليه خوفاً عليه من الافرنجيّ الذي طعنه، وقد بقيت(٢٣٦) القنطاريّة في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه، والافرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبله٠ فلمّا وصلته وجدته ابن عمّي ناصر الدولة كامل بن مقلّد، رحمه الله٠ فوقفت عليه واخليت [٢٩ و] له ركابي وقلت «اركب»٠ فلمّا ركب رددت رأس حصاني الى المغرب، والمدينة من شرقيّنا٠ قال لي «الى اين تروح؟» قلت «الى هذا الذي طعن حصانك، فهو فرصة»٠ فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال «ما تطاعن وعلى حصانك لابسان٠ اذا اوصلتني ارجع طاعنه»٠ فمضيت اوصلته وعدت الى ذلك الكلب وقد دخل في اصحابه

زاهد تنقذه العناية

وشاهدتُ من لطف الله تعالى وحسن دفاعه ان الافرنج، لعنهم الله،

(٢٣٤) ١٤ حزيران سنة ١١١٥

(٢٣٥) «سراىا» في الاصل

(٢٣٦) «ىعىں» في الاصل٠ «نعت» طبعة درنبورغ ص٦٨

نزلوا(٢٣٧) علينا بالفارس والراجل٠ و بيننا و بينهم العاصي وهـو زائد زيـادة عظيمة لا يمكنهم ان يجوزوا الينـا ولا نقدر نحن نجوز اليهم٠ فنزلوا على الجبل بخيامهم٠ ونزل منهم قوم الى البساتين، وهي مـن جانبهم، هملوا خيلهم في القصيل وناموا٠ فتجرّد شباب من رجّالة شيزر وخلعوا ثيابهم واخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام٠ فقتلوا بعضهم٠ وتكاثروا على اصحابنا٠ فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل، ومن جانبهم مسجد يُعرف بمسجد ابي المجد بـن سُميَّة (٢٣٨) فيه رجل يقال لـه حسن الزاهد، وهو واقف على سطح يتوّب(٢٣٩) في المسجد يصلّي وعليه ثياب سود صوف ــ ونحن نراه وما لنا اليه سبيل٠ وقد جاء الافرنج فنزلوا على باب المسجد، وصعدوا اليه ونحن نقول «لا حول ولا قـوّة الا بالله! الساعـة يقتلونه»٠ فلا والله(٢٤٠) ما قطع صلاته ولا زال من مكانه٠ وعاد الافرنج نزلوا ركبوا خيلهم وانصرفوا، وهـو واقف مكانـه يصلّي٠ ولا نشكّ ان الله سبحانه اعماهم عنه وستَرَه عن ابصارهم٠ فسبحان القادر الرحيم

غريب يفك اسيراً

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لمّا نزل على شيزر في سنة اثنتين وثلثين وخمس مائة(٢٤١) خرج مـن شيزر جماعة من الرجّالة للقتال٠ فاقتطعهم(٢٤٢) الروم فقتلوا بعضـاً واسروا بعضاً٠ فكان في جملة مـن اسروا زاهد من بني كردوس مـن الصالحيّة مـن مولّدي محمود بن

(٢٣٧) في الزحفة نفسها سنة ١١١٥

(٢٣٨) «ابى المحد بن سمىه» في الاصل

(٢٣٩) «سوب» في الاصل٠ «بنوب» طبعة درنبورغ ص٦٩٠ «تنوّر» لاندبرغ ص٢٩٠ توّب تعني صلّى ما هو زائد عن الفريضة

(٢٤٠) «واله» في الاصل

(٢٤١) سنة ١١٣٨٠ وملك الروم هو حان الثاني كومنينوس (١١١٨ ــ ٤٣)

(٢٤٢) «فاصطعوهم» في الاصل

صالح(٢٤٣) صاحب حلب. فلمَّا عاد الروم كان معهم مأسوراً. فوصل القسطنطينية. فهو في بعض الايَّام فيها اذ لقيه انسان فقال «انت ابن كردوس؟» قال «نعم». قال «سر معي اوقفني على صاحبك». فسار معه حتى اراه صاحبه. فقاوله على ثمنه حتى تقرّر بينه وبين الرومي مبلغ ارضاه [٢٩ ق] فوزن لـه الثمن واعطى ابن كردوس نفقة وقال «تبلغ بها الى اهلك، وامض (٢٤٤) في دعة الله تعالى». فخرج من القسطنطينية وتوصَّل الى ان عاد الى شيزر، وذلك من فرج الله تعالى وخفيّ لطفه، ولا يدري من الذي شراه واطلقه

ملاك يغيث اُسامة

وقد جري لي ما يشبه ذلك لمَّا خرج علينا الافرنج في طريق مصر وقتلوا عبَّاس بن ابي الفتوح وابنه نصراً(٢٤٥) الكبير. انهزمنا نحن الى جبل قريب منَّا. فصعد الناس فيه رجَّالة يمشون يجرُّون خيلهم وانا على اكديش ولا استطيع المشي. فصعدت وانا راكب وسفوحُ ذلك الجبل كلُّها نقارة وحصى كلَّما وطئه الفرس انهرّ تحت قوائمه. فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع، ونزل والحصى والنقارة تنزل به. فترجَّلتُ عنه واقمته ووقفت لا اقدر على المشي. فنزل اليّ رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذَوني في يدي الاخرى حتى اطلعني. ولا، والله، ما ادري من هو ولا عدتُ رأيته

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يُمتنُ فيه بيسير الاحسان ويُطلَب المكافاةُ عنه. ولقد شربتُ من بعض الاتراك شربة ماء اعطينه عنها دينارين، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ويتوصَّل بي الى

(٢٤٣) تاج الملوك محمود بن ناصر بن صالح المرداسي (١٠٦٠ ـ ٧٤)

(٢٤٤) «وامضى» في الاصل. وفوقها شحطة صغيرة ربما كان المراد منها شطب الكلمة باسرها

(٢٤٥) «نصر» في الاصل

اغراضه لاجل تلك الشربة التي سقانيها. وما كان ذلك الذي اعانني الا مَلَكاً رحمني الله تعالى فاغاثني(٢٤٦) به

النبي يقلع قيد سجين

ومن لطف الله تعالى ما حدّثني به عبد الله المشرف قال «حُبست بحَيْزان(٢٤٧) وقُيِّدت وضُيِّق عليّ. فانا في الحبس والموكّلون على بابه فرأيت النبي، صلّى الله عليه وسلّم، في النوم فقال «اقلع القيد واخرج». فانتبهت جذبت القيد، فخرج من رجلي. وقمت الى الباب اريد افتحه، فوجدته مفتوحاً. فتخطّيتُ الرجالَ الموكّلين الى منفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه. فخرجت منه، ووقعت على مزبلة. فبقي فيها اثار وقوعي واثار رجلي. ونزلت في وادٍ (٢٤٨) حول السور ودخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وانا اقول في نفسي «الساعة يخرجون يرون اثري ويأخذوني». فارسل الله سبحانه ثلجاً غطّى(٢٤٩) ذلك الاثر. وخرجوا [٣٠ و] يطوفون عليّ، وانا اراهم نهارهم ذلك. فلمّا امسيتُ وامنتُ الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت الى مأمني».

كان هذا الرجل مشرفاً على مطبخ صلاح الدين محمّد بن ايّوب الغسياني، رحمه الله

فقيه وزاهد يقاتلان للجنّة

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يقاتلون للجنّة لا لرغبة ولا لسمعة

ومن ذلك ان ملك الامان(٢٥٠) الافرنجي، لعنه الله، لمّا وصل الشأم

(٢٤٦) هكذا على هامش المخطوطة. «فاعاننى» في الاصل

(٢٤٧) في ارمينية قرب شِروان. ياقوت ٢: ٣٨٠

(٢٤٨) «وادى» في الاصل

(٢٤٩) «عطاء» في الاصل

(٢٥٠) كنراد الثالث Conrad ملك الالمان

اجتمع اليه كلُّ من بالشأم من الافرنج. وقصد دمشق. فخرج عسكر دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفِندلاويّ والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحَلحُولي(٢٥١)، رحمهما الله. وكانا من خيار المسلمين. فلمَّا قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن «ما(٢٥٢) هاولاء الروم؟» قال «بلى». قال «فالى متى نحن وقوف؟» قال «سر على اسم الله تعالى». فتقدَّما قاتَلا حتى قُتلا، رحمهما الله، في مكان واحد

كردي يقاتل لجميل عليه

ومن الناس من يقاتل للوفاء. فمن ذلك ان رجلاً من الاكراد يقال له فارس، وكان كاسمه فارساً وايّ فارس. فحضر ابي وعمّي، رحمهما الله، وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلَف بن مُلاعب(٢٥٣) عمل عليهم فيها وغدر بهم، وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما جرى. وسبب ذلك انه راسلهم وقال «نمضي الى اسفونا(٢٥٤) وفيها الفرنج نأخذها». فسبقه اصحابنا اليها وترجّلوا وزحفوا الى الحصن نقبوه. وهم في القتال وابن مُلاعب وصل. فأخذ خيل من كان ترجّل من اصحابنا ووقع القتال بينهم، بعد ما كان للافرنج، واشتد بينهم القتال. فقاتل فارس الكرديّ قتالاً عظيماً وجُرح عدّة جراح. وما زال يقاتل ويُجرَح حتى أُثخن بالجراح. وانفصل القتال. فاجتاز به ابي وعمّي، رحمهما الله، وهو محمول بين الرجال فوقفا عليه وهنّآه(٢٥٥) بالسلامة. فقال «والله ما قاتلت أُريد السلامة. لكن لكم عليّ جميل وفضل كثير.

(٢٥١) ياقوت ٢: ٣١٦

(٢٥٢) «أماه» في ابي شامة ١: ٥٢. ويظهر ان ابا شامة نقل عن نسخة لأسامة اضبط من نسختنا هذه

(٢٥٣) صاحب افامية. ابن تغري بردي جلد٢ جزء٢ ص٢٨٦. وتاريخ هذه الوقعة ١١٠٩

(٢٥٤) غربي كفرطاب بجوار معرّة النعمان. E. Rey, *Les colonies franques de Syrie* (باريز ١٨٨٣) ٣٣٠

(٢٥٥) «وهنياه» في الاصل

وما رأيتكم في شدّة مثل هذا اليوم. فقلت «أقاتل بين ايديكم واجازيكم عن جميلكم وأُقتل قدّامكم».

وقضى الله سبحانه انه عُوفي من تلك الجراح ومضى الى جَبَلَة(٢٥٦)، وفيها فخر الملك بن عمّار(٢٥٧) وفي اللاذقية الافرنج. فخرجت خيل من جَبَلَة تريد الغارة على اللاذقية، وخرجت خيل من اللاذقية تريد الغارة على جَبَلَة. فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية. فطلع فارس من الافرنج [٣٠ ق] من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكرديّ من الجانب الآخر يكشف لاصحابه. فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كلٌّ واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين. وبقيت الحُصُن تتصاول على الرابية، والفارسان قتيلان

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علّان من الجند له الخيل الملاح والعدّة الحسنة. ولكن ما كان كابيه. فنزل علينا دنكري(٢٥٨) صاحب انطاكية يوماً وقاتلنا قبل ضرب الخيام. وهذا علّان بن فارس على حصان مليح باغز(٢٥٩) من احسن الخيل، وهو واقف على رفعة من الارض. فحمل عليه فارس من الافرنج، وهو كالغافل، فطعن حصانه في رقبته نفّذ القنطاريّة. فشب الحصان رمى علّان. وعاد الافرنجي، والحصان معارضه، والقنطاريّة في رقبته كأنه تجنّبه يتمختر(٢٦٠) بغنيمة حسنة

الصبور في الخيل

وعلى ذكر الخيل ففيها الصّبور كالرجال وفيها الخَوار. فمن ذلك انه كان في جندنا رجل كرديّ يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة

(٢٥٦) على شاطىء البحر قرب اللاذقية

(٢٥٧) فخر المُلْك ابو علي عمّار بن محمّد بن عمّار تولّى طرابلس سنة ١١٠٧

(٢٥٨) Tancred وذلك سنة ١١١٠

(٢٥٩) «باغز» في الاصل

(٢٦٠) «بمحر» في الاصل

والدين والخير، رحمه الله، وله حصان ادهم اصمّ مثل الجمل. فالتقى هو وفارس من الافرنج فطعن الافرنجيّ حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من اصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر. وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة، ولا فارسه. فكنت ارى ذلك الجرح الذي في فخذه بعد ما اندمل وختم وهو كاكبر ما يكون من الجراح، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال. فالتقى هو وفارس من الافرنج، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع. وسلم من تلك الطعنة الثانية. فكانت بعد ان اُختمت اذا اطبق الانسان كفّه وادخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح وسعها

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان ان اخي عزّ الدولة ابا الحسن عليًا(٢٦١)، رحمه الله، اشتراه من كامل المشطوب. وكان ثقيل العدو. فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفرطاب. فبقي عنده سنة ثم مات. فارسل الينا يطلب ثمنه. قلنا «اشتريته وركبته. ومات عندك. كيف تطلب ثمنه؟» قال «انتم سقيتموه شيئاً يموت منه بعد سنة». فعجبنا من جهله وسخافة عقله

وجُرح تحتي حصان على حمص شقّت الطعنة قلبه واصابه عدّة سهام. فاخرجني من المعركة ومنخراه يدميان [٣١ و] بالدم كالعزلتين. وما انكرت منه شيئاً. وبعد وصولي الى اصحابي مات

وجُرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قَراجا ثلاثة جراح. وانا اقاتل عليه ولا اعلم، والله انه قد جُرح، لاني ما انكرت منه شيئاً

الضعيفة منها

واما خَوَرها وضعفها على الجراح فان عسكر دمشق نزل على

(٢٦١) هكذا على الهامش. «علي» في الاصل

حماة(٢٦٢)، وهي لصلاح الدين محمَّد بن ايّوب الغسيانيّ ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طُغدكين، وانا بها. وزحفوا(٢٦٣) الينا في جمع كثير، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على تلّ مجاهد(٢٦٤). فجاءه الحاجب غازي التَّلّي فقال «قد انتشرت الرجّالة، والخوذ تتلامع بين الخيام. والساعة يحملون على الناس يُهلكونهم». فقال «امضِ ردّهم». فقال «والله ما يردّهم الا انت او فلان» يعنيني. فقال لي «تخرج تردّهم». فقلعت زرديّة كانت على غلام لي لبستها وخرجت رددت(٢٦٥) الناس بالدبوس، وتحتي حصان اشقر من اجود الخيل واتلعها. فلمَّا رددت الناس زحفوا الينا، وما برّا(٢٦٦) من سور حماة فارس غيري: منهم من دخل المدينة وايقنوا انهم مأخوذون(٢٦٧)، ومنهم من هو مترجّل في ركابي. فاذا حملوا علينا اخَّرتُ الحصان بعنانه وانا مستقبلهم، واذا عادوا مشيت خلفهم سترة(٢٦٨) لضيق المجال وازدحام الناس. فضربتْ حصاني نشّابة في ساقه خمشته. فوقع بي وقام، ووقع، وانا اضربه حتى قال لي الرجال الذين في ركابي «ادخل الى الباشورة اركب غيره». فقلت «والله ما انزل عنه». فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره

حصان يقاتل ومصارينه مندلعة

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب النُميري حضر القتال بين

---

(٢٦٢) سنة ١١٣٧ أو ١١٣٨

(٢٦٣) سنة ١١٣٥ او ١١٣٧ او ١١٣٨. قابل كمال الدين في *Recueil* ٣: ٦٧٠

(٢٦٤) «محاهد» في الاصل

(٢٦٥) «ردت» في الاصل

(٢٦٦) «برا» في الاصل

(٢٦٧) «موخودون» في الاصل

(٢٦٨) «سره» في الاصل. «سيرة» طبعة درنبورغ ص٧٣

بني نُمير، وقد قتلوا عليّ بن شمس الدولة سالم بن مالك(٢٦٩) والي الرقّة وملكوها· والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة· وتحت طراد بن وَهيب حصان له من اجود الخيل له قيمة كبيرة· فطُعن في خاصرته، فخرجت مصارينه· فشدّها طراد في السموط لا(٢٧٠) يدوسها فيقطعها، وقاتل حتى انقضى القتال· فدخل به الى الرقّة، فمات

أسامة على استعداد دائم للقتال

قلت اذكرني ذكر الخيل بامر جرى لي مع صلاح الدين محمّد بن ايّوب الغسيانيّ، رحمه الله· وذلك ان ملك الامراء اتابك زنكي، رحمه الله، نزل على دمشق في سنة ثلثين وخمس مائة(٢٧١) بارض داريّا(٢٧٢)· وقد راسله صاحب بعلبكّ جمال الدين محمّد بن [٣١ ق] بُوري بن طُغدَكين(٢٧٣)، رحمه الله، في الوصول اليه· وخرج من بعلبكّ متوجهاً الى خدمة اتابك· فبلغه ان عسكر دمشق خرج يريد اخذه· فامر صلاح الدين ان نركب للقائه ودفع الدمشقيّين عنه· فجاءني رسوله في الليل يقول «اركب» وخيمتي الى جانب خيمته، وهو قد ركب ووقف عند خيمته· فركبتُ في الوقت· فقال «كنتَ قد علمت بركوبي»· قلتُ «لا، والله»· قال «الساعة نفّذتُ اليك، فركبتَ في الوقت»· قلت «يامولاي، حصاني ياكل شعيره، ويُلجمه الركابيّ ويقعد وهو في يده على باب الخيمة· وانا البس عدّتي واتقلّد سيفي وانام· فلمّا جاءني رسولك ما كان لي ما يعوّقني»

فوقف الى ان اجتمع عنده جماعة من العسكر وقال «البسوا سلاحكم»· وقد لبس اكثر الحاضرين وانا الى جانبه· ثم قال «كم اقول لكم البسوا

(٢٦٩) «ملك» في الاصل هنا وفيما يلي

(٢٧٠) بمعنى «لئلا»

(٢٧١) ولعل الصواب ٥٣٢ وهي ١١٣٧ — ٣٨

(٢٧٢) احدى قرى الغوطة على بعد اربعة اميال من دمشق

(٢٧٣) خلّف جمال الدين اباه تاج الملوك بوري في امارة بعلبك لدن وفاته

سلاحكم؟» قلت «يامولاي، لا تكون تعنيني(٢٧٤)». قال «نعم». قلت «والله ما اقدر البس. نحن في اوّل الليل. وكزاغندي فيه زرديّتان مطبقة(٢٧٥). اذا رأيت العدوّ لبسته». فسكت

وسرنا فاصبحنا عند ضُمير(٢٧٦). فقال لي «ما تنزل نأكل(٢٧٧) شيئاً؟ فقد جُعتُ من السهر». قلت «الامر لك». فنزلنا. فما استقر على الارض حتى قال «اين كزاغندك؟» فامرت الغلام فاحضره. واخرجته من عيبته واخرجت السكّين فتقته عند صدره واظهرت جانب الزرديّتين — وكان فيه زرديّة افرنجيّة الى ذيله وفوقها اخرى الى وسطه على كلّ زرديّة البطائن واللبد واللاسين(٢٧٨) ووبر الارنب. فالتفت الى غلام له كلّمه بالتركي ولا ادري ما يقول، فاحضر بين يديه حصاناً كُميتاً كان أعطاه ايّاه اتابك في تلك الايّام كالصخرة الصمّاء قُدّت من قُنّة الجبل. فقال «هذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند. سلّمه الى غلام فلان». فسلّمه الى غلامي

عم أسامة يتفقّد حضور ذهنه

قلتُ كان عمّي عزّ الدين، رحمه الله، يتفقّد مني حضور فكري في القتال، ويمتحنّي بالمسئلة. فنحن يوماً في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة(٢٧٩) وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب. فجرّد عمّي من العسكر نحواً من ستين سبعين فارساً وقال لي «خذهم وسر اليهم». فمضينا نتراكض والتقينا بوادرَ خيلهم فكسرناهم وطعنّا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه. ونفّذتُ

(٢٧٤) «بحسبي» في الاصل. «تعيّبني» درنبورغ ص٧٤

(٢٧٥) «مطبقه». ولعل الصواب «مطبّقتان»

(٢٧٦) قرية شمالي دمشق

(٢٧٧) «ما سرل ناكل» في الاصل

(٢٧٨) «اللّيسين» في العامية؟

(٢٧٩) شهاب الدين محمود بن قراجا (١١١٥ — ٢٤)

فارساً من اصحابي الى عمّي وابي، رحمهما الله، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجل كثير اقول(٢٨٠) لهما «سيرا بالرجّالة فقد كسرتهم». فسارا اليّ(٢٨١). فلمّا قربا حملنا عليهم .كسرناهم، ورموا خيلهم في الناروف(٢٨٢) وعبروه سباحة وهو زائد، ومضوا وعدنا بالنصر. فقال لي عمّي [٣٢ و] «ايّ شيء نفّذت تقول لي؟» قلت «نفّذت اقول لك تقدّم بالرجّالة فقد كسرناهم». فقال «مع من نفّذت اليّ؟»، قلت «مع رجب(٢٨٣) العبد». قال «صدقتَ. ما اراك كنت الا حاضر القلب، ما ادهشك القتال»

ومرّة اخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة. وكان محمود بن قَراجا قد استعان على قتالنا بعسكر اخيه خيرخان بن قَراجا صاحب حمص. وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حملُ الرماح المؤلّفة بوصل الرمح الى بعض رمح اخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً او ثمانية(٢٨٤) عشر ذراعاً. فوقف مقابلي موكب منهم، وانا في سربة نحو من خمسة عشر فارساً. فحمل علينا منهم عَلْوان العراقيّ وهو من فرسانهم وشجعانهم. فلمّا دنا منّا وما تزعزعنا رجع وردّ رمحه الى خلفه، فرأيته كالحبل مطروحاً على الارض لا يقدر يرفعه. فاطلقت حصاني عليه، فطعنته وقد وصل الى اصحابه. وعدت وراياتهم على رأسي. فلقيهم اصحابي وفيهم اخي بهاء الدولة منقذ(٢٨٥)، رحمه الله، فردّهم وقد انقطع نصف يَرَقي(٢٨٦) في كزاغند علوان، ونحن بالقرب من عمّي، وهو يراني. فلمّا انفصل القتال قال لي عمّي «اين طعنت علوان العراقي؟» قلت

(٢٨٠) «اول» في الاصل. «كثيرا فُلْ» طبعة درنبورغ ص٧٥
(٢٨١) «لى» في الاصل
(٢٨٢) «الساروف» في الاصل. وهو من روافد العاصي
(٢٨٣) «رحب» في الاصل
(٢٨٤) «ىمىه» في الاصل
(٢٨٥) احد اخوة أسامة الثلاثة
(٢٨٦) «يَراق» تركية معناها السلاح

«اردت ظهره· فمال الهواء بالبيرق(٢٨٧) فوقع الرمح في جانبه»·
قال «صدقتَ· ما كنت الا حاضر القلب ذلك الوقت»

(٢٨٧) «باليرق» طبعة درنبورغ ص٧٦

٦ ـ مكافحة الاسود وسائر الضواري

تربية أسامة البيتية

وما رأيت الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر معما كان يرى فيّ وارى من اشفاقه وايثاره لي. ولقد رأيته يوماً(١) وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين(٢) ملك الافرنج على قطيعة قطعها لحُسام الدين تِمُرْتاش بن إيلغازي(٣)، رحمه الله، فرسان افرنج وارمن. فلمّا وفوا ما عليهم وارادوا الرجوع الى بلادهم نفّذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر. فلمّا توجّه الرهائن خرجوا عليهم اخذوهم. ووقع الصائح. فركب عمّي وابي، رحمهما الله، ووقفا، وكلّ من يصل اليهما قد سيّراه من خلفهم. وجئت انا، فقال لي ابي «اتبعهم بمن معك، وارموا انفسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم». فتبعتهم وادركتهم بعد ركض اكثر النهار واستخلصت من كان معهم واخذت بعض خيل حمص. وعجبت من قوله «ارموا نفوسكم(٤) عليهم»

ومرّة كنت معه، رحمه الله، وهو واقف في قاعة داره واذا حيّة عظيمة قد اخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار. فوقف يبصرها. فحملت سلّماً كان في جانب الدار اسندته [٣٢ ق] تحت الحيّة وصعدت اليها، وهو يراني فلا ينهاني، واخرجتُ سكّيناً صغيرة(٥) من وسطي، وطرحتها على رقبة الحيّة وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون

(١) سنة ١١٢٤

(٢) Baldwin الثاني ملك اورشليم

(٣) «العاري» في الاصل. وهو صاحب ماردين

(٤) «انفسكم» اعلاه

(٥) مؤنث في الاصل

الذراع، وجعلتُ احزّ رأسها ـ وخرجت التفّت على يدي ـ الى ان قطعتُ رأسها والقيتها الى الدار، وهي ميتة

بل رأيته، رحمه الله، وقد خرجنا يوماً لقتال اسد ظهر على الجسر(٦)٠ فلمّا وصلناه حمل علينا من اجمة كان فيها٠ فحمل على الخيل، ثم وقف، وانا واخي بهاء الدولة منقذ، رحمه الله، بين الاسد وبين موكب فيه ابي وعمّي، رحمهما الله، ومعهما جماعة من الجند٠ والاسد قد ربض على حرف النهر يتضرّب بصدره على الارض ويهدر٠ فحملتُ عليه٠ فصاح عليّ ابي، رحمه الله «لا تستقبله، يامجنون، فيأخذك!» فطعنته٠ فلا والله ما تحرّك من مكانه٠ ومات موضعه

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم

تركماني يموت من جرح سطحي

خلق الله عزّ وجلّ خلقه اطواراً(٧) مختلفي الخلق والطبائع: الابيض والاسود، والجميل والقبيح، والطويل والقصير، والقوي والضعيف، والشجاع والجبان، بمقتضى حكمته وعموم قدرته

رأيت بعض اولاد الامراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الامراء اتابك زنكي، رحمه الله، وقد اصابته نشّابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخى(٨) وانحلّت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه٠ وهو رجل مثل الاسد، اجسم ما يكون من الرجال٠ فاحضروا له الطبيب والجرائحيّ٠ فقال الطبيب «ما به بأس٠ بل متى ما جُرح ثانية مات»٠ فهدأ وركب وتصرّف كما كان٠ ثم اصابته نشّابة اخرى بعد مدّة احقر من الاوّلة واقل نكايةً، فمات

(٦) جسر شرر
(٧) قابل القرآن ٧١:١٣
(٨) «فاسترخاه» في الاصل

وطحّان من لسعة زنبور

ورأيتُ ما يقارب ذلك ايضاً. كان عندنا بشيزر اخوان يقال لهما بنو مجاجو(٩) الواحد اسمه ابو المجد(١٠) والآخر محاسن وهما ضمّان رحاة الجسر(١١) بثمان مائة دينار. وعند الرحا مذبح للغنم يذبح فيه جزّارو(١٢) البلد ويجتمع الزنابير على اثار الدم. فاجتاز محاسن بن مجاجو يوماً الى الرحا، فلسعه زنبور، فانفلج وانقطع كلامه واشرف على الموت. وبقي كذلك مدّة. ثم افاق وانقطع عن الرحا مدّة فعاتبه اخوه ابو المجد وقال له «يااخي، معنا هذه الرحى بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟ وغداً ينكسر علينا ضَمانُها ونموت في الحبس». فقال [٣٣ و] له محاسن «انت مقصودك ان يلسعني زنبور آخر فيقتلني». واصبح جاء الى الرحا(١٣)، فلسعه زنبور، فمات. فايسر الاشياء يقتل اذا فرغ الاجل، والفأل موكل بالمنطق

اسد ينتقي غلاماً

فمن ذلك انه ظهر عندنا بارض شيزر سبع. فركبنا اليه فوجدنا غلاماً للامير سابق بن وثاب(١٤) بن محمود بن صالح في ذلك المكان يرعى فرسه اسمه شمّاس(١٥). فقال له عمّي «اين الاسد؟» قال «في تلك الغلفاء». قال «سر قدّامي اليها». قال «انت مقصودك ان يخرج الاسد يأخذني». ومشى قدّامه. فخرج الاسد كأنه مرسل الى شمّاس فأخذه، فقتله دون الناس. وقُتل الاسد

(٩) «محاحو» في الاصل. «مجاجو» ادناه
(١٠) «المحد» في الاصل
(١١) طاحون جسر شيزر. «ضمّان» بالجمع في الاصل
(١٢) «حراري» في الاصل
(١٣) «الرحى» في الاصل
(١٤) «وباب» في الاصل
(١٥) «سماس» في الاصل

أسامة والاسد

وشاهدتُ من الاسد ما لم اكن لاظنّه، ولا اعتقدت ان الأُسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان. وذلك ان جوبان(١٦) الخيل جاءنا يوماً يركض وقال «في اجمة تل التلول ثلاثة سباع». فركبنا فخرجنا اليها، واذا لبوءة خلفها اسدان. فدرنا في تلك الاجمة. فخرجت علينا اللبوءة. فحملت على الناس ووقفت. فحمل عليها اخي بهاء الدولة ابو المغيث منقذ، رحمه الله، طعنها قتلها، وتكسّر رمحه فيها

ورجعنا الى الاجمة. فخرج علينا احد السبعَين فطرد الخيل. ووقفت انا واخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طرد الخيل. فانّ الاسد اذا خرج من موضع لا بدّ له من الرجوع اليه بلا شبهة، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه، ورددنا(١٧) رماحنا نحوه ونحن نعتقد انه يقصدنا فنُنشب الرماح فيه فنقتله. فما راعنا الا وهو عابر علينا كالريح الى رجل من اصحابنا يقال له سعد الله الشيبانيّ، فضرب فرسه رماهـا. فطعنته وسّطت القنطاريّة فيه فمات مكانه

ورجعنا الى الاسد الآخر ومعنا نحو من عشرين راجلاً من الارمن الاجياد رماة(١٨). فخرج السبع الآخر وهو اعظمها خلقة يمشي. وعارضه الارمن بالنشاب، وانا معارض الارمن انتظره يحمل عليهم يأخذ واحدًا منهم فاطعنه وهو يمشي. وكلّما وقعت فيه نشّابة قد هدر ولوّح بذنبه فاقول «الساعة يحمل». ثم يعود يمشي. فما زال كذلك حتى وقع ميتاً. فرأيت من ذلك الاسد شيئاً ما ظننته

اسد يهرب من خروف

ثم شاهدتُ من الاسد اعجب من ذلك

كان بمدينة دمشق جرو اسد قد ربّاه سبّاع معه حتى كبر وصار يطلب

(١٦) «جوبان» تركية معناها راعٍ
(١٧) «ورددنا» في الاصل
(١٨)«الاحياد رماه» في الاصل

الخيل وتأذى الناس به. فقيل للامير معين الدين، رحمه الله، وانا عنده «هذا السبع قد آذى الناس. والخيل تنفر منه. وهو في الطريق». وكان على [٣٣ ق] مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار والليل. فقال «قولوا للسبَّاع يجيء به». فقال للخوان سلار(١٩) «اخرج من ذبائح المطبخ خروفاً اتركه فـي قاعة الدار حتى نبصر كيف يكسره السبع». فاخرج خروفاً الى قاعة الدار. ودخل السبَّاع ومعه السبع. فساعة رآه الخروف، وقد ارسله السبَّاع من السلسلة التي فـي رقبته، حمل عليه فنطحه. فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة(٢٠) والخروف خلفه يطرده وينطحه، ونحن قد غلبنا الضحك عليه. فقال الامير معين الدين، رحمه الله، «ذا سبع منحوس! اخرجوه اذبحوه واسلخوه. وهاتوا جلده». فذبحوه وسلخوه وأُعتق ذلك الخروف من الذبح

كلب يخلّص صاحبه من اسد

ومن عجيب امور السباع ان اسداً ظهر عندنا في ارض شيزر. فخرجنا اليه ومعنا رجَّالة مـن اهل شيزر فيهم غلام للمعبَّد(٢١) الذي كان يطيعه اهل الجبل ويكاد ان يُعبد(٢٢). ومع ذلك الغلام كلب له. فخرج الاسد على الخيل، فجلت قدّامه جافلة، ودخل في الرجَّالة. فاخذ ذلك الغلام وبرك عليه. فوثب الكلب على ظهر الاسد، فنفر عن الرجل وعاد الى الاجمة. وخرج الرجل الى بين يدي والدي، رحمه الله، يضحك وقال «يامولاي، وحياتك، ما جرحني ولا آذاني». وقتلوا الاسد. ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح اصابه الا انقطع قلبه(٢٣).

(١٩) فارسية ــ مدير المطبخ

(٢٠) يظهر ان دور دمشق كانت يومئذ على نسق اليوم نفسه

(٢١) «للمعد» في الاصل «للمقيَّـد» طبعة درنبورغ ص٨٠. والمعبَّد المعظَّم كانه يُعبد وربما كانت الاشارة لشيخ الحشاشين

(٢٢) «صد» في الاصل

(٢٣) لم يزل هذا الاستعمال جاريا على السنة العامة

فكنت اعجب مـن إقدام ذلك الكلب علـى الاسد، وكلُّ الحيوان ينفر من الاسد ويتجنَّبه

الاسد سيّد الحيوانات

ولقد رأيت رأس الاسد يُحمَل الى بعض دورنا فترى(٢٤) السنانير تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها مـن السطوحات، وما رأت الاسد قط(٢٥). وكنّا نسلخ الاسد ونرميه من الحصن(٢٦) الى سفح الباشورة فلا يقربه الكلاب ولا شيء مـن الطير. واذا رأت القيقـان(٢٧) اللحم نزلت اليه ثـم دنت منه صاحت وطارت. وما اشبه هيبة الاسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير فان العقاب يبصره الفرّوج الذي ما رأى العقاب قط فيصيح وينهـزم. هيبة القاهـا الله تعالى فـي قلوب الحيوان لهذيـن الحيوانين

قاتل اسد تقتله عقربة

وعلى ذكر السباع كان عندنا اخوان من اصحابنا يقال لهما بنو الرُّعام رجّالة يترددان من شيزر الى اللاذقية (واللاذقية لعمّي عزّ الدولة ابي المرهف نصر، وفيها اخوه عزّ الدين ابو العساكر سلطان، رحمهما الله) بالكتب بينهمـا قـالا «خرجنا مـن اللاذقيـة [٣٤ و] فاشرفنـا مـن عقبة المندة(٢٨)، وهي عقبة عالية تُشرف علـى ما تحتها مـن الوطاء، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة. فوقفنا مكاننا ما نجسر علـى النزول من خوف الاسد. فرأينا رجلاً قـد اقبل. فصحنا اليه ولوّحنا

(٢٤) «فرى» في الاصل

(٢٥) يظهر ان ملاحظات اسامة علمية. قابل F. C. Selous, *African Nature, Notes and Reminiscences* (لندن ١٩٠٨) ٩٥

(٢٦) شيزر

(٢٧) «العقان» في الاصل. «العقبان» طبعه درنبورغ ص٨٠

(٢٨) «المده» في الاصل

بنيابنا اليه نحذّره من الاسد فما سمعَنا٠ واوتر قوسه وطرح فيه نشّابة ومشى٠ فرآه الاسد فوثب اليه٠ فضربه ما اخطأ قلبه، فقتله٠ ومشى اليه فتمم قتله٠ واخذ نشّابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زُربُوله(٢٩) وقلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء٠ ثم طلع لبس ثيابه، ونحن نراه، وجعل ينفض شعره ليُنشّفه من الماء٠ ثم لبس فردة زربوله واتّكى على جنبه وطوّل في الاتّكاء٠ فقلنا «والله ما قصّر٠ ولكن على من يتيه؟» ونزلنا اليه وهو على حاله فوجدناه ميتاً ما ندري ما اصابه٠ فنزعنا فردة الزُربُول من رجله واذا فيه عقرب صغيرة قد لسعته في ابهامه٠ فمات لوقته٠ فعجبنا من ذلك الجبّار الذي قتل الاسد وقتلته عقرب مثل الاصبع٠ فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق

طبائع الاسد على ما درسها أسامة

قلت: قاتلتُ السباع في عدّة مواقف لا احصيها٠ وقتلت عدّة منها ما شركني في قتلها احد، سوى ما شاركني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري٠ فمن ذلك ان الاسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله(٣٠) ما لم يُجرح فحينئذٍ هو الاسد، وذلك الوقت يُخاف منه٠ واذا خرج من غاب او اجمة وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الاجمة التي خرج منها، ولو ان النيران(٣١) في طريقه٠ وكنت انا قد عرفت هذا بالتجربة، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه، قبل ان يُجرح٠ فاذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته، قتلته

(٢٩) يونانية بمعنى الحذاء

(٣٠) «وبله» في الاصل٠ «وتلّه» طبعة درنبورغ ص٨١

(٣١) كان البدو اذا نزلوا مكاناً ليلا اشعلوا النار حولهم لاعتقادهم ان الاسد يتحاشى النار٠ وكانوا يطلقون على هذه النار اسم «نار الاسد»

قتال النمر

فامَّا النمور فقتالها اصعب من قتال الأُسد لخفَّتها و بُعد وثبتها. وهي تدخل في الغارات والمجاحر كما تدخل الضباع، والأُسد ما تكون الا في الغابات والآجام. وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها مَعَرزف(٣٢) من اعمال شيزر. فركب اليه عمّي عزّ الدين، رحمه الله، وارسل اليّ فارساً وانا راكب في شغل لي يقول «الحقني الى مَعَرزف». فلحقته وجئنا الى الموضع الذي [٣٤ ق] زعموا ان النمر فيه، فما رأيناه. وكان هناك جُبّ. فنزلت عن حصاني ومعي قنطاريَّة وجلست على فم الجُبّ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالمجحر. فحرّكتُ القنطاريَّة في ذلك الخرق الذي في الجبّ فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطاريَّة. فلمَّا علمنا انه في ذلك الموضع نزل معي بعض اصحابنا، وصار بعضنا يحرّك ذلك الموضع بالرمح، فاذا خرج طعنه الآخر. وكلّما اراد الصعود من الجبّ اوثقناه بالرماح، حتى قتلناه. وكان خلقة عظيمة. الا انه كان قد اكل من دوابّ القرية حتى عجز عن نفسه. وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعاً

وقد كان في كنيسة حُناك(٣٣) طاقة في ارتفاع اربعين ذراعاً. فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيها الى آخر النهار ويثب منها ينزل ويمضي. ومقطع(٣٤) حُناك ذلك الوقت فارس افرنجيّ يقال له سير ادم(٣٥) من شياطين الافرنج. فاخبروه خبر النمر فقال «اذا رأيتموه اعلموني». فجاء النمر كعادته وثب الى تلك الطاقة. فجاء بعض الفلاحين اخبر السير ادم. فلبس درعه وركب حصانه واخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خراب، انما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة. فلمَّا

(٣٢) واقعة للشمال الغربي من حماة. Dussaud ٢٠٧

(٣٣) حصن للجنوب الغربي من معرَّة النعمان. ياقوت ٢: ٣٤٥

(٣٤) ولعلها «مطع» في الاصل

(٣٥) Sir Adam

رآه النمر وثب من الطاقة عليه، وهو على حصانه، فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو(٣٦) هناك يسمّونه النمر المجاهد

ومن خواصّ النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرةٌ مات. ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر(٣٧). حتى انه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفاً عليه من الفأر

الفرق بين النمر والفهد

والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم. وقد كنت مرّة مجتازًا بمدينة حيفا(٣٨) من الساحل، وهي للافرنج. فقال لي افرنجي منهم «تشتري منّي فهدًا جيّدًا؟» قلت «نعم». فجاءني بنمر قد ربّاه حتى صار في قدّ الكلب. قلت «لا، ما يصلح لي. هذا نمر ما هو فهد»(٣٩). فعجبت من انسه وتصرّفه مع الافرنجي

والفرق بين النمر والفهد ان وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه زرق(٤٠) والفهد وجهه مدوّر وعيناه سود(٤٠). وقدكان بعض الحلبيين اخذ نمرًا وجاء به في عدل الى صاحب القدموس وهو لبعض بني محرز(٤١)، وهو يشرب. ففتح العدل، فخرج النمر على من في المجلس. فامّا الامير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلق عليه الباب. وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى ان قتلوه

(٣٦) «فلاحوا» في الاصل

(٣٧) ليس لهذه الملاحظة من اساس علميّ

(٣٨) «حمه» في الاصل. وذلك بين سنة ١١٤٠ و١١٤٣

(٣٩) قابل H. B. Tristram, *The Fauna and Flora of Palestine* (لندن ١٨٨٨) ص٩٨

(٤٠) كذا في الاصل. عامية

(٤١) «محرره» في الاصل. والقدموس حصن للنصيرية الى الجنوب الغربي من شيزر

وسمعت وما رأيت [٣٥ و] ان في السباع البَبَر(٤٢)٠ وما كنت اصدّق ذلك٠ فحدّثني الشيخ الامام حجّة الدين ابو هاشم محمّد بن محمّد بن ظفر، رحمه الله، قال «سافرت من المغرب ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرّب الامور٠ ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث، انما نحن انا وهو على نجيبين٠ فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه البَبَر(٤٣) وهو نائم فاعتزلنا عنه٠ ونزل صاحبي عن جمله واعطاني زمامه واخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي «احتفظ برأس النجيب» ومشى الى الماء٠ فلمّا رآه البَبَر قام ووثب مستقبله حتى تجاوزه٠ ثم صاح فثارت اليه مُجرياتٌ لـه عدوًا لحقوه(٤٤). وما عارضنا ولا آذانا٠ فشربنا واسقينا ثم مضينا»

هكذا حدّثني ،رحمه الله، وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه

(٤٢) الفهد المخطط ملك الغابة الهندية٠ والكلمة ماخوذة عن «بَبْرْ» الفارسية وهي ظاهرة في اسم الملك الظاهر بيبرس٠ الببر ذكره القزويني «عجائب المخلوقات» (غوتنغن ١٨٤٩) ١:٣٩١٠ وتجد صورته في «الهلال» عدد تموز سنة ١٩٢٩ ص١٠٩٤

(٤٣) لا يعيش الببر في افريقية كما ان الاسد لا يعيش في الهند

(٤٤) «فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه» في الاصل

٧ ـ اختبارات حربية

ضرب شيزر بالمنجنيق

ومن عجيب الآجال لمّا نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلثين وخمس مائة(١) نصبوا عليها مجانيق(٢) هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل(٣). وتبلغ حجرُها ما لا تبلغه النشّابة. وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً. ولقد رموا مرّة دار صاحب لي يقال له يوسف ابن ابي الغريب، رحمه الله، بقلب قوف(٤) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد. وكان على برج في دار الامير(٥) قنطاريّة فيها راية منصوبة، وطريق الناس في الحصن من تحتها. فضرب(٦) القنطاريّة حجر المنجنيق كسرها من نصفها. وانقلب كسرُها الذي فيه السنان تنكّس ووقع الى الطريق، ورجل من اصحابنا عابر، فوقع السنان من ذلك العلوّ وفيه نصف القنطاريّة في ترقُوَتِه(٧) خرج الى الارض وقتله

وحدّثني خُطلُخ مملوك لوالدي، رحمه الله، قال «كنّا في حصار الروم جلوساً(٨) في دهليز الحصن(٩) بعددنا وسيوفنا فاذا شيخ قد جاءنا

(١) سنة ١١٣٨

(٢) «مجانيقاً» في الاصل

(٣) «الثقل» في الاصل. «النقل» طبعة درنبورغ ص٨٣

(٤) «بعلب ووں» في الاصل. «ثُقّلت فوق» طبعة درنبورغ ص٨٣. «القُوفا» حجر يعمل منه الرّحى

(٥) «الامر» في الاصل

(٦) «فصرب» في الاصل

(٧) «برفاه» في الاصل. ويظهر ان الكلمة كانت تلفظ «ترقاته» وقد تكرّرت ادناه ص٢١٣ ح٨١

(٨) «حلوس» في الاصل

(٩) حصن شيزر

يعدو وقال «يامسلمون(١٠)، الحريم! دخل الروم معنا» . فاخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . فضربناهم بالسيوف حتى اخرجناهم . وخرجنا خلفهم حتى اوصلناهم الى اصحابهم، وعدنا . فتفرّقنا، وبقيت انا وذلك الشيخ الذي استفزعنا . فوقف وادار وجهه الى الحائط يريق الماء . فاعرضتُ عنه . فسمعت وجبة(١١) . فالتفتُّ واذا الشيخ قد ضربت رأسه [٣٥ ق] حجر المنجنيق كسرته والصقته بالحائط، ومخّه قد سال على الحائط . فحملته وصلّينا عليه ودفنّاه في مكانه، رحمه الله»

وضربت حجر المنجنيق رجلاً من اصحابنا كسرت رجله . فحملوه الى بين يدي عمّي وهو جالس في دهليز الحصن، فقال «هاتوا المجبّر» وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير . فحضر وجلس يجبّر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن . فضربت الرجُل المكسور حجر في رأسه طيّرته . فدخل المجبّر الى الدهليز فقال عمّي «ما اسرع ما جبّرته!» قال «يامولاي، جاءته حجر ثانية اغنته عن التجبير»

قصد الفرنج دمشق(١٢)

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار ان الافرنج، خذلهم الله، اجمع رأيهم على ان يقصدوا دمشق ويأخذوها(١٣) . فاجتمع منهم خلق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وتلّ باشر(١٤) وصاحب انطاكية . فنزل صاحب انطاكية على شيزر في طريقه الى دمشق، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق

(١٠) «يامسلمس» في الاصل . عامية

(١١) «وجبه» في الاصل

(١٢) هذا العنوان هو الوحيد المثبت في الاصل في هامش المخطوطة

(١٣) بقيادة بالدون الاول ملك اورشليم عام ١١١٣

(١٤) سماه الافرنج Turbessel وموقعه بين حلب والرها (اورفا . ادسا) . صاحب الرها وتل باشر كان جوسلين .Joscelin I راجع Rey ٣٢٢

وحمّاماتهاوقياسيرهاواشتراها(١٥) البرجاسيّة(١٦) ووزنوا لهماثمانها، وماعندهمشكّ فيفتحهاوملكها. وكفرطاب اذ ذاك لصاحب انطاكية(١٧). فجرّد من عسكره مائة فارس انتخبهم وامرهم بالمقام بكفرطاب مقابلنا ومقابل حماة. فلمّا سار الى دمشق اجتمع من بالتأم من المسلمين لقصد كفرطاب وانفذوا رجلاً من اصحابنا يقال له قُنيب بن مالك(١٨)، فجسّ لهم كفرطاب في الليل، فوصلهادارهاوعاد وقال «ابشروا بالغنيمة والسلامة». فسار المسلمون اليهم فالتقوا على مثكير(١٩). فنصر الله سبحانه الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم. وكان قُنيب الذي جسّ لهم كفرطاب قد رأى في خندقها دواب(٢٠) كثيرة. فلمّا ظفروا بالافرنج وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدوابّ التي في الخندق ورجا ان يفوز بالغنيمة وحده. فمضى يركض الى الخندق. فرمى عليه رجل من الافرنج من الحصن حجرًا فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها. فكانت اذا ندبت على ابنها قُنيب تتدفّق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها. فاذا فرغت من ندبها [٣٦ و] عليه وسكنت لوعتُها عادت ثدياها كالجلدتين ما فيهما(٢١) قطرة لبن. فسبحان من اشرب القلوب الحنّة على الاولاد

ولمّا قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق «قد قتل المسلمون اصحابك» قال «ما هو صحيح. قد تركتُ بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلّهم»

وقضى الله سبحانه ان المسلمين بدمشق نصروا على الافرنج وقتلوا

(١٥) «واسروها» في الاصل
(١٦) bourgeoisie
(١٧) روجار Roger
(١٨) «ملك» في الاصل
(١٩) وقد وردت اعلاه ص٤٥ ح٣٩
(٢٠) «دوابا» في الاصل
(٢١) «منها» في الاصل. عامية

منهم مقتلة عظيمة واخذوا جميع دوابّهم· فرحلوا عن دمسق أسوأ رحيل واذلّه ـ والحمد لله رب العالمين

كردي يتأبط رأس اخيه

ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بالافرنج انه كان في عسكر حماة اخوان كرديان(٢٢) اسم الواحد بدر واسم الآخر عَنّاز(٢٣)·وكان هذا عَنّاز ضعيف النظر· فلمّا كُسر الافرنج وقُتلوا قطعوا رؤوسهم وشدّوها في سموط خيلهم· وقطع عَنّاز رأساً [وشدّه] في سموطه· فرآه قوم من عسكر حماة فقالوا له «ياعَنّاز، ايّ شيء هذا الرأس معك؟» قال «سبحان(٢٤) الله لما جرى بيني وبينه حتى قتلته»· قالوا له «يارجل، هذا رأس اخيك بدر!» فنظره وتأمله، فاذا هو رأس اخيه· فاستحيى [كذا] من الناس وخرج من حماة· فما ندري اين قصد ولا عدنا سمعنا له خبرا· وكان اخوه بدر قُتل في تلك الوقعة قتله الافرنج، خذلهم الله تعالى

ضربة سيف تشقّ رأس اسماعيلي

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ، رحمه الله، ضرب السيوف الماضية· فمن ذلك ان رجلاً من اصحابنا يقال له هَمّام(٢٥) الحاجّ التقى هو ورجل من الاسماعيليّة، لمّا عملوا على حصن شيزر(٢٦)، في رواق في دار عمّي، رحمه الله، وفي يد الاسماعيليّ سكّين والحاجّ في يده سيف· فهجم عليه الباطنيّ بالسكّين· فضربه هَمّام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخّه على الارض فانبسط عليها وتطاير· فوضع هَمّام السيف من يده وتقيأ ما في بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخّ

(٢٢) «اكراد» في الاصل
(٢٣) قابل الذهبي «المشتبه» ٣٧٦
(٢٤) «سحر» في الاصل
(٢٥) أو «هُمام»
(٢٦) سنة ١١٠٩ او ١١١٤

من الغشيان(٢٧)٠ ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي٠ فهجم عليّ بالسيخ فضربته في وسط ساعده، والسيخ في يده قبضته ونصله لاصق بساعده، فقطع قدّ اربع اصابع من نصل السيخ وقطع الساعد من نصفه، فابانه٠ وبقي اثر فم السيخ في حدّ السيف٠ فرآه صانع عندنا فقال «انا أُخرج هذا الثلم منه»٠ قلت «دعه كما هو٠ فهو احسن ما فيه» وهو الى الآن اذا رآه الانسان علم انه اثر سكّين

[٣٦ ق] ولهذا السيف خبر انا ذاكره

واخرى تقطع نعلاً ومرفقاً

كان للوالد، رحمه الله، ركابيّ يقال له جامع٠ فاغار(٢٨) الفرنج علينا٠ فلبس الوالد كزاغنده وخرج من داره ليركب، فما وجد حصانه٠ فوقف ساعة ينتظره٠ فوصل جامع الركابيّ بالحصان، وقد ابطأ٠ فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غمده متقلّد به٠ فقطع الجهاز والنعل الفضّة وبشتا(٢٩) كان على الركابيّ وصوفيّة وعظم مرفقه٠ فرُميت يده٠ فكان، رحمه الله، يقوم به وباولاده بعده لتلك الضربة٠ وكان السيف يسمّى الجامعيّ باسم ذلك الركابي

ضربتان تقتلان رجلين

ومن ضربات السيوف المذكورة ان اربعة اخوة من انساب الامير افتخار الدولة ابي الفتوح بن عمرون صاحب حصن ابو قُبيس(٣٠) صعدوا اليه الى الحصن وهو نائم اوثقوه بالجراح، وما معه في الحصن غير ابنه٠ ثم خرجوا وهم يظنّون انهم قد قتلوه يريدون ابنه٠ وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوّة امرًا عظيماً٠ فقام من فراشه

(٢٧) «الغشيان» طبعة درنبورغ ص٨٦
(٢٨) «مغار» في الاصل
(٢٩) أو «بُشتا» ـ عباءة٠ ولعلها «پُشت» الفارسية
(٣٠) «بوقبس» في الاصل٠ موقعه غربي شيزر٠ ياقوت ١٠٣:١

عرياناً(٣١)، وسيفه معلّق في البيت معه، فاخذه وخرج اليهم. فلقيه واحد منهم وهو مقدّمهم وشجاعهم. فضربه افتخار الدوله بالسيف وقفز من مقابله خوفاً من ان يصل اليه بسكّين كانت في يده. ثم التفت اليه فوجده ملقىً قد قتله بتلك الضربة. وصار الى الآخر ضربه قتله. وانهزم الاثنان الباقيان. فرميا انفسهما(٣٢) من الحصن. فمات احدهما ونجا الآخر

واتانا الخبر الى شيزر. فنفّذنا من هنّأه بالسلامة. وطلعنا بعد ثلاثة ايّام الى حصن ابو قبيس لعيادته، فان اخته كانت عند عمّي عزّ الدين وله منها اولاد. فحدّثنا حديثه وكيف كان امره. ثم قال «متن كتفي يحكّني، وما اصل اليه». ودعا غلاماً له ليبصر ذلك الموضع ايّ شيء قرصه فيه. فنظر فاذا هو جرحٌ وفيه رأس دشن قد انكسر في ظهره، وما معه منه علم ولا احسّ به. فلمّا قاح حكّه

وكان من قوّة هذا الرجل انه كان يمسك رُسْغَ رِجل البغل ويضرب البغل فلا يقدر يخلّص رِجله من يده. ويأخذ المسمار البيطاريّ بين اصابعه وينفّذه في دفّ خشب البلوط. وكان اكله مثل قوّته لا بل اعظم .

بطولة النساء

قد ذكرت شيئاً من افعال الرجال وساذكر شيئاً من افعال النساء، بعد بساط اقدّمه

بالدون يعقب روجر في انطاكية

وذلك ان انطاكية كانت لشيطان من الافرنج يقال له روجار. فمضى يحجّ الى البيت المقدّس، وصاحب البيت المقدّس بغدوين

(٣١) «عريان» في الاصل
(٣٢) كذا في الاصل

البرونس(٣٣) وهو رجل شيخ، وروجار شابّ. فقال لبغدوين «اجعل بيني وبينك شرطاً. [٣٧ و] ان متُّ قبلك كانت انطاكية لك، وان متّ قبلي كان البيت المقدّس لي». فتعاقدا وتواثقا على ذلك

وقدّر الله تعالى ان نجم الدين إيلغازي بن(٣٤) أُرتُق، رحمه الله، لقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة(٣٥) فقتله(٣٦) وقتل جميع عسكره. ولم يدخل انطاكية منهم الا دون العشرين رجلاً. وسار بغدوين الى انطاكية فتسلّمها

وضرب مع نجم الدين مصافًا بعد اربعين يوماً. وكان إيلغازي(٣٧) اذا شرب النبيذ يخمر(٣٨) عشرين يوماً. فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم(٣٩) ودخل في الخُمار فما افاق حتى وصل الملك بغدوين البرونس الى انطاكية بعسكره

طُغدَكين يقطع رأس روبرت

فكان المصافّ الثاني بينهما على السواء: كسر بعض الفرنج بعض المسلمين وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج، وقُتِل من هوءلاء وهاولاء جماعة. واسر المسلمون روبرت(٤٠) صاحب صهيون(٤١) وبلاطُنُس(٤٢) وتلك الناحية، وكان صديقاً لاتابك طغدكين صاحب

(٣٣) Prince وهو بالدون الثاني

(٣٤) «العارى اس»في الاصل هنا وفيما يلي

(٣٥) «حمدى» فى الاصل. والتاريخ يقابل ١٤ آب سنة ١١١٩

(٣٦) لم يُقْتَل روجار في معركة دانيث بل في البلاط كما تقدم اعلاه

(٣٧) «العارى» في الاصل هنا وفيما يلي

(٣٨) «يحم» او «يحمر» في الاصل

(٣٩) يظهر ان الاشارة الى وقعة البلاط

(٤٠) Robert

(٤١) حصن بين اللاذقية وحماة. ابن الاثير في *Recueil* ١:٧٢١ وياقوت ٣:٤٣٨ و Dussaud ١٤٩

(٤٢) Palatnus جنوبي صهيون. ابن الاثير في *Recueil* ١:٧٢٣ ويافوت ١:٧١٠

دمشق ذلك الوقت، وكان مع نجم الدين إيلغازي لمّا اجتمع بالافرنج في افامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق٠ فقال هذا روبرت الابرص(٤٣) لاتابك طُغدَكين «ما ادري بايّ شيء اضيفك٠ ولكن قد ابحتك بلادي٠ أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلّما وجدوه٠ بلى لا يسبوا ولا يقتلوا٠ الدوابّ والمالُ والغلّة لهم يأخذون ذلك مباحاً لهم»٠ فلمّا أُسر روبرت، واتابك طُغدَكين حاضر المصافّ في معونة ايلغازي، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف(٤٤) دينار فقال ايلغازي «امضوا به الى اتابك لعلّه يفزّعه فيزيدنا في القطيعة»٠ فمضوا به واتابك في خيمته يشرب٠ فلمّا رآه مقبلاً قام شمّر اذيال قبائه(٤٥) في البند واخذ سيفه وخرج اليه ضرب رقبته٠ فنفّذ اليه إيلغازي يعتب عليه وقال «نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان٠ وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفّذته اليك تفزعه لعلّه يزيدنا في القطيعة، قتلته!» قال «انا ما أُحسن افزّع الا كذا»

بالدون يسامح عم أُسامة بقطيعة

ثم ملك بغدوين البرونس انطاكية٠ وكان لابي وعمّي، رحمهما الله، عليه جميل كبير(٤٦) حيث كان اسره نور الدولة بَلَك(٤٧)، رحمه الله٠ وصار بعد قتل بَلَك(٤٨) الى حسام الدين تمُرتاش بن إيلغازي، فحمله الينا الى شيزر ليتوسّط ابي وعمّي رحمهما الله، بيعه(٤٩)٠ فاحسنّا

(٤٣) كمال الدين في *Recueil* ٣: ٦٢١ و ٦٢٩

(٤٤) «الف» في الاصل هنا وادناه

(٤٥) «ىماه» في الاصل هنا وفي ص١٥٩ س٦

(٤٦) «كبر» في الاصل

(٤٧) ابن بَهْرام واخو ايلغازي وصاحب مَلَطية (ملاطيه في العامية) شمالي اورفا

(٤٨) ٦ ايار سنة ١١٢٤

(٤٩) كمال الدين في Recueil ٣: ٦٤٣

اليه. فلمّا ملك كانت لصاحب انطاكية علينا قطيعة(٥٠) سامحنا بها.
وصار امرنا في انطاكية نافذاً

ويتنازل عن انطاكية لابن ميمون

فهو فيما هو فيه، وعنده رسول [٣٧ ق] من اصحابنا، اذ وصل(٥١) مركب الى السُّويديَّة فيه صبي عليه اخلاق. فحضر عنده وعرّفه انه ابن ميمون. فسلَّم انطاكية اليه وخرج منها ضربَ خيمه في ظاهرها. فحلف لنا رسولنا الذي كان عنده انه (يعني الملك بغدوين) اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق، واهراء انطاكية ملأى(٥٢) من الغلَّة. ورجع بغدوين الى القدس

ابن ميمون يهاجم شيزر

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن ميمون بليَّة عظيمة. فنزل علينا يوماً من الايَّام بعسكره. فضرب خيامه، ونحن قد ركبنا مقابلهم، فما خرج الينا منهم احد ونزلوا في خيامهم. ونحن ركاب على شرف نبصرهم، وبيننا وبينهم العاصي. فنزل من بيننا ابن عمّي ليث الدولة يحيى بن مالك(٥٣) بن حُميد، رحمه الله، يسير الى العاصي. فظنّنَّاه يسقي فرسه. فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب للافرنج واقف بالقرب من خيامهم. فلمَّا دنا منهم نزل اليه فارس واحد. فحمل كلُّ واحد منهما على صاحبه، وراغ(٥٤) كلٌ واحد منهما عن طعنة الآخر. فتسرعتُ انا وامثالي من الشباب ذلك الوقت اليهما. ونزل ذلك الموكب وركب ابن ميمون وعسكره وجاءوا كالسيل، وصاحبنا قد طُعنت فرسُه. فالتقت اوائل خيلنا

(٥٠) قيمتها اربعة آلاف دينار وضعها تنكرد سنة ١١١٠
(٥١) سنة ١١٢٦
(٥٢) «ملا» في الاصل
(٥٣) «ملك» في الاصل
(٥٤) هكذا في الاصل ويجوز «وزاغ»

واوائل خيلهم. وفي اجنادنا رجل كرديّ يقال له ميكائيل(٥٥) قد جاء في اوائل خيلهم منهزماً، وخلفه فارس افرنجيّ قد لزّه. وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عالٍ . فلقيته، فمال عن ذلك الفارس الكرديّ وزلّ عن طريقي وقصد خيلاً لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا، وانا خلفه اجهد ان يلحقه حصاني فاطعنه، فلا يلحقه، ولا الافرنجي يلتفت اليّ الا يريد تلك الخيل المجتمعة الى ان وصل الى خيلنا، وانا تابعه. فطعن اصحابي حصانه طعنة اوثقته(٥٦)، واصحابه في اثره في جمع ما لنا بهم قوة. فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فردّهم جميعهم، وعاد، وهم معه. وكان الفارس ابن ميمون صاحب انطاكية وهوَ صبي(٥٧) قد امتلأ قلبه من الرعب. ولو ترك اصحابه هزمونا الى ان يُدخلونا المدينة

قصّة بُريكة

كلُّ ذلك وامة عجوز يقال لها بُريكة(٥٨) مملوكة لرجل كرديّ من اصحابنا يقال له عليّ بن محبوب(٥٩) واقفة بين الخيل على شطّ النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس. واكثر اصحابنا الذين كانوا على الشرف لمّا رأَوا الافرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك(٦٠) [٣٨ و] الشيطانة واقفة لا يروعها ذلك الامر العظيم

وانا ذاكر شيئاً من امر هذه بُريكة، وان لم يكن موضعه، لكن الحديث شُجونٌ

(٥٥) «ميكايل» في الاصل
(٥٦) «اوسه» في الاصل
(٥٧) عمره ١٨ عشر عاماً
(٥٨) «بريكه» في الاصل
(٥٩) «محبوب» في الاصل
(٦٠) مكررة في راس الصفحه التالية

كان مولاها عليّ يتديَّن ولا يشرب الخمر . فقال لوالدي يوماً «والله، ياامير، ما استحلّ آكل من الديوان ولا آكل الا من كسب بُريكة». وهو الجاهل يظنّ ان ذلك السحت الحرام احلُ من الديوان الذي هو مستأجر به

وكانت هذه الأمة لها ولد اسمه نصر رجل كبير [وكان] وكيلاً (٦١) في ضيعة للوالد، رحمه الله، هو ورجل يقال له بقيَّة(٦٢) بن الأُصيفر . حدّثني قال «دخلتُ في الليل الى البلد اريد الدخول الى داري في شغل لي . فلمَّا دنوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصاً ما هو آدميّ ولا هو وحش، فوقفت عنه وتهيَّبته . ثم قلت في نفسي «ما انا بقيَّة! ما هذا الخوف من واحد؟» فوضعت سيفي ودَرَقَتي(٦٣) والحربة التي معي ومشيت قليلاً قليلاً، وانا اسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً . فلمَّا قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشنيّ فقبضته، واذا بها بُريكة مكشوفة الرأس قد نفشت شعرها وهي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجول . قلت «ويحكِ! ايّ شيء تعملين(٦٤) في هذا الوقت هاهنا؟» قالت «اسحر» . قلت «قبَّحك الله وقبَّح سحرك وصنعتك من بين الصنائع!»»

امرأة تقاتل في شيزر

اذكرني قوّة نفس هذه الكلبة بامور جرت للنساء في الوقعة(٦٥) التي كانت بيننا وبين الاسماعيليَّة، وان لم تكن(٦٦) سواء

(٦١) «وكلا» في الاصل
(٦٢) «بعه» في الاصل
(٦٣) ترس من جلد
(٦٤) «عملى» في الاصل
(٦٥) نيسان سنة ١١٠٩
(٦٦) «تكو سواء» في الاصل . عامية . والمقصود وان لم تكن هذه الساحرة ونساء شيزر سواء

لقي في ذلك اليوم مقدَّم القوم عَلْوان بن حرّار(٦٧) ابن عمّي سنان الدولة شبيب(٦٨) بن حامد بن حميد، رحمه الله، في الحصن، وهو تِـرْبي وَلِـدَتي وُلدتُ انا وهوفي يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى(٦٩) الآخرة سنة ثمان وثمانين واربع مائة(٧٠) الا انه ما باشر الحرب [حتى] ذلك اليوم، واناكنت قطبها. فاراد عَلْوان اصطناعه. فقال له «ارجعْ الى بيتك. احمل منه ما تقدر عليه ورح(٧١) لا تُقتَل، فالحصن قد ملكناه». فرجع الى الدار وقال «من كان له شيء يعطيني اياه». (يقول ذلك لعمَّته ونساء عمّه). فكلٌّ منهم اعطاه شيئاً. فهو في ذلك واذا انسان قد دخل الدار عليه زرديَّة وخوذة ومعه سيف وترس. فلمَّا رآه ايقن بالموت. فوضع الخوذة، واذا هي امُّ ابن عمّه ليث الدولة يحيى، رحمه الله. فقالت «ايّ شيء تريد تعمل؟» قال «آخذ ما قدرت عليه، وانزل من الحصن بحبل، واعيش في الدنيا». قالت «بئس ما تفعل. تُخلّي بنات عمّك واهلك للحلاجين وتروح؟ ايّ عيش يكون [٣٨ ق] عيشك اذا افتضحت في اهلك وانهزمت عنهم؟ اخرجْ قاتلْ عن اهلك حتى تُقتَل بينهم. فعل الله بك وفعل». ومنعتْه، رحمها الله، من الهرب. وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك

والدة أسامة في القتال

وفي ذلك اليوم فرّقت والدتي، رحمها الله، سيوفي وكزاغنداتي. وجاءت الى اخت لي كبيرة السنّ وقالت «البسي خفّك وازارك». فلبست واخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق اجلستْها

(٦٧) «حرار» في الاصل. وربما كانت «جرّار» «جزّار» «خزّار» «خزّاز» «حزاز» «حرّاز» «حزّار» «حرّاز» الخ. الذهبي «المشتبه» ٩٩ — ١٠٠

(٦٨) «سب» في الاصل

(٦٩) «حمدى» في الاصل

(٧٠) ٤ تموز سنة ١٠٩٥. ولكن هذا التاريخ يقع يوم الاربعاء

(٧١) «وروح» في الاصل. عامية

عليه وحلست الى باب الروشن٠ ونصرنا الله سبحانه عليهم٠ وجئت الى داري اطلب شيئاً مـن سلاحي مـا وجدت الا جهـازات السيوف وعيبَ الكزاغندات٠ قلت «ياامّي، اين سلاحي؟» قالت «يابُني، اعطيت السلاح لمن يقاتل عنّا٠ وما ظننتك سالماً»٠ قلت «فاُختي اي شيء تعمل هاهنا؟» قالت «يابُني، اجلستُها على الروشن وجلست برّا منها٠ اذا رأيت الباطنيّة قد وصلوا الينا دفعتها رميتها الـى الوادي فأراها قد ماتت ولا اراها مـع الفلّاحين والحلّاجين مأسورة»٠ فشكرتُها على ذلك وشكرتها الاخت وجزتها خيراً٠ فهذه النخوة اشدّ من نخوات الرجال

عجوز تضرب بالسيف

وتلثّمت في ذلك اليوم عجوز من جواري(٧٢) جدّي الامير ابي الحسن علي، رحمه الله، يقال لها فُنون(٧٣)٠ فاخذت سيفاً وخرجت الى القتال وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم

وما ينكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي

جدّة أسامة تنصحه

ولقد خرجت يوماً من الايام مع الوالد، رحمه الله، الى الصيد٠ وكان مشغوفاً بالصيد عنده مـن البزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغاريّة ما لا يكاد يجتمع عند غيره، ويركب في اربعين فارساً من اولاده ومماليكه كلٌ منهم خبير بالصيد عارف بالقنص٠ وله بشيزر منصيَّدان: يوماً يركب الى غربيّ البلد الى ازوار وانهار فيتصيَّد الدرّاج وطير الماء والارانب والغزلان ويقتل الخنازير، ويوماً(٧٤) يركب الى الجبل قبليّ البلد يتصيَّد الحجل والارانب٠ فنحن في الجبل يوماً وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلّي فرادى٠ واذا غلام قد جاء يركض قال

(٧٢) «حوار» في الاصل
(٧٣) قابل الذهبي ٣٩٧
(٧٤) «و يوم» في الاصل

«هـذا الاسد!» فسلّمت قبل الوالد، رحمه الله، لكيلا يمنعني مـن قتال الاسد. وركبت ومعي رمحي فحملت عليه. فاستقبلني وهدر. فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطردني شوطاً جيّداً. ثم رجع الى سفح الجبل وقف عليه وهو من اعظم السباع كأنه قنطرةٌ جائعٌ. وكلّما دنونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد الى مكانه. وما ينزل نزلة الا يوءثّر [٣٩ و] في اصحابنا

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمّي يقال له بستكين غرزة(٧٥) على وركيْ حصانه وخرق بمخالبه ثيابه وراناته وعاد الى الجبل. فما كان لي فيه حيلة الا ان صعدت فوقه في سفح الجبل، ثم حدّرت حصاني عليه فطعنته نفّذت الرمح فيه وتركته في جانبه. فتقلّب الى اسفل الجبل والرمح فيه. فمات الاسد، وانكسر الرمح، والوالد، رحمه الله واقف يرانا ومعه اولاد اخيه عزّ الدين يبصرون ما يجري، وهم صبيان

وحملنا الاسد ودخلنا البلد العشاء، واذا جدّتي لابي، رحمهما الله، قد جاءتني فـي الليل وبين يديها شمعة ـ وهي عجوز كبيرة قد قاربت مـن العمر مائة سنة. فما شككت انها قد جاءت تهنّئني بالسلامة وتعرّفني مسرتها بما فعلت. فلقيتها وقبّلت يدها فقالت لي بغيظ وغضب «يابنيّ، ايش(٧٦) يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمّك منك وحشة ونفوراً؟» قلت «ياستّي، انما اخاطر بنفسي فـي هذا ومثله لاتقرّب الـى قلب عمّي». قالت «لا، والله، ما يقرّبك هذا منه وانه يزيدك منه بُعْداً ويزيده منك وحشة ونفوراً». فعلمت انها، رحمها الله، نصحتني فـي قولهـا وصدقتني. ولعمري انّهنّ امّهات الرجال

ولقد كانت هذه العجوز، رحمها الله، من صالحي المسلمين من الدين والدقة والصوم والصلاة على اجمل طريقة. ولقد حضرتها ليلة النصف

(٧٥) «عرره» في الاصل
(٧٦) عامية. أي شيء

من شعبان وهي تصلّي عند والدي، وكان، رحمه الله، من احسن من يتلو كتاب الله تعالى، ووالدته تصلّي بصلاته. فاشفق عليها فقال «ياأُمّي، لو جلست صلّيت من قعود». قالت «يابُنيّ، بقي لي من العمر ما اعيش الى ليلة مثل هذه الليلة؟ لا، والله، ما اجلس». وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة(٧٧) وهي قد شارفت المائة سنة، رحمها الله

مسلمة تقتل زوجها

وشاهدت من نخوات النساء عجباً. وهو ان رجلاً من اصحاب خلَف ابن مُلاعب يقال له عليّ عبد ابن ابي الريداء(٧٨) كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة. فكان ينهض مع ابن مُلاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل

ولقد حدّثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجازيّ انتقل الى خدمة والدي بعد ما قُتل خلَف بن مُلاعب(٧٩) قال «نهضنا يوماً وارسلنا عليّا(٨٠) عبد ابن ابي الريداء بكرة [٣٩ ق] يديدب لنا. فجاءنا وقال «ابشروا بالغنيمة! هذه قافلة كثيرة مقبلة». فنظرنا ما رأينا شيئاً. فقلنا «ما نرى قافلة ولا غيرها». قال «والله، انـي لأرى القافلة وقدّامها فرسان معيّنان(٨١) ينفضان معارفهما». فاقمنا في الكمين الى العصر. فوصلتنا القافلة والفرسان المعيّنان قدّامها فخرجنا اخذنا القافلة»

وحدّثني سالم العجائزيّ قال «نهضنا يوماً وصعد عليّ عبد ابن ابي الريداء يديدب(٨٢) لنا. فنام وما درى الا وقد اخذه تركيّ من سرية

(٧٧) كانت سنة ولادته ٤٦٠ او ١٠٦٨م

(٧٨) «الرندا» في الاصل

(٧٩) سنة ١١٠٦. ابن الاثير في *Recueil* ١ :٢٣٢ ـ ٣٥ وابو الفدا في *Recueil* ١ :٨ ـ ٩

(٨٠) «على» في الاصل

(٨١) «معسان» في الاصل. «معيبان»؟. وادناه «المعسان»

(٨٢) يراقب. فارسية

اتراك ناهضه وقالوا «ايّ شيء انت؟» قال «انا رجل صعلوك قد اكريت جملي لرجل من التجار في القافلة. اعطني(٨٣) يدك انك تعطيني جملي حتى ادلّكم على القافلة». فاعطاه مقدّمهم يده. فمشى بين ايديهم الى ان اوصلهم الينا الى الكمين. فخرجنا عليهم اخذناهم. وتعلّق هو بالذي كان بين يديه اخذ فرسه وعدّته. وغنمنا منهم غنيمة حسنة»

فلمّا قُتل ابن مُلاعب انتقل عليّ [عبد] ابن ابي الريداء الى خدمة توفيل(٨٤) الافرنجيّ صاحب كفر طاب. فكان ينهض بالافرنج الى المسلمين يغنمهم ويبالغ في اذى المسلمين واخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين. وله امرأة معه بكفرطاب تحت يدي الافرنج تنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي. فنفّذت احضرت نسيباً لها من بعض الضياع، واظنّه اخاها، واخفته في البيت الى الليل. واجتمعت هي وهو على زوجها عليّ عبد ابن ابي الريداء قتلاه، واحتملا بجميع مالها. واصبحت عندنا بشيزر وقالت «غضبتُ للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر». فاراحت الناس من هذا الشيطان. ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام

افرنجيّة تجرح مسلماً

وكان في امراء مصر رجل يقال له ندى(٨٥) الصليحيّ في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الايمن الى حدّ شعر راسه والاخرى من حاجبه الايسر الى حدّ شعر راسه. فسألته عنهما فقال «كنت انهض وانا شاب من عسقلان، وانا راجل. فنهضت يوماً الى طريق بيت المقدس اريد حجّاج الافرنج. فصادفنا قوماً منهم. فلقيت رجلاً معه قنطاريّة وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء. فطعنّي الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته

(٨٣) «اعطسي» في الاصل

(٨٤) «بوسل» في الاصل. وقد وردت اعلاه ص٧٣ في الاصل «بو بل»

(٨٥) «بدى» في الاصل. قابل اعلاه ص٤٢ ح٢١

قتله. فمنت(٨٦) اليّ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر [٤٠ و] فوسما وجهي

شيزرية تأسر ثلاثة افرنج

ومن إقدام النساء ان جماعة من الافرنج الحجّاج حجّوا وعادوا الى رفَنيّة، وكانت ذلك الوقت لهم، وخرجوا منها يريدون أفامية. فتاهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذ ذاك بغير سور. فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبعمائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان. وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمّي(٨٧) عزّ الدين ابي العساكر سلطان وفخر الدين ابي كامل شافع، رحمهما الله، ليلقيا عروسين قد تزوّجاهما من بني الصوفيّ الحلبيّين اختين(٨٨). ووالدي رحمه الله في الحصن. فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى افرنجياً. فعاد اخذ سيفه وخرج قتله. ووقع الصياح في البلد. وخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضّة والبهائم

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نَضْرة(٨٩) بنت بُوزرماط خرجت مع الناس اخذت افرنجياً ادخلته بيتها، وخرجت اخذت آخر ادخلته بيتها، وعادت خرجت اخذت آخر. فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج. فاخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوماً من جيرانها قتلوهم

ووصل عمّاي والعسكر في الليل، وقد كان انهزم من الافرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد. فصارت الخيل تعثر(٩٠)

(٨٦) «فمسب» في الاصل
(٨٧) «عماى» في الاصل
(٨٨) «احوات» في الاصل
(٨٩) «بصره» في الاصل
(٩٠) «بعسر» في الاصل هنا وفي السطر التالي

في الليل في القتلى، ولا يدرون بماذا تعثر، حتى ترجّل احدهم وابصر القتلى في الظلام. فهالهم ذلك واعتقدوا ان البلد قد كُبس

افرنجية توءثر ان تكون زوجة اسكاف

وكانت غنيمة ساقها الله عزّ وجلّ الى الناس. فصار الى دار والدي، رحمه الله، عدّة من الجواري(٩١) من سبيهم. وهم، لعنهم الله، جنس ملعون لا يأْلفون لغير جنسهم. فرأى منهم جارية مليحة شابّة فقال لقهرمانة داره «ادخلي هذه الحمّام، واصلحي كسوتها، واعملي شغلها للسفر». ففعلت. وسلّمها الى بعض خدّامه وسيّرها الى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك(٩٢) صاحب قلعة جعبر(٩٣)، وكان صديقه، وكتب اليه يقول «غنمنا من الافرنج غنيمة قد نفّذتُ لك سهماً منها». فوافقته واعجبته واتّخذها لنفسه. فولدت له ولدًا سمّاه [٤٠ ق] بدران(٩٤). فجعله ابوه وليّ عهده. وكبر ومات والده. وتولّى بدران البلد والرعيّة وامّه الآمرة الناهية. فواعدت قوماً وتدلّت من القلعة بحبل ومضى بها اولئك الى سروج(٩٥)، وهي اذ ذاك للافرنج، فتزوّجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر(٩٦)

افرنجي يتنصّر بعد اسلامه

وكان في اولئك(٩٧) الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت لها امرأة شابّة حسنة الخلقة وابن مشتدّ. فاسلم الابن وحسن اسلامه فيما يُرى من صلاته وصومه. وتعلّم الترخيم من مرخّم كان

(٩١) «الحوار» في الاصل
(٩٢) «ملك» في الاصل. والتي قبلها «مالك» في الاصل
(٩٣) على الفرات
(٩٤) ذكره كمال الدين في *Recueil* ٣: ٧٢٨
(٩٥) الى الجنوب الغربي من اورفا. قابل ابن الاثير *Recueil* ١: ٢٠٧
(٩٦) «قلعه حعبر» في الاصل
(٩٧) «دلك» في الاصل

يرخّـم دار والدي . فلمّـا طال مقامه زوّجه الوالـد بامراة مـن قوم صالحين وقام له بكلّ ما احتاجه لعُرسه وبيته . فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكلّ واحد منهمـا خمس ستّ سنين . والغلام راؤول(٩٨) ابوهما مسرور بهما . فاخذهما وامّهما وما فـي بيته واصبح باقامة عند الافرنج وتنصّر هو واولاده بعد الإسلام والصلاة والدين . فالله تعالى يطهّر الدنيا منهم

(٩٨) «والغلام راوول» في الاصل

٨ ـ طبائع الافرنج واخلاقهم

سبحان الخالق الباريء اذا خبر الانسان امور الافرنج سبَّح الله تعالى وقدّسه ورأى بهائم(١) فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوّة والحمل. وساذكر شيئاً من امورهم وعجائب عقولهم

لاعقل لهم

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجيّ قد وصل من بلادهم يحجّ ويعود. فانس بي وصار ملازمي يدعوني «اخي» وبيننا المودّة والمعاشرة. فلمّا عزم على التوجُّه في البحر الى بلاده قال لي «يااخي، انا سائر الى بلادي. واُريدك تُنفّذ معي ابنك (وكان ابني(٢) معي وهو ابن اربع عشرة سنة) الى بلادي يبصر الفرسان ويتعلّم العقل والفروسيَّة. واذا رجع كان مثل رجل عاقل». فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فان ابني لو أُسر ما بلغ به الاسرُ اكثر من رواحه الى بلاد الافرنج. فقلت «وحياتك، هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك ان جدّته تحبُّه وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني اني اردّه اليها». قال «وامُّك تعيش؟» قلت «نعم». قال «لا تخالفها»

عجائب طبُّهم .

ومن عجيب طبُّهم ان صاحب المنيطرة(٣) كتب الى عمّي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابه. فارسل اليه طبيباً نصرانياً يقال

(١) «بهاسا» في الاصل
(٢) ابو الفوارس مُرْهَف. وكان والده اسامة مشغفا به
(٣) قرب افقه عند منبع نهر ابراهيم في شمالي لبنان

له ثابت(٤)٠ فما غاب عسرة ايّام حتىعاد فقلنا(٥) له «ما اسرع ما داويت المرضى!» قال «احضروا عندي فارساً قد طلعت فـي رجله [٤١ و] دمَّلة وامرأة قـد لحقهـا نشاف(٦)٠ فعملت للفـارس لُبيخة ففتحت الدمّلة وصلحت٠ وحميتُ المرأةَ ورطبت مزاجها٠ فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم ،هذا مـا يعرف شي(٧) يداويهم،٠ وقال للفارس ،ايّما احبُّ اليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين؟، قال ،اعيش برجل واحدة،٠ قال ،احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعا،٠ فحضر الفارس والفأس، وانـا حاضر، فحطّ ساقه علـى قرمة خشب وقـال للفارس ،أضربْ رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها،٠ فضربه، وانا اراه، ضربة واحدة مـا انقطعتْ٠ ضربه ضربة ثانية فسال مخُّ الساق، ومات من ساعته٠ وابصر المرأة فقال ،هذه امرأة فـي رأسها شيطان قـد عشقها٠ احلقوا شعرهـا،٠ فحلقوه٠ وعـادت تأكل مـن مأكلهم(٨) الثوم والخردل٠ فزاد بهـا النشاف٠ فقال ،الشيطان قد دخل فـي رأسها،٠ فأخذ الموسى وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح، فماتت في وقتها٠ فقلت لهم ،بقي لكم اليّ حاجة؟، قالوا ،لا،٠ فجئت وقـد تعلّمت من طبّهم ما لم اكن اعرفه»

وقد شاهدت من طبّهم خلاف ذلك٠ كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد(٩)، لعنه الله، من العن الافرنج وارجسهم٠ فرمحه حصان في ساقه فعمّلت عليه رجله وفتحت في اربعة عشر(١٠) موضعاً٠ والجراح

(٤) «ىابب» في الاصل
(٥) مكرّرة
(٦) «نُشاف» في الاصل٠ ولعلها «نِـشاف» فارسيّة بمعنى البله
(٧) عاميه
(٨) «مواكلهم» في الاصل٠ عامية
(٨) «برناده» في الاصل٠ Bernard
(١٠) «اربع عسره» في الاصل

كلّما حم موضع فُتح موضع(١١)، وانا ادعو بهلاكه. فجاءه طبيب افرنجيّ فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخلّ الحاذق. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان

ومن عجيب طبّهم انه كان عندنا بشيزر صانع يقال له ابو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازير. وكلّما ختم موضع فتح موضع. فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه. فرآه رجل افرنجيّ فسأله عنه فقال «هو ولدي». قال «تحلف لي بدينك ان وصفتُ لك دواءً يُبرئُه لا تأخذ من احد تداويه به اجرة حتى اصف لك دواء يبرئُه؟» فحلف. فقال له «تأخذ له اشاناً(١٢) غير مطحون تحرقه وتربّيه(١٣) بالزيت والخلّ الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع. ثم خذ الرصاص المحرّق وربّه(١٤) بالسمن. ثم داوِه(١٥) به فهو يبرئه». فداواه بذلك فبرأ، وختمت تلك الجراح. وعاد الى ما كان عليه من الصحّة

وقد داويتُ بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وازال ما كان يشكوه [٤١ ق]

افرنجي يعترض اُسامة في صلاته

فكلُّ من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية اجفى اخلاقاً من الذين قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين

فمن جفاء اخلاقهم، قبّحهم الله، انني كنت اذا زرت البيت المقدّس دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة. فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداويّة(١٦)، وهم اصدقائي،

(١١) «موصعا فتح موصعا» في الاصل
(١٢) «اساں» في الاصل. وهو نبات
(١٣) «ربيه» في الاصل
(١٤) «ورىه» في الاصل
(١٥) «داو ىه» في الاصل
(١٦) Templars

يُخلون لي ذلك المسجد الصغير اُصلّي فيه٠ فدخلته يوماً فكبّرت ووقفت في الصلاة٠ فهجم عليّ واحد من الافرنج مسكني وردّ وجهي الى الشرق وقال «كذا صلّ !(١٧)» فبادر اليه قوم من الداويّة اخذوه اخرجوه عنّي٠ وعدت انا الى الصلاة٠ فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه(١٨) وردّ وجهي الى الشرق وقال «كذا صلّ !(١٩)» فعاد الداويّة دخلوا اليه واخرجوه، واعتذروا اليّ، وقالوا «هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الايّام، وما رأى من يصلّي الى غير الشرق»٠ فقلت «حسبي من الصلاة!» فخرجت فكنت اعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة الى القبلة

الله طفلاً

ورأيت واحدًا منهم جاء الى الامير معين الدين، رحمه الله، وهو في الصخرة(٢٠) فقال «تريد تبصر الله صغير؟(٢١)» قال «نعم»٠ فمشى بين ايدينا حتى ارانا(٢٢) صورة مريم والمسيح عليه السلام(٢٣) صغير في حجرها فقال «هذا الله صغير» ـ تعالى الله عما يقول الكافرون علوًا كبيرًا

ليس للافرنج غيرة جنسية

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة٠ يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدّث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث٠ فاذا طوّلت عليه خلاها مع المتحدّث ومضى

(١٧) «صلى» في الاصل
(١٨) «بعسه» في الاصل
(١٩) «صلى» في الاصل
(٢٠) جامع الصخرة في اورشليم
(٢١) «صغر» في الاصل٠ وصوابه «صغيراً»
(٢٢) «اوراناه» في الاصل٠ عامية
(٢٣) «السلم» في الاصل

ومما شاهدت من ذلك اني كنت اذا جئت الى نابلس انزل في دار رجل يقال له معزّ داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق. ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل افرنجيّ يبيع الخمر للتجّار يأخذ في قنّينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بتّيّة من هذا الخمر. من اراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا». واجرته عن ندائه(٢٤) النبيذ الذي في تلك القنّينة. فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له «ايّ شيء ادخلك الى عند امرأتي؟» قال «كنت تعبان [كذا] دخلت استريح». قال «فكيف دخلتَ الى فراشي؟» قال «وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه». قال «والمرأة نائمة معك؟» قال «الفراش لها. كنت اقدر امنعها من فراشها؟» [٤٢ و] قال «وحق ديني، ان عدتَ فعلت كذا تخاصمت انا وانت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته.

ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمّاميّ يقال له سالم من اهل المعرّة(٢٥) في حمّام لوالدي، رحمه الله. قال «فتحتُ حمّاماً في المعرّة اتعيّش فيها. فدخل اليها فارس(٢٦) منهم، وهم ينكرون على من يشدّ في وسطه المئزر في الحمّام، فمدّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني، وانا قريب عهد بحلق عانتي، فقال ‹سالم›. فتقرّبتُ منه. فمد يده على عانتي وقال ‹سالم، جيّد! وحق ديني اعملْ لي كذا›. واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمرّ يده عليه فاستوطأه فقال ‹سالم، بحق دينك اعملْ للداما› (والداما بلسانهم الستّ) يعني امرأته. وقال لغلام له ‹قل للداما تجي›. فمضى الغلام احضرها وادخلها. فاستلقت على ظهرها وقال ‹اعملْ كما عملتَ لي›، فحلقت ذلك

(٢٤) «واجره عن بدا ه» في الاصل. «واجره عن بداية» طبعة درنبورغ ص ١٠٠ اما لاندبرغ ص٣٨ فيقول انه قضى ساعتين في درس قراءتها فلم يهتدِ اليها
(٢٥) معرّة النعمان
(٢٦) «فارسا» في الاصل

الشعر وزوجها قاعد ينظر ني. فشكرني ووهبني حقّ خدمتي»

فانظروا الى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة، وماتكون الشجاعة الامن النخوة والانفة من سوء الاحدوثة

ومما يقارب هذا انني دخلت الحمّام بمدينة صور فجلست في خلوة فيها. فقال لي بعض غلماني في الحمّام «معنا امرأة». فلمّا خرجتُ جلستُ على المصاطب واذا التي كانت في الحمّام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع ابيها ولم اتحقق انها امرأة. فقلت لواحد من اصحابي «بالله ابصرْ هذه امرأة هي». وانا اقصد ان يسأل عنها. فمضى، وانا اراه، رفع ذيلها وطلّع(٢٧) فيها. فالتفت اليّ ابوها وقال «هذه ابنتي، ماتت امّها وما لها من يغسل رأسها. فادخلتها معي الحمّام غسلتُ رأسها». قلت «جيّد [ما] عملتَ. هذا لك فيه ثواب»

عجائب طبّهم ايضاً

ومن عجيب طبّهم ما حدّثنا به كليام دبور(٢٨) صاحب طبريّة وكان مقدّماً فيهم. واتّفق انه رافق الامير معين الدين(٢٩)، رحمه الله، من عكّا الى طبريّة وانا معه. فحدّثنا في الطريق قال «كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت. فجئنا الى قسٍّ كبير من قسوسنا قلنا "تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟(٣٠)" قال "نعم". ومشى معنا ونحن نتحقّق انه اذا حطّ يده عليه عوفي. فلمّا رآه قال "اعطوني شمعاً(٣١)". فاحضرنا له قليل شمع، فليّنه وعمله مثل عُقَد الاصبع. وعمل كلّ واحدة في جانب انفه. فمات الفارس. [٤٢ ق]

(٢٧) عامية بمعنى تطلّع

(٢٨) «دبور» في الاصل. Guillaume de Bures (William of Bures)

(٢٩) أنر

(٣٠) «فلان» في الاصل

(٣١) «سمع» في الاصل

فقلنا لـه «قد مات» قـال «نعم. كـان يتعذّب سددتُ انفه حتى يموت ويستريح».»

دع ذا وعَدِّ القولَ في هَرِمِ (٣٢)

سباق افرنجي

نرجع من حديث مجاريهم(٣٣)

حضرت بطبريّة في عيد من اعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقـد خرج معهم عجوزان فانيتان(٣٤) اوقفوهما فـي رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخَر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة. وسابقوا بين العجوزين ومـع كلّ واحدة منهن سريّة مـن الخيّالة يشدّون(٣٥) منها، والعجائز يقمن ويقعن على كلّ خطوة، وهم يضحكون، حتى سبقت واحدة منهن. فاخذتْ ذلك الخنزير في سبقها

محاكمات افرنجية

وشهدتُ يوماً بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة. وكان سبب ذلك ان حراميّة من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتّهموا بها رجلاً مـن الفلاحين وقالوا «هو دل الحرامية على الضيعة». فهرب. فنفّذ الملك(٣٦) فقبض اولاده. فعاد اليه وقال «انصفْني. انا ابارز الذي قال عنّي اني دللت(٣٧) الحرامية على القرية». فقال الملك لصاحب القرية المُقْطع(٣٨) «احضرْ من يبارزه». فمضى الى قريته وفيها رجل حدّاد فاخذه وقال لـه «تبارز» اشفاقاً مـن المُقطع علـى فلّاحيه لا يُقتَل

(٣٢) من بيت للشاعر الجاهلي زُهير بن ابي سُلمى المُزني

(٣٣) «مجاريهم» في الاصل

(٣٤) «فا سات» في الاصل

(٣٥) «سدون» في الاصل

(٣٦) فلك Fulk ملك اورشليم ١١٣١ ــ ٤٢

(٣٧) «دليت» في الاصل. عامه

(٣٨) صاحب الاقطاع. قابل ص ١١٠ س ١٨

منهم واحد فتخرَّب فلاحته. فناهدتُ هذا الحدّاد، وهو شابٌّ قويٌّ الا انه قد انقطع، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ الا انه قويّ النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة. فجاء البسكند(٣٩)، وهو شحنة البلد، فاعطى كلّ واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة

والتقيا(٤٠) فكان الشيخ يلزّ ذلك الحدّاد، وهو يتأخر حتى يُلجئه الى الحلقة، ثم يعود الى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم. فطال الامر بينهمـا والبسكند يستعجلهما وهـو يقول بالعجلة. ونفـع الحدّادَ إدمانه بضرب المطرقة. واعيى ذلك الشيخ. فضربـه الحدّاد، فوقـع، ووقعت عصاه تحت ظهره. فبرك عليه الحدّاد يداخل اصابعه في عينيه ولا يتمكّن من كثرة الدم من عينيه. ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجرّوه شنقوه. وجاء صاحب الحدّاد اعطاه غفارته واركبه خلفه واخذه وانصرف

وهذا من جملة فقههم [٤٣ و] وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرّة مع الامير معين الدين، رحمه الله، الى القدس. فنزلنا نابلس. فخرج الى عنده رجل اعمى، وهو شابٌّ عليه ملبوس جيّد مسلم، وحمل له فاكهة وسأله في ان يأذن له في الوصول الى خدمته الى دمشق. ففعـل. وسألت عنـه فخُبِرتُ ان امّه كانت مزوّجـة لرجل افرنجيّ، فقتلته. وكان ابنها يحتال على حجّاجهم ويتعاون هو وامّه على قتلهم، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج: جلّسوا بتّيّة عظيمة وملأوها(٤١) ماءً وعرضوا عليها دفّ خشب، وكتّفوا ذلك المُتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه فـي البتّيّة ـ فان كان بريـّاً غاص فـي الماء فرفعوه بذلـك الحبل لا يموت في الماء، وان كان له الذنب ما يغوص في الماء. فحرص

(٣٩) viscount
(٤٠) «والنعوا» في الاصل
(٤١) «وملوها» في الاصل

ذلك لمّا رموه في الماء ان يغوص، فما قدر. فوجب عليه حكمهم، لعنهم الله، فكحلوه

ثم ان الرجل وصل الى دمشق فاجرى له الامير معين الدين، رحمه الله، ما يحتاجه. وقال لبعض غلمانه «تمضي به الى برهان الدين البلخيّ، رحمه الله، تقول له ‹تأمر من يُقرىءُ هذا القرآن وشيئاً من الفقه›». فقال له ذلك الاعمى «النصر والغلب! ما كان هذا ظنّي!» قال «وما ظننتَ بي؟» قال «تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارساً». قال «ما اعتقدتُ ان اعمى يصير من الفرسان»

افرنجي لا يأكل الخنزير

ومن الافرنج قوم قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم، ولكنّهم شاذّ لا يقاس عليه

فمن ذلك انني نفّذت صاحباً الى انطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفّي(٤٢) وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في انطاكية. فقال لصاحبي يوماً «قد دعاني صديق لي من الافرنج. تجيء معي حتى ترى زيّهم». قال «فمضيت معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اوّل خروج الافرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بانطاكية ملك يعيش منه. فاحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقّفاً عن الاكل، فقال ‹كُلْ طيّب النفس. فانا ما آكل من طعام الافرنج. ولي طبّاخات مصريّات ما آكل الا من طبيخهن. ولا يدخل داري لحم خنزير›. فاكلتُ وانا محترز وانصرفنا

فانا بعد مجتازٌ في السوق وامرأة افرنجية تعلّقت بي وهي تبربر بلسانهم وما ادري ما تقول. فاجتمع عليّ خلق من الافرنج، فايقنت بالهلاك. واذا ذلك الفارس قد اقبل فرآني. فجاء فقال لتلك المرأة

(٤٢) «تادرس بن الصفي» في الاصل. Theodoros Sophianos

«ما لك ولهذا المسلم؟» قالت «هذا قتل [٤٣ ق] اخي عرس(٤٣)»
وكان هذا عرس فارساً بافامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليها وقال
«هذا رجل برجاسي(٤٤) (اي تاجر) لايقاتل ولايحضر القتال». وصاح
على اولئك المجتمعين، فتفرقوا واخذ بيدي ومضى. فكان تأثير تلك
المواكلة خلاصي من القتل»

(٤٣) Hurso
(٤٤) bourgeoisie

٩ ـ اختبارات وملاحظات

عم أسامة يخاف من الفأرة

ومن عجائب القلوب ان الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان

ولقد رأيت عمّي عزّ الدين ابا(١) العساكر سلطان، رحمه الله، وهو من اشجع اهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة، وهو اذا رأى الفأرة تغيّرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها وقام من الموضع الذي يراها فيه

وكان في غلمانه رجل شجاع معروف بالشجاعة والاِقدام اسمه صندوق يفزع من الحيّة حتى يخرج من عقله· فقال له والدي، رحمه الله، وهو واقف بين يدي عمّي «ياصندوق، انت رجل جيّد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحيّة؟» قال «يامولاي، وايّ شيء في هذا من العجب؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت» ـ يعني مولاه· فقال له عمّي، رحمه الله «قبّحك الله ياكذا كذا»

وغيره يخاف من الحيّة

ورأيت مملوكاً لوالدي، رحمه الله، يقال له لوءلوء· وكان رجلاً جيّداً مقداماً· وقد خرجتُ ليلة من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم اريد احمل عليها من الجبل خشباً قد قطعتُه هناك لناعورة لي· فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظنّ ان الصبح قد دنا، فوصلنا الى قرية يقال لها دُبَيس(٢)، وما تنصّف الليل· فقلت «انزلوا ما ندخل الجبل في الليل»

(١) «ابى» في الاصل
(٢) «دسا» في الاصل

فلمّا نزلنا واسفررنا(٣) سمعنا صهيل حصان. فقلنا «الافرنج!» فركبنا في الظلام وانا احدّث نفسي أني اطعن واحداً منهم وآخذ حصانه ويأخذون دوابّنا والرجال الذين مع الدوابّ. فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان «تقدّموا، اكتفوا هذا الصهيل». فتقدّموا يركضون(٤). فلقوا اولئك وهم في جمع وسواد كثير. فسبق اليهم لؤلؤ وقال «تكلّموا، والا اقتلكم كلّكم» وهو رامٍ جيّد. فعرفوا صوته وقالوا «حاجب لؤلؤ؟» قال «نعم». واذا هم عسكر حماة مع الامير سيف الدين سُوار(٥)، رحمه الله، قد اغاروا(٦) على بلاد الافرنج وعادوا. فكان هذا اقدامه على ذلك الجمع. واذا رأى في بيته حيّة خرج منهزماً وقال لامرأته «دونكِ والحيّة!» فتقوم اليها تقتلها

أسامة يُجرح باهمال الركابي

والمحارب، ولوانه الاسد، اتلفه واعجزه اليسير من العوائق كما اصابني على حمص. [٤٤ و] خرجتُ(٧) وقُتِل حصاني وضُربتُ خمسين سيفاً ــ كلّ ذلك لنفاذ المشيئة، ثم لتواني الركابيّ في تركيب عنان اللجام. فانه عقده في الباشات ولم يشُقّه(٨). فلمّا جذبتُه اريد الخروج من بينهم انحلّ العنان من عقدته في الباشات(٩)، فنالني ما نالني

ويحارب بلا ركاب

وقد كان صاح الصائح يوماً بشيزر من القبلة. فلبسنا وفرغنا. فكان

(٣) «واسنقرنا» في الاصل

(٤) «ركضوا» في الاصل

(٥) أو «سَوار» عامل زنكي في حلب. «اسوار» بموجب ابن الاثير في *Recueil* ١: ٤١٦ ــ ١٧ وكمال الدين في *Recueil* ٣: ٣٧٢

(٦) «غاروا» في الاصل

(٧) «حرحت» في الاصل

(٨) «سمه» في الاصل

(٩) الباشة هي الحلقة

الصائح كذّاباً. فرحل ابي وعمّي، رحمهما الله، ووقفت بعدهما. فوقع الصائح من الشمال من جانب الافرنج. فركّضت حصاني الى الصائح. فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضاً وقالوا «الفرنج!» فعبرت المخاض وقلت للناس «لا بأس عليكم، انا دونكم!» ثم طلعت اركض الى رابية القرافطة، واذا الخيل مقبلة في جمع كثير. وقد تقدّم منهم فارس لابس(١٠) زردية وخوذة، وقد دنا منّي. فقصدته استفرص بعده من اصحابه، واستقبلني. فحين حرّكت حصاني اليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فقمت(١١) اليه بلا ركاب. فلمّا تدانينا ولم يبقَ غير الطعن سلّم عليّ وخدمني واذا هو السلّار(١٢) عُمر خال السلّار زين الدين اسمعيل بن عُمر بن بَختيار. وكان نهض مع عسكر حماة الى بلدكفرطاب. فخرج عليهم الافرنج فعادوا الى شيزر منهزمين. وتقدّمهم الامير سوار، رحمه الله

فسبيل الرجل المُحارب يتفقّد عدّة حصانه، فان ايسر الاشياء واقلّها يوءذي ويُهلك. كلُّ ذلك مقرون بما يجري به الأقدار والأقضية

ضبعة توءذي اُسامة

وقد شهدتُ قتال الأُسد في مواقف لا احصيها، وقتلت عدّة منها لم يشركني احد في قتلها، فما نالني من شيء منها اذى

وخرجت يوماً مع والدي، رحمه الله، الى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الحجل بالبزاة. ويكون الوالد ونحن معه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازياريّة اسفل من الجبل للتخليص من البزاة والوقوف على النبج. فقامت لنا ضبعة فدخلتْ مغارة، وفي تلك المغارة مجحر دخلت فيه. فصحت بغلام لي ركابيّ اسمه يوسف خلع

(١٠) «فارساً لا بساً» في الاصل
(١١) «فتمتُ» في الاصل
(١٢) «سالار» بالفارسية ومعناها القائد

ثيابه وأخذ سكّينه ودخل في ذلك المجحر، وانا في يدي قنطارية مستقبل الموضع اذا خرجتْ طعنتها. فصاح الغلام «اليكم قد خرجت!» فطعنتها اخطأتُها لان الضبعة رقيقة [٤٤ ق] الحجم. وصاح الغلام «عندي ضبعة اخرى!» فخرجت في اثرها. فقمت وقفت في باب المغارة وهي ضيّقة الباب متعلّية قدر قامتين انظر ما يعمل اصحابنا الذين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم. فخرجت ضبعة ثالثة، وانا مشغول بالنظر الى الاوائل، فدستني رمتني من باب المغارة الى القرارة التي تحته فكادت تكسرني. فتأذّيت بضبعة وما تأذّيت بالسباع. فسبحان مقدّر الأقدار ومسبّب الاسباب

اُسامة الصبي يقتل خادمه

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت اظنّه بالنساء. فمن ذلك انني كنت يوماً على باب دار والدي، رحمه الله، وانا صبيّ عمري دون العشر سنين. فلطم غلام لوالدي اسمه محمّد العجميّ صبياً من خدّام الدار فانهزم منه وجاء تعلّق بثوبي، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه. فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني. فجذبت من وسطي سكّيناً ضربته بها فوقعتْ في بزّه الايسر، فوقع. وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف عليه ونظر الجرح واذا تنفّس طلع منه الدم مثل قواقع الماء. فاصفرّ وارتعد ووقع مغشياً عليه. فحُمل الى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال. فما افاق من غشيته الى آخر النهار. وقد مات المجروح وقُبر

رجل يغشى عليه من الفصاد

ومما يقارب ذلك: كان يزورنا الى شيزر رجل من اهل حلب فيه فضل وادب يلعب بالشطرنج طبقة ويلعب بها غائباً يقال لـه ابو المرجّى(١٣) سالم بن قانت، رحمه الله. فكان يقيم عندنا السنة والاكثر والاقل. فربّما

(١٣) «المرحا» في الاصل. قابل ص٧٨ ح١٨٠

مرض فيَصف له الطبيب الفصاد٠ فاذا حضر الفاصد تغيَّر لونه وارتعد٠ فاذا فصده غُشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشدّ فصاده ثم يفيق

وآخر ينشر ساقه

ومما يضادُّ ذلك انه كان في اصحابنا من بني كنانة رجل اسود يقال له عليّ بن فرج(١٤) طلعت في رجله حبّة فتخبّثت، وتناثرت اصابعه وانتنْ رجلُه٠ فقال له الجرائحي «ما لرجلك الا القطع، والا تلفتْ»٠ فحصَّل عنده منشارًا وجعل ينشر ساقه حتى يَغلبه فَيضُ الدم ويُغشى عليه، فاذا هو افاق عاد الى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه٠ وداواها فبرأت

وكان، رحمه الله، من اجلد الرجال واقواهم٠ فكان يركب في سرجه(١٥) بركاب واحد، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبته، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحال٠ وكنت اراه، رحمه الله، [٤٥ و] لا يستطيع رجُل يشابكه ولا يقابضه٠ وكان خفيف الروح مع قوّته وشجاعته

فاصبح يوماً من الايّام، وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر(١٦)، ارسل الى رجال من وجوه بني كنانة فقال «اليوم يوم مَطير٠ وعندي فضلة نبيذ ومأكول تتفضّلون(١٧) عليّ بالحضور لنشرب»٠ فاجتمعوا عنده٠ فجلس في باب البيت وقال «هل فيكم من يقدر يخرج من الباب ان لم اشأ؟» يشير الى قوّته٠ قالوا «لا، والله»٠ قال «هذا يوم مَطير، وما اصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ٠ وما فيكم الا من في داره ما يحتاجه ليومه٠ انفذوا الى دوركم احضروا طعامكم ونبيذكم، والبيت من عندي، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدّث»٠ قالوا كلّهم «نعمّ ما رأيت

(١٤) «فرح» في الاصل
(١٥) «سرحه» في الاصل
(١٦) في شيزر على العاصي
(١٧) «تفضلوا» في الاصل

ياابا الحسن!» وانهذوا احضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده. وكان رجلاً محترماً. فتعالى من خلق الخلق اطواراً. ابن خلدُ هذا وقوة نفسه من خور اولئك وضعف نفوسهم؟

مستسقٍ ينقّ بطنه فيشفى

وقريب من هذا ان رجلاً من بني كنانة حدّثني بحصن الجسر ان رجلاً في الحصن استسقى فشقّ بطنه فبرىء(١٨) وعاد صحيحاً كما كان. فقلت اريد ابصره واستخبره. وكان الذي حدّثني رجل من بني كنانة يقال له احمد بن معبد بن احمد. فاحضر ذلك الرجل عندي. فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال «انا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي، وكبرت حتى عجزت عن التصرّف. وتبرّمتُ بالحياة. فاخذت موسى وضربت به فوق سُرّتي في عرض جوفي، شققته(١٩)، فخرج منه قدر طباختين ماء (يعني قدرين). وما زال الماء ينزّ منه حتى ضمر جوفي. فخيّطته وداويت الجرح فبرأ. فزال ما كان بي». واراني موضع الشقّ في جوفه اطول من شبر ولا شبهة ان هذا الرجل كان له في الارض رزق يستوفيه والا فقد رأيت من استسقى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه الا انه مات من ذلك الفصد. لكن الاجل حصن حصين

فرسان الافرنج يهاجمون شيزر ويفشلون

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير. وقد كنتُ اذا بعثني عمّي، رحمه الله، لقتال اتراك او افرنج اقول له «يامولاي، امرني بما اتدبّر به اذا [٤٥ ق] لقيتُ العدوّ». فيقول «يابنيّ، الحربُ تدبّر نفسها». وصدق

(١٨) «فبرأ» ادناه س١٣. «وبرأ» ص١٥٦ س٦

(١٩) «شقيته» في الاصل. عامية

وكان امرني(٢٠) ان آخذ امرأته واولاده خاتون بنت تاج الدولة تُتُش(٢١) والعسكر وامضي اوصلهم الى حصن مصياث(٢٢)، وهو اذ ذاك له، وكان يُشفِق عليهم من حرّ شيزر. فركبت وركب ابي وعمّي، رحمهما الله، معنا الى بعض الطريق، وعادا وليس معهما الا المماليك الصغار لجرّ الجنائب وحمل السلاح. والعسكر كلّه معي. فلمّا قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب. فقالا «شيءٌ قد جرى في الجسر». فدفعا خيلهما تناقلاً ونحباً الى الجسر(٢٣). وكان بيننا وبين الافرنج، لعنهم الله، هدنة. فنفّذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها الى مدينة الجسر، وهي في جزيرة(٢٤) لا يُعبر اليها الا من جسرٍ معقودٍ(٢٥) بالحجر والكلس لا يصل الافرنج اليه. فدلّهم ذلك الجاسوس على مخاضة. فركبوا جميعهم من افامية فاصبحوا الى ذلك الموضع الذي دلّهم عليه، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا. ونفّذوا بعض السبي والنهب الى افامية وملكوا الدور. وعلّم كلٌّ واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته

فلمّا اشرف ابي وعمّي، رحمهما الله، على الحصن كبّر اهل الحصن وصاحوا. فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان. فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه، ورموا خيلهم، وهم بدروعهم عليها، في غير مخاض. فغرق منهم جماعة كثيرة: كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان. ومضى من سلم منهم منهزمين

(٢٠) سنة ١١٢٢ او ١١٢٣

(٢١) امير حلب السلجوقي واخو ملك شاه صاحب اصبهان

(٢٢) وكذلك فيابي شامة ١:٢٦١. وفي ياقوت ٤:٥٥٦ «مصياب» «مصياف». ولعل الاصح مَصْياد

(٢٣) «ورفعا حلهما ساقلا و بحبا الى الحسر» في الاصل

(٢٤) المقصود شبه جزيرة

(٢٥) «حسرِ مَعقودٌ» في الاصل

لا يلوي بعضهم على بعض، وهم في جمع كثير، وابي وعمّي معهما عشرة مماليك صبيان

فاقام عمّي بالجسر ورجع ابي الى شيزر. واوصلتُ انا اولاد عمّي الى مصياث وعدتُ من يومي وصلت العشاء. فاخبرت بما جرى. فحضرت عند والدي، رحمه الله، وشاورته في ان امضي الى عمّي الى حصن الجسر. قال «تصل في الليل، وهم نيام. ولكن سر اليهم من بكرة». فاصبحت سرت وحضرت عنده. وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج. ونزل اليه جماعة من السبّاح فاخرجوا جماعة من فرسانهم موتى. فقلت لعمّي «يامولاي، ما نقطع روءوسهم ونُنفذها الى شيزر؟» قال «افعلْ». فقطعنا منهم نحوًّا(٢٦) من العشرين راسًا. فكان الدم يسيل منهم كأنهم قد قُتلوا تلك الساعة، ولهم يوم وليلة. واظنّ الماء حفظ فيهم دمهم

وغنم الناس منهم سلاحًا كثيرًا من الزرديّات والسيوف والقنطاريّات والخُوَذ والكلسات الزرد. ورأيت رجلاً من فلّاحي الجسر [٤٦ و] قد حضر عند عمّي ويده تحت ثيابه. فقال له عمّي يمزح معه «ايّ شيء اعزلتَ لي من الغنيمة؟» قال «اعزلتُ لك حصانًا بعدّته وزرديّته وترسًا وسيفًا». ومضى احضر الجميع. فاخذ عمّي العدّة واعطاه الحصان وقال «ايّ شيء بيدك؟» قال «يامولاي، تقابضت انا والافرنجيّ وما معي عدّة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته، واخذت سيفه قتلته به. وتهرّأ الجلد الذي على عقد اصابعي. وورمتْ يدي فما تنفعني». واظهر لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه

اسيرة مسلمة تغرّق نفسها

وكان في جند الجسر رجل كرديّ يقال له ابو الجيش(٢٧) له بنت اسمها رفول(٢٨) قد سباها الافرنج، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من

(٢٦) «نحو» في الاصل
(٢٧) «الحبس» في الاصل. ولعلها «الحبش»
(٢٨) «رفول» في الاصل

لقيه يوما سَبيت رفول!» فخرجنا من الغد نسير على النهر، فرأينا في جانب الماء سوادًا فقلنا لبعض الغلمان «اسبح ابصر ما هذا السواد». فمضى اليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي اخذها فغرقت، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف. فسكنت لوعةُ ابيها اسي الجبس(٢٩) فكانت الصيحة التي وقعت في الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عزّ وجلّ لا بقوّة ولا بعسكر. فتبارك الله القادر على ما يشاء

الخدعة في الحرب

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعاً في الحرب

من ذلك ان اتابك(٣٠) وصل الشأم وانا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة(٣١) وسار قاصدًا دمشق. فلمّا نزلنا القُطَيِّفة(٣٢) قال لي صلاح الدين(٣٣)، رحمه الله «اركبْ وتقدّمنا الى الفُستُقَة(٣٤). اقمْ على الطريق لا يهرب احد من العسكر الى دمشق». فتقدّمت وقفت ساعة واذا صلاح الدين قد اتى في قلّة من اصحابه. فرأينا في عذراء(٣٥) دخاناً. فارسل خيلاً تَبصر ما هو الدخان. فاذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عَذراء، فانهزموا. فتبعهم صلاح الدين و نحن معه لعلّ في ثلثين اربعين فارساً فوصلنا القُصير(٣٦) واذا عسكر دمشق جميعه في القُصير قاطع الجسر، و نحن عند الخان. فوقفنا مستترين بالخان

(٢٩) «الحبش» في الاصل

(٣٠) زنكي

(٣١) ١١٣٥

(٣٢) وتعرف اليوم باسم «القُطَيْفَة». ذكرها المقدسي «احسن التقاسيم» (ليدن ١٨٧٧) ص١٩٠

(٣٣) محمد بن ايوب الغِسْياني

(٣٤) خان بين عذراء والقطيفة. Dussaud ص٢٨٠

(٣٥) قرية لم تزل قائمة لليوم

(٣٦) بين عذراء ودمشق

وتخرج منّا خمسه ستة(٣٧) فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان نوهمهم ان لنا كميناً

[٤٦ ق] ونفّذ صلاح الدين فارساً الى اتابك يعرّفه بما نحن فيه. فرأينا نحواً من عشرة فوارس مقبلين الينا مسرعين، والعسكر خلفهم متتابع. فوصلونا واذا هو اتابك قد تقدّم والعسكر في اثره. فانكر على صلاح الدين فعله وقال «تسرّعتَ الى باب دمشق بثلثين فارساً لتُكسَر ياموسى(٣٨)». ولامه، وهم يتكلّمون بالتركيّ ولا ادري ما يقولون.

فلمّا وصلَنا اوائل العسكر قلت لصلاح الدين «عن امرك آخذ هاؤلاء الذين قد وصلوا او اعبر الى خيل دمشق الواقفة مقابلنا اقلعهم». قال «لا، كذا وكذا ممن ينصح(٣٩) في خدمة هذا! ما تسمع ايّ شيء قد عمل بي؟»

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كانوا قلعونا

وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمّي، رحمه الله، من شيزر يريد كفرطاب ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على كفرطاب من غلّة وقطن. فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن. واذا فارس من اصحابنا يركض من الطلائع قال «جاءت خيل افامية!» فقال عمّي «تقف انت مقابل خيل كفرطاب، واسير انا بالعسكر القى خيل افامية». فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين(٤٠)، ويخرج منّا ثلثة اربعة يخيّلون للفرنج ويعودون(٤١) الى شجر الزيتون، والافرنج يعتقدون اننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم الى ان

(٣٧) «خمس سـ» في الاصل
(٣٨) كذا في الاصل
(٣٩) « نصح» في الاصل
(٤٠) «متوارس» في الاصل
(٤١) « نحيلوا للفرنج و عودوا» في الاصل

يقربوا منّا ونحن لا تتزعزع(٤٢) فيرجعوا. فما زلنا كذلك حتى عاد عمّي وانهزم الافرنج الذين جاءوا من افامية

فقال له بعض غلمانه «يامولاي، ترى ما فعل (يعنيني)؟ تخلّف عنك وما سار معك للقاء خيل افامية». فقال له عمّي «لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفرطاب وراجلها كانوا اخذوا هذا العالم كلّه». فكان الترهيب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت انفع من قتالهم لاننا كنّا في قلّة وهم في جمع كثير

أسامة يسترجع خاماً مسروقاً

وجرى لي مثل ذلك بدمشق(٤٣). كنت يوماً مع الامير معين الدين، رحمه الله، فاتاه فارس فقال قد اخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام فقال لي «نركب اليهم». قلت «الامر لك. أمُر الشاوشيّة تستركب العسكر معك». قال «ايّ شيء حاجتنا الى العسكر؟» قلت «وما يضرنا من ركوبهم؟» قال «ما نحتاجهم». وكان، رحمه الله، من اشجع الفرسان، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرّة

فركبنا في نحو من عشرين فارساً [٤٧ و] فلمّا ان ضحونا نفّذ فارسين كذا وفارسين كذا وفارساً(٤٤) كذا يكشفون الطرقات. وسرنا نحن في قلّة فحانت صلاة العصر. فقال لغلام لي «ياسُونُج، اشرفْ مغرّباً(٤٥) الى ما نصلّي». فما سلّمنا الا والغلام يركض. قال «هذه الرجّالة، وعلى رؤوسهم شقاق الخام، في الوادي!» فقال معين الدين، رحمه الله «اركبوا». قلت «امهلْ علينا نلبس كزاغنداتنا. فاذا رأيناهم رميناهم برؤوس الخيل وطعناهم فما يدرون كثير نحن او قليل». قال «اذا وصلنا اليهم لبسنا»

(٤٢) «رعرع» في الاصل
(٤٣) في اثناء زيارته الاولى سنة ١١٣٨ — ٤٤
(٤٤) «وفارس» في الاصل
(٤٥) «معرب» في الاصل

وركب وسرنا اليهم. فلحقناهم في وادي حلبون(٤٦) وهو واد ضيّق لعلّ ما بين الجبلين خمسة اذرع، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة وطريقه ضيّقة انما يمشي فيها فارس خلف فارس. وهم في سبعين رجلاً بالقسيّ والنشّاب

فلمّا وصلناهم كان(٤٧) غلماننا خلفنا بسلاحنا لا يصلون الينا واولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل. فظننت ان الذين في الوادي من اصحابنا فلاحي الضياع قد فزعوا خلفهم والذين في سفح الجبل هم الحراميّة. فجذبت سيفي وحملت على الذين في السفح. فلمّا طلع الحصان في ذلك الوعر الا باخر روحه. فلمّا صرتُ اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشّابته في فُوقه(٤٨) ليضربني. فصحت عليه وتهدّدته، فمسك يده عنّي. وعدت انزلت الحصان وما اصدّق اخلص منهم

وطلع الامير معين الدين الى اعلى الجبل يظن ان هناك من الفلاحين من يستنفرهم. وصاح السيّ من اعلى الجبل «لا تفارقهم حتى اعود» وتوارى عنا. فرجعت الى الذين في الوادي وقد علمت انهم من الحراميّة فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا، ورموا ما كان معهم من الخام. وخلّصت منهم بهيمتين كانتا معهم عليهما خام ايضاً. وطلعوا الى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا اليهم سبيل

وعاد الامير معين الدين، رحمه الله، آخر النهار وما وجد من يستنفره. ولو كان معنا العسكر كنّا ضربنا رقابهم واستخلصنا كلّ ما معهم

أسامة يخسر رفاقه بقلّة الخبرة

وقد جرى لي مرّة اخرى مثل هذا. والسبب فيه نفاذ المشيئة ثم قلّة المخبرة بالحرب. وذلك اننا سرنا مع الامير قطب الدين خُسرو بن

(٤٦) من قرى دمشق اشتهر في قديم الزمان بخمره. حزقيال ٢٧:١٨

(٤٧) «كانوا» في الاصل. عامية على لغة «اكلوني البراغيث»

(٤٨) «دوله» في الاصل. الفُوق موضع الوتر من السهم. ولعل المطلوب «قوسه»

تَليل(٤٩) من حماة نريد دمشق الى خدمة الملك العادل نور الدين، رحمه الله. فوصلنا الى حمص. فلمَّا عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له «انا اتقدّم ابصر كنيسة بعلبك(٥٠) [٤٧ ق] الى حين تصل». قال «افعل».

فركبت ومضيت. فانا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول «قد خرجت رجّالة حراميَّة على قافلة اخذوها. فاركبْ والقني(٥١) الى الجبل». فركبت ولقيته. فصعدنا في الجبل فرأينا الحراميَّة في وادٍ تحتناء والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي. فقال له بعض اصحابه «تنزل اليهم». قلت «لا تفعلْ. ندور على الجبل ونصير فوق روءوسهم نحول(٥٢) بينهم وبين طريقهم الى المغرب، ونأْخذهم». وكانوا من بلاد الافرنج. فقال آخر «الى ما ندور على الجبل [نكون] قد وصلنا اليهم واخذناهم». فنزلنا. فلمَّا رآنا(٥٣) الحرامية صعدوا في الجبل. فقال لي «اصعدْ اليهم». فحرصت على الطلوع، فما قدرتُ

وكان على الجبل منَّا خيَّالة ستة سبعة. فترجلوا اليهم، وجاءوا يقودون خيلهم معهم، واولئك في جماعة. فحملوا على اصحابنا فقتلوا منهم فارسين واخذوا حصانيهما وحصاناً آخر. وسلم صاحبه. ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة. وعدنا نحن وقد قُتل منَّا فارسان واُخذ منَّا ثلثة حصن والقافلة. فهذا تغرير لقلَّة المخبرة بالحرب

حصار حصن الصوّر

فامَّا التغرير في الاِقدام فما هو للزهد في الحياة. وانما سببه ان الرجل

(٤٩) امير كردي نسيب لابي الهيجاء الهذْباني صاحب إربل. ذكره ابن خلكان ٤٩٤:٤ وابن الاثير في *Recueil* ٢٥٥:٢

(٥٠) «تصل» في الاصل. كأنّ المراد «تعنيل» «تعنايل»؟

(٥١) «والقاني» في الاصل

(٥٢) «نحيل» في الاصل

(٥٣) «دراونا» في الاصل

اذا عُرف بالاِقدام ووُسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبته همّتُه بفعل ما يُذكَر به و يَعجز عنه سواه، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر فتكاد تغلبه و تصدّه عمّا يريد يفعله حتى يضطرّها ويحملها على مكروهها، فيعتريه الزمَعُ و تغيُّر اللون لذلك٠ فاذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشُه

ولقد حضرت حصار حصن الصَّور(٥٤) مع ملك الامراء اتابك زنكي، رحمه الله (وقد تقدّم شيء من ذكره)، وكان للامير فخر الدين قرا ارسلان(٥٥) بن داود بن سُقمان بن اُرتق رحمه الله٠ وكان مشحوناً بالرجال الجرخيّة(٥٦)٠ وذلك بعد كسرته على آمد(٥٧)٠ فاوّل ما ضُربت الخيام نفّذ رجلاً من اصحابه صاح تحت الحصن «ياجماعة الجرخيّة، يقول لكم اتابك ‹ونعمة السلطان(٥٨) لئن قُتِل من اصحابي رجل واحد بنشّابكم لاقطعنّ ايديكم!›» ونصب على الحصن المجانيق٠ فهدمت جانباً منه وما بلغ الهدم منه بحيث نُطلع اليه الرجال٠ فجاء رجل من جنداريّة اتابك من اهل حلب يقال له ابن العُرَيق طلع في تلك الثغرة وضاربهم [٤٨ و] بسيفه فجرحوه عدّة جراح ورموه من البرج الى الخندق٠ وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن٠ وطلع نوّاب اتابك اليه فاخذ مفاتيحه نفّذها الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي(٥٩) بن أُرتُق واعطاه الحصن

(٥٤) في ديار بكر٠ ياقوت ٣:٤٣٥

(٥٥) «درارسلان» في الاصل

(٥٦) «الجرحه» في الاصل٠ الجُرُوخ من ادوات الحرب تُرمى عنها السهام والحجارة

(٥٧) سنة ٥٢٨ او ١ تشرين الثاني سنة ١١٣٣ – ٢١ تشرين الاول سنة ١١٣٤٠ الذهبي «دول الاسلام» (حيدر آباد ١٣٣٧) ٢:٣٤

(٥٨) مغيث الدين محمود السلجوقي سلطان اصبهان

(٥٩) «العازى» في الاصل

واتّفق ان نشّابة جرخ ضربت رجلاً من الخراسانيّة في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة، فمات

فاوّل ما ملك اتابك الحصن استدعى الجرخيّة، وهم تسعة نفر، فجاءوا وقسيّهم موتورة على اكتافهم. فامر بحزّ إبهاماتهم(٦٠) من زنودهم. فاسترخت ايديهم وتلفت

وامّا ابن العُرَيق فداوى جراحه وبرأ بعد ان شارف الموت. وكان رجلاً شجاعاً يَحمل نفسه على الاخطار

حصار البارعة

ورأيت مثل ذلك وقد نزل اتابك على حصن البارعة(٦١) وحوله صفا صخر لا تنضرب عليه الخيام. فنزل اتابك في الوطا ووكّل به الامراء بالنوبة. فركب اليه اتابك يوماً والنوبة للامير ابي بكر الدُّبيسي(٦٢) وما معه اهبة القتال. فوقف اتابك وقال لابي بكر «تقدّمْ قاتلْهم». فزحف باصحابه وهم اعراء. وخرج اليهم الرجال من الحصن. فتقدّم رجل من اصحابه يقال له مزيد(٦٣)، لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة، فقاتل قتالا عظيماً وضرب فيهم بسيفه وفرّق جمعهم. وجُرح عدة جراح. فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه. ثم عوفي. وقدّمه ابو بكر الدُّبيسيّ وخلع عليه وجعله من جملة جنداريّته

الغسياني يقطع من شاه نصفين

كان اتابك يقول لي «ثلاثة غلمان: احدهم يخاف الله تعالى وما يخافني

(٦٠) «بهاما بهم» في الاصل
(٦١) أو بارين للشمال الغربي من حمص
(٦٢) قابل «دُبيس» اعلاه ص١٤٢ س١٩
(٦٣) «مر ىد» في الاصل

(يعني زين الدين علي كوجك(٦٤)، رحمه الله)، والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى (يعني نصير الدين سُنْـقر(٦٥)، رحمه الله)، والآخر ما يخاف الله ولا يخافني (يعني صلاح الدين محمّد بن ايّوب الغِسياني، رحمه الله)»

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه، ما يحقّق قول اتابك٠ وذلك انّا زحفنا يوماً الى حمص وقد اصاب الارض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرّف من ثقل(٦٦) الارض بالوحل، والرجّالة يتناوشون٠ وصلاح الدين واقف وانا معه، ونحن نرى الرجّالة بين ايدينا٠ فعدا واحد من الرجّالة الى رجّالة حمص اختلط بهم، وصلاح الدين يراه٠ فقال لواحد من اصحابه «هات ذاك الرجل الذي كان الى جانبه»٠ فمضى احضره٠ فقال له «مَن هذا الذي كان انهزم من جانبك ودخل الى حمص؟» قال «والله، يامولاي، ما اعرفه»٠ قال «وسّطوه(٦٧)»٠ قلت «يامولاي [٤٨ ق] تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل٠ فان كان يعرفه او متّه بنسب ضربتَ رقبته٠ والا ترى فيه رأيك»٠ فكأنه جنح الى قولي٠ فقال غلام له من خلفه «يهرب واحد يؤخذ الذي كان الى جانبه تُضربَ رقبته او يوسَّط»٠ فاحنقه كلامه وقال «وسّطوه»٠ فرفسوه كجاري العادة ووسّطوه، وما له ذنب الا اللجاج وقلّة مراقبة الله تعالى

وحضرتُه مرّة اخرى بعد ما وصلنا من مصافّ بغداد(٦٨)، واتابك يجتهد يُظهر تجلّداً وقوّة وقد امر صلاح الدين بالمسير الى الامير قَفْجاق(٦٩)

(٦٤) وزير قطب الدين مَودود بن زنكي في الموصل
(٦٥) وزير زنكي
(٦٦) «ثقل» في الاصل
(٦٧) اي اقطعوه شطرين من الوسط
(٦٨) سنة ٥٢٧ (١١٣٢ ـــ ٣٣) على ما يظهر من الذهبي «تاريخ الاسلام» ٦٠٢ (ملحق درنبورغ)
(٦٩) أو قـفْجاق أو قـبجاق، امير تركماني٠ وهو بموجب ابي الفداء «تاريخ» (الاستانة ١٢٨٦) ٣:١٦ ابن آلب ارسلان شاه٠ وبموجب ابن الاثير «الكامل» (طبعة طرنبرغ) ١١:٥٠ ابن ارسلان تاش

يكبسه(٧٠). فسرنا من الموصل ستّة ايّام ونحن في غاية الضعف. فوصلنا موضعه وجدناه قد تعلّق في جبال كوهسان. فنزلنا على حصن يقال له ماسُرة. ونزلنا عليه طلوع الشمس، وامرأة طلعت من الحصن قالت «معكم خام؟» قلنا «ايّ وقت هذا للبيع والشراء؟» قالت «نريد الخام نكفّنكم به. فالى خمسة ايّام تموتون كلّكم». تريد ان ذلك الموضع وَخِمٌ.

فنزل ورتّب الزحف الى الحصن من بكرة وامر النقّابين يدخلون تحت برج من تلك البراج. والحصن كلّه معمور بالطين، والرجال الذين فيه من الفلّاحين. فزحفنا اليه وطلعنا الى تلّه. ونقب الخراسانيّة برجاً فوقع وعليه اثنان. امّا الواحد فمات وامّا الاخر فاخذه اصحابنا وجاءوا به الى(٧١) صلاح الدين. قال «وسِّطوه». قلت «يامولاي، هذا شهر رمضان. وهذا رجل مسلم لا تتقلّد اثمه». قال «وسّطوه حتى يسلّموا الحصن». قلت «يامولاي، الحصن الساعة تملكه». قال «وسِّطوه». ولجّ فيه فوسّطوه. واخذنا الحصن في ساعتنا تلك. فجاء الى الباب يريد النزول من الحصن. فكان معه جماعة وغلبه

فوكّل به قوماً من اصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرّق العسكر الذي كان معه. ثم ركب وقال لي «اركب». فركبنا وطلعنا الى الحصن. فجلس واحضر ناطور الحصن يعرّفه بما فيه، واحضر بين يديه نساء وصبياناً(٧٢) نصارى ويهود

فحضرت عجوز كرديّة. فقالت لذلك الناطور «رأيت ابني فلاناً؟(٧٣)». قال «قُتل. ضربته نشّابة». قالت «فابني فلان؟» قال «وسّطه الامير». فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطنة المندوفة.

(٧٠) «بكبسه» في الاصل
(٧١) مكرّرة
(٧٢) «وصبان» في الاصل
(٧٣) «فلان» في الاصل

فقال لها الناطور «اسكتي لاجل الامير». قالت «واي شيء بقي الامير يعمل بي. كان لي ولدان قتلهما». فدفعوها

ومضى الناطور فاحضر شيخاً كبيراً مليح الشيبة يمشي على عصاتين(٧٤) سلّم على صلاح الدين. قال «اي شيء هو هذا الشيخ؟» قال «إمام الحصن». قال «تقدّمْ ياشيخ، تقدّمْ تقدّمْ» حتى جلس بين يديه. فمدّ يده قبض لحيته واخرج سكّينة مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حنَكَمته، فبقيت في يده مثل البرجم(٧٥) [٤٩ و] فقال له ذلك الشيخ «يامولاي، بايّ شيء استوجبتُ ان تفعل بي هذا الفعل؟» قال «بعصيانك على السلطان(٧٦)». قال «والله، ما علمتُ بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة اعلمني واستدعاني»

ويسبي المعاهدين

ثم رحلنا نزلنا على حصن اخر للامير قفجاق يقال له الكرخيني(٧٧). اخذناه فوجدوا فيه خزانة ملأى(٧٨) بثياب خام مخيّطة صدقة لفقراء مكّة. وسبى من كان في الحصن من النصارى واليهود المعاهدين. ونهب ما فيهما نهب الروم. فالله سبحانه يتجاوز عنه

اقفُ من هذا الفصل عند هذا الحدّ متمثلاً بقولي:

دع ذكرَ من قتَل الهوى فحديثُهم فينا يشيّب ذكرُهُ المولودا

واعود الى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيليّة في حصن شيزر

الاسماعيلية تهاجم شيزر

اجتاز في ذلك اليوم(٧٩) ابن عمّ لي يقال له ابو عبد الله بن هاشم،

(٧٤) «عصانس» في الاصل. لغة في «عصاوين»
(٧٥) البرجم» في الاصل. تعريب «پرچم» الفارسية ومعناها شعر ذنب عجل البحر
(٧٦) مغيث الدين محمود
(٧٧) بجوار اربل. ياقوت ٤:٢٥٧
(٧٨) «ملا» في الاصل
(٧٩) سنة ١١٣٥

رحمه الله، فرأى رجلاً من الباطنيّة في برج من دار عمّي معه سيفه وترسه والباب مفتوح وبرّا منه خلق كثير من اصحابنا وما يجسر احد يدخل اليه. فقال ابن عمّي لواحد من اولئك الوقوف «ادخلْ اليه». فدخل اليه. فما امهله الباطنيّ ان ضربه فجرحه. فخرج وهو مجروح. فقال لاخر «ادخلْ اليه». فدخل اليه. فضربه الباطنيّ فجرحه وخرج كما خرج صاحبه. فقال ابن عمّي «يارئيس جواد(٨٠)، ادخل اليه». فقال له الباطني «ياموءخر(٨١)، انت ليش(٨٢) ما تدخل؟ تداخل السيّ الناسَ وانت واقف. ادخل حتى تبصر». فدخل اليه الرئيس(٨٣) جواد، فقتله. وهذا الجواد حكم في الثقاف، رجل شجاع ثقف

وما مرّ عليه الا اعوام قليلة حتى رأيته بدمشق سنة اربع وثلاثين وخمس مائة(٨٤) وهو علاف يبيع الشعير والتبن، وقد كبر حتى صار كالشنّ البالي يعجز عن دفع الفأر عن علفه، فما بال الرجال. فكنت اتعجّب من اوّل امره، عندما صار اليه اخر امره، وما احال من حاله طولُ عمره

تأملات أسامة بشأن طول العمر (٨٥)

ولم ادرِ ان داء الكِبَر عامّ، يعدي كلّ من اغفله الحِمام. فلمّا توقّلت ذروة التسعين، وابلاني مرُّ الايّام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف. ولصقت من الضعف بالارض، ودخل من الكبر

(٨٠) «يارسن حواد» في الاصل

(٨١) «ناموأحر» في الاصل وعلى الهامش «ياموأجع»

(٨٢) عامية

(٨٣) «الرسن» في الاصل

(٨٤) ٢٨ آب ١١٣٩ – ١٦ آب ١١٤٠

(٨٥) ومما يجدر ملاحظته ان أسامة هنا يغيّر اسلوبه القصصي البسيط ويعمد الى الفصيح المسجّع

بعضي في بعض. حتى انكرت نفسي، وتحسَّرت على امسي. وقلت في وصف حالي:

لمَّا بلغتُ من الحياة الى مدًى قد كنتُ أهواه تمنَّيتُ الرَّدَا
لم يُبقِ طولُ العمر منّي مُنّةً ألقَى بها صرفَ الزمان اذا اعتَدَا

[٤٩ ق] ضَعُفَت قُواي وخانني الثِّقَتان من بَصَري وسَمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضتُ حَسِبتُ أنّي حاملٌ جَبَلاً وأمشي إن مَشَيتُ مُقيَّدَا
وأدبُّ في كفّي العصا وعَهِدتُها في الحرب تَحمل أسمراً ومُهنَّدَا
وأبيتُ في لِينِ المِهادِ مُسهَّداً قَلِقاً كأنّني افترشتُ الجَلمَدَا
والمرءُ يُنكَس(٨٦) في الحياة وبينما بَلغ الكمال وتمَّ عاد كما بَدَا

وانا القائل بمصر اذمُّ من العيش الراحة والدعة وما كان اعجل تقضّيه واسرعه:

أُنظُر الى صرف دهري كيف عوّدني بعد المشيب سوى عاداتيَ الأُوَلِ
وفي تغايُرِ صرفِ الدهرِ مُعتَبَرٌ وأيُّ حالٍ على الايّام لم تَحُلِ
قد كنتُ مُسعِرَ حربٍ كلما خمدت أذكيتُها باقتداحِ البِيضِ في القُلَلِ
هَمِّي مُنازَلةُ الأقرانِ أحسِبُهم فَرائسي(٨٧) فهمُ منّي على وجَلِ
أمضي على الهَولِ من ليلٍ وأهجُمُ من سَيلٍ وأقدِمُ في الهيجاء من أجَلِ
فصِرتُ كالغادة المِكسالِ مَضجَعُها على الحَشايا وراءَ السِّجفِ والكِلَلِ
قد كدتُ أعفن من طُولِ الثَّواء كما يصدَى الهِندُ طولُ اللّبثِ في الخَلَلِ
أرُوحُ بعد دُروع الحَربِ في حُلَلٍ من الدَّبيقيّ فبؤساً لي وللحُلَلِ
وما الرَّفاهةُ من رامي ولا أرَبي ولا التنعُّمُ من شأني ولا شُغُلي
ولستُ أرضى بلوغَ المجدِ في رَفَهٍ ولا العُلَى دونَ حَطْمِ البِيضِ والأسَلِ(٨٨)

وكنت اظنُّ ان الزمان لا يبلى جديدُه، ولا يهي شديدُه، وأنّي اذا عدت الى الشأم وجدت به ايّامي كعهدي، ما غيَّرها الزمان بعدي. فلمّا عدتُ كذّبتني وعود المطامع، وكان ذلك الظنّ كالسراب اللامع. اللهمّ غفراً هذه جملة اعتراضيّة عرضتْ، ونفثة(٨٩) همٍّ اقضتْ ثم انقضت

(٨٦) قابل القرآن ٢١:٦٦ و٣٦:٦٨
(٨٧) «فرايسى» في الاصل
(٨٨) قابل ابن عساكر «التاريخ الكبير» (دمشق ١٣٣٠) ٢:٤٠٣
(٨٩) «ونفثة» في الاصل

ركوب الاخطار لا ينقص الاعمار

اعود الى المهمّ، وادع تعسُّف الليل المدلهمّ. لو صفت القلوبُ من كدر الذنوب، [و] فوّضتْ الى عالم الغُيوب، علمتْ ان ركوب اخطار الحروب، لا يُنقص مدّة الاجل المكتوب

فانني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيليّة في حصن شيزر معتبرًا(٩٠) يوضح للشجاع العاقل، والجبان الجاهل، ان العمر موقّت مقدّر، لا يتقدّم اجله ولا يتأخر. وذلك اننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال، صاح انسان من جانب الحصن «الرجال!» وعندي [٥٠ و] جماعة من اصحابي معهم سلاحهم. فبادرنا الى الذي صاح. فقلنا «ما لك؟» فقال «حسّ الرجال هاهنا». فجئنا الى اصطبل خالٍ مظلم. فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما، فقتلناهما. ووجدنا رجلاً من اصحابنا مقتولاً، وهو على شيء، فرفعناه وجدنا تحته رجلاً من الباطنيّة قد تسجّى ورفع المقتول على صدره. فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجامع بالقرب من ذلك المكان وفيه جراح عظيمة، ولا نشكّ انه ميت لا يتحرّك ولا يتنفّس. وانا والله كنت احرّك رأسه على بلاط الجامع برجلي، ولا نشك انه ميت(٩١). وكان المسكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسًّا. فادخل رأسه ليحقّق السماع، فجذبه واحد منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنّوا انه قد مات. فقضى الله سبحانه ان خُيّطت تلك الجراح في رقبته وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ما كان عليه. فتبارك الله مقدِّر الاقدار وموقّت الآجال والاعمار

وشاهدت ما يقارب ذلك وهو ان الافرنج، لعنهم الله، اغاروا(٩٢) علينا ثلث الليل الاخر. فركبنا نريد تتبعهم. فمنعنا عمّي عزّ الدين،

(٩٠) قابل عنوان الكتاب «كتاب الاعتبار»

(٩١) هذه العبارة تكرّرت بحروفها في سطر سابق اما للتاكيد او بسهو من الناسخ

(٩٢) «غاروا» في الاصل

رحمه‌الله، من اتباعهم وقال «هذه مكيدة. والاغارة تكون بالليل». وخرج من البلد رجّالة خلفهم ما علمنا بهم. فوقع الافرنج ببعضهم عند رجوعهم فقتلوهم وسلم بعضهم

واصبحت انا واقفاً في بندر قنين قرية عند المدينة. فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة: امّا اثنان فكالناس، وامّا الاوسط فما وجهه كوجوه الناس. فلمّا دنوا منّا واذا الوسطانيّ منهم قد ضربه افرنجيّ بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى اذنيه، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره. وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين. فدخل البلد وخاط الجرائحي وجهه وداواه. فالتحم ذلك الجرح، وعوفي وعاد الى ما كان عليه الى ان مات على فراشه. كان يبيع الدوابّ ويسمّى ابن غازي المشطوب. وانما سُمّي المشطوب بتلك الضربة

فلا يظنّ ظانٌ ان الموتَ يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخّره شدّة الحذر، ففي بقائي اوضح معتَبر. فكم لقيت من الاهوال، وتقحّمت المخاوف والاخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الاسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام [٥٠ ق] والجروخ ــ وانا من الاجل في حصن حصين ــ الى ان بلغتُ تمام التسعين، فرأيت الصحّة والبقاء، كما قال صلّى الله عليه وسلّم «كفى بالصحة داءً». فأُعقبت النجاةُ من تلك الاهوال، ما هو اصعب من القتل والقتال. وكان الهلاك في كنه الجيش، اسهل من تكالف العيش. استرجعتْ منّي الايّامُ بطول الحياة، سائرَ محبوب اللذّات، وشاب كدرُ النّكد، صفو العيش الرّغد. فانا كما قلت:

مع الثمانين عاث الدهرُ في جلَدي ... وساءني ضعفُ رجلي واضطرابُ يدي
اذا كتبتُ فخطّي جدّ(٩٣) مضطربٌ ... كخطِّ مرتعش الكفّين مرتعدِ
فاعجبْ لضعف يدي عن حملها قلماً ... من بعد حطم القنا في لبّة الأسدِ
وان مشيتُ وفي كفّي العصا ثقُلتْ ... رجلي كأنّي أخوض الوحلَ في الجلَدِ

(٩٣) «حد» في الاصل. «خط» في ابي شامة ١: ١١٤

فقل لمن يتمنّى طول مُدّته هدي عواقب طول العُمر والمُدد(٩٤)

ضعفت القوّة ووهت، وتقضّت بُلَهْنِيَةُ العيش وانتهت· ونكسني التعمير بين الانام، والى الخمول يؤول تعثُّرُ الظلام، حتى اصبحت كما قلت:

تناستني الآجال حتى كأنّني دريئةُ(٩٥) سَفْرٍ بالفلاة حَسيرُ
ولمّا تَدَعْ منّي الثمانون مُنّةً كأنّي اذا رُمتُ القيام كَسيرُ
أؤدّي صلاتي قاعداً وسجودُها عليّ اذا رُمتُ السُّجودَ عَسيرُ
وقد أنذرتني هذه الحالُ أنّني دَنَت رحلةٌ منّي وحان مَسيرُ

مديح صلاح الدين

اعجزني وهن السنين، عن خدمة السلاطين· فهجرت مغشىّ ابوابهم، وقطعتُ اسبابي من اسبابهم، واستقلتُ من خدمتهم، ورددت عليهم ما خوّلوني من نعمهم، لعلمي ان ضعف الهرم، لا يقوى على تكاليف الخدم، وان سوق الشيخ الكبير، لا ينفق على الامير· ولزمت داري، وجعلت الخمول شعاري· ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة، ومفارقة الاوطان والتربة، الى ان تسكن نفارتها عن مرارتها(٩٦)· وصبرتُ صبر الاسير على قيده، والظمآن ذي الغلّة عن ورده· [فاداني اليه(٩٧)] مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان [٥١ و] الاسلام والمسلمين، جامع كلمة الايمان، قامع عَبَدة الصلبان، رافع علم العدل والاحسان، محيي دولة امير المؤمنين ابو المظفّر يوسف بن ايّوب· جمّل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه، وايّدهم بماضي سيوفه وارائه، واصفى عليهم وارفَ ظلّه، كما اصفى لهم من الاكدار موارد فضله، وانفذ في البسيطة عالي اوامره ونواهيه، وحكّم صوارمه في اعناق اعاديه، برحمة

(٩٤) ابو شامه ١:١١٤ يقتبس هذه الابيات فقابلها

(٩٥) «رديّة» في عماد الدين الكاتب الاصفهاني «خريدة القصر وجريدة العصر» (طبعة در نبورغ) ص١٤٢ (٩٦) الكلمات الاربع الاخيرة نصف ممحوّة في الاصل

(٩٧) كلمتان ممحوتان في الاصل· والاشارة لا شك الى دعوة صلاح الدين لاسامة سنة ١١٧٤ وكان أسامة مقيما في حصن كيفا من اعمال ديار بكر

نقبت عنّي في البلاد ودوني الحَزن والسهل، بمضيعة من الارض لا مال لديّ ولا اهل. فاستنقذني مـن انياب النوائب(٩٨) برأيه الجميل، وحملني الى بابه العالي(٩٩) بانعامه الغامر الجزيل. وجبّر ما هاضه الزمان منّي، ونفق على كرمه ما كسد عليّ من سواه من علوّ سنّي. فغمرني بغرائب الرغائب، وانهيني(١٠٠) من انعامه اهنى(١٠١) المواهب، حتى رعى لي بفائض الكرم، ما اسلفت سواه من الخدم. فهو يعتدّ لي بذلك ويرعاه، رعاية من كأنه شاهده وراه. فعطاياه تطرقني وانا راقد، وتسري اليّ وانـا محتسب قاعد. فانا مـن إنعامه كلّ يـوم فـي مزيد، وإكرام كتكرمة الاهل وانا اقلّ العبيد. امكّنني جميلُ رأيه حادث الحادثات، واخلف لـي إنعامه ما سلبه الزمـان بالنكبات المجحفات. وافاض عليّ من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسُنّته(١٠٢)، ما يعجز الاعناق عـن حمل ايسر مـنّته. ولم يُبقِ لـي جودُه املاً ارجو نيله، اقضي زمانـي بالدعاء به نهاره وليله. والرحمة التي تدارك بها العباد، واحيى بركاتها البلاد. والسلطان الذي احيى سُنّة الخلفـاء الراشدين، واقـام عمود الدولة والدين. والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه، والجواد الذي لا ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه. فلا زالت الأمّة من سيوفه فـي حمىً منيع، ومن إنعامه في ربيع مريع. ومن عدله في انوار تكشف عنهم ظُلَمَ المظالم، وتكفّ بسطة يد المعتدي الغانم، ومن دولته القاهرة في ظلٍ وارف، وفي سعود متتابع آنفٍ في اثر سالف، ما تعاقب الليل والنهار، ودار الفلك الدوّار:

(٩٨) بعد وفاة فخر الدين قرا ارسلان (١١٦٧) صاحب حصن كيفا لم يحفل ابنه نور الدين بأسامة

(٩٩) في دمشق. وكان مرهف بن اسامة مقرّبا من صلاح الدين. وربما كان هو الذي حمل مولاه على استدعاء والده الشيخ

(١٠٠) كذا في الاصل ولعلها «واهنيني» ــ واهنأني

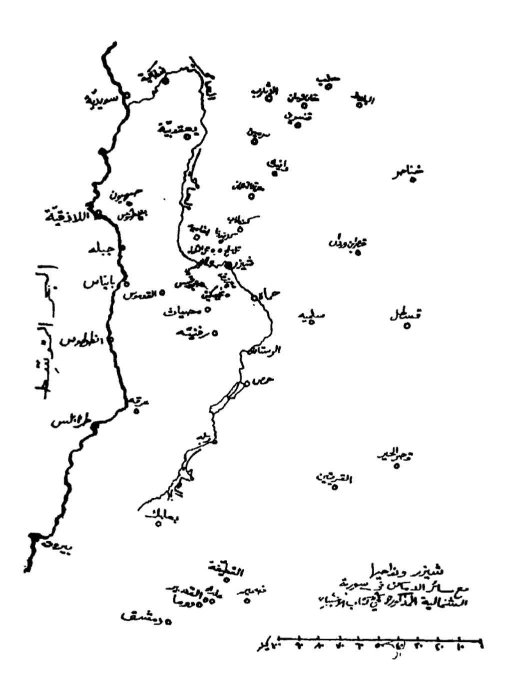
(١٠١) كذا في الاصل ولعل المراد «أهنأ»

(١٠٢) «وسنه» في الاصل

دعوتُ وقـد أمَّن الحافظان(١٠٣) وذو العرش ممَّن دعاه قريبُ
وقـد قال سبحانـه للعبـاد سَلُوني فانـي سميعٌ مُجيبُ(١٠٤)

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلواته على سيِّدنا محمَّد وعلى آله اجمعين.
وحسبنا الله ونِعم الوكيل(١٠٥)

(١٠٣) ملاكان. القرآن ٦:٦١ و٨٢:١٠
(١٠٤) قابل القرآن ١١:٦٤
(١٠٥) قابل القرآن ٣:١٦٧



حلب
سويدية
اللاذقية
جبله
بانياس
القدموس
مصياف
رفنيه
انطرطوس
عرقه
طرابلس
بيروت
شيزر
حماة
سلميه
قسطل
الرستن
حمص
بعلبك
دمشق
شيزر ونواحيها
مع سائر الاماكن في سورية
الشمالية المذكورة في كتاب الاعتبار
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠ كيلو

الباب الثاني
نكت ونوادر

الباب الثاني

نكت ونوادر

[٥١ ق] وما بكم من نعمة فمن الله(١)

فصل(٢)

قال اُسامة بن مرشد بن عليّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين: هذه طُرَف اخبار حضرتُ بعضها وحدّثني بعضها من اثق به جعلتُها الحاقاً في الكتاب، اذ ليست ممّا قصدتُ ذكره فيما تقدّم. وابدأت منها بأخبار الصالحين، رضي الله عنهم اجمعين

(١) القرآن ١٦:٥٥. ولعل الآية حشو من الناسخ
(٢) هذا العنوان هو الوحيد من نوعه في الاصل

١ ــ أخبار الصالحين

بصيرة البصري

حدّثني الشيخ الامام الخطيب سراج الدين ابو طاهر ابرهيم بن الحسين ابن ابرهيم خطيب مدينة إسعرد(٣) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستّين وخمس مائة(٤): قال حدّثني ابو الفرج البغدادي(٥) قال «شهدتُ مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمّد البصريّ ببغداد وحضرتْه امرأة. فقالت ‹ياسيّدي انك كنت ممن شهد في صداقي. وقد فقدتُ كتاب المهر. واسألك(٦) ان تتفضّل عليّ تقيم الشهادة بمجلس الحكم›. فقال ‹ما افعل حتى تأتيني بحلاوة›. فوقفت المرأة وهي تظنُّ انه يمزح بقوله. فقال ‹لا تطيلي. لا امضي معك الا ان تأتيني بالحلاوة›. فمضت ثم عادت فاخرجت مــن جيبها مــن تحت الازار قرطاساً فيه حلاوة يابسة. فتعجّب اصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعفّفه. فاخذ القرطاس وفتحه ورمــى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس. ونظره فــاذا هو(٧) كتاب صداق المرأة الذي فقدتْه. فقال ‹خذي صداقك. فهذا هو›. فاستعظم من حضره ذلك. فقال ‹كلوا الحلال(٨) وقد فعلتم ذلك واكثر منه››»

سمع ابن قبيس

حدّني الشيخ ابو القسم الخضر بن مسلم بن قاسم(٩) الحمويّ بها

(٣) من اعمال ديار بكر. «إسعرت» في ياقوت ٢: ٣٤١ و٣٨٠

(٤) ١٩ آب ــ ١٧ ايلول سنة ١١٦٧

(٥) ابن الجوزي المتوفى سنة ١٢٠١ ترجمه ابن خلكان ١: ٥٠٠ ــ ٥٠١

(٦) «واسلك» في الاصل

(٧) «ما هو» في الاصل

(٨) قابل القرآن ٢: ١٦٣ و٥: ٩٠ و٨: ٧٠.

(٩) «قُسم» ادناه ــ قُسَيم

يوم الاثنين سلخ ذي الحجّة سنة سبعين وخمس مائة(١٠) قال: قدم علينا رجل شريف من اهل الكوفة فحدّثنا قال: حدّثني ابي قال: كنت ادخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويُجلّني فقال لي يوماً «انا احبّ اهل الكوفة لشخص واحد منهم. كنت بحماة وانا شابّ وقد توفّي بها عبدالله بن ميمون الحمويّ، رحمه الله. فقالوا له ‹اوص›. فقال ‹اذا انا متّ وفرغتم من جهازي اخرجوني الى الصحراء ويطلع انسان على الرابية التي تشرف على المقابر وينادي: ياعبدالله بن القُبيس(١١) مات عبد الله بن ميمون، فاحضره وصلّ عليه›. فلمّا مات فعلوا ما امرهم به. فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي وجاء حتى صلّى عليه، والناس قد بهتوا لا يكلّمونه. فلمّا فرغ من الصلاة انصرف راجعاً من حيث جاء. فتلاوموا اذ لم يتمسّكوا به ويسألونه(١٢). فسعوا [٥٢ و] في اثره. ففاتهم ولم يكلّمهم كلمة واحدة

شهوة شيخ مائت تتحقق

وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا. وكان في مسجد الخضر(١٣) رجل يُعرَف بمحمّد السمّاع(١٤) له زاوية الى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلّي جماعة ويعود الى زاويته وهو رجل من الاولياء. فحضرته وهو بالقرب من منزلي الوفاة، فقال «كنت اشتهي على الله تعالى ان يحضرني شيخي محمّد البُستيّ». فما جُمع له جهاز غسله وكفنه الا وشيخه محمّد البُستيّ عنده. فتولّى غسله وخرج خلفه تقدّمنا صلّى عليه ثم نزل في زاويته فاقام بها مُديدة وهو يزورني وانا ازوره. وكان،

(١١) «العبيس» في الاصل
(١٢) «ويسلو نه» في الاصل
(١٣) «الحصر» في الاصل. وقصة الخضر في القرآن ١٨: ٥٩ — ٨١
(١٤) «السماع» في الاصل
(١٠) ١ آب سنة ١١٧٤

رحمه الله، عالماً زاهداً ما رأيت ولا سمعت بمثله. كان يصوم الدهر ولا يشرب ماء ولا يأكل خبزاً ولا شيئاً من الحبوب، انما يفطر على رمانتين او عنقود عنب او تفاحتين ويأكل في الشهر مرة او مرتين لقيمات من لحم مقلي. فقلت له يوماً «ياشيخ ابا عبدالله، كيف وقع لك ان لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء وانت صائم ابداً؟» قال «صمت وطويت فوجدتني اقوى على ذلك. فطويت ثلثاً وقلت ‹اجعل ما آكله كالميتة(١٥) التي تحل للمضطر بعد ثلث›. فوجدتني اقوى على ذلك فتركت الاكل وشرب الماء فألفت النفس ذلك وسكنت اليه فاستمررت(١٦) على ما انا عليه»

وكان بعض اكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له. فحضر عندي في اوّل شهر رمضان وقال «قد جئت مودعاً». قلت «والزاوية التي قد اعدت لك والبستان؟» قال «ياأخي، ما لي حاجة فيهما. ولا اقيم». وودعني ومضى، رحمه الله. وذلك سنة سبعين وخمس مائة(١٧)

وهو في المعرة يشعر بموت آخر في مكة

وحدثني الشيخ ابو القسم الخضر بن مسلم بن قسيم(١٨) الحموي بحماة في التأريخ المتقدم(١٩) ان رجلاً كان يعمل في بستان لمحمد ابن مسعر، رحمه الله، اتى اهله وهم جلوس على ابواب دورهم بالمعرة فقال «سمعت الساعة عجباً!» قالوا «وما هو؟» قال «مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فاعطيته فجدد وضوءه. واعطيته خيارتين فابى ان يأخذها. فقلت ‹ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي. ولمحمد بن مسعر نصفه بالملك›. فقال ‹احججت العام؟› قلت ‹نعم›. قال ‹البارحة

(١٥) القرآن ٢:١٦٨
(١٦) «فاسمرت» في الاصل
(١٧) ١ آب سنة ١١٧٤ — ٢١ تموز سنة ١١٧٥
(١٨) «قسم» في الاصل و «قاسم» اعلاه
(١٩) ٥٧٠ او ١١٧٤ — ٧٥

بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلّينا عليه»». فخرجوا في اثره ليستفهموا منه فرأوه علـى بُعد لا يمكنهـم لحاقه. فعادوا وورخُوا(٢٠) الحديث فكان الامر كما قال

عليّ يداوي قيّم مسجده

حدّثني الاجلّ شهاب الدين ابو الفتح المظفّر بن اسعد بن مسعود بن بَختكين بـن سُبُكتكين مولى معزّ الدولة ابن بويه بالموصل فـي ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستّين وخمس مائة(٢١) [٥٢ ق] قال «زار المقتفي بامر(٢٢) الله امير المؤمنين، رحمه الله، مسجد صَنَدُوديا(٢٣) بظاهر الأنبار على الفرات الغربيّ، ومعه الوزير وانا حاضر. فدخل المسجد وهو يُعرف بمسجد امير المومنين عليّ، رضوان الله عليه، وعليه ثـوب دمياطيّ(٢٤) وهـو متقلّد سيفاً حليتُه حديـد لا يَدري انّه امير المومنين الامن يعرفه. فجعل قيّم المسجد يدعو للوزير. فقال الوزير «ويحك! ادعُ لامير المومنين». فقال له المقتفي، رحمه الله «سله عمّا ينفع. قل له ما كان من المرض الذي كان في وجهه؟ فأني رأيته في ايّام مولانا المستظهر، رحمه الله، وبه مرض في وجهه». وكان في وجهه سلعة قد غطّت اكثر وجهه فاذا اراد الأكل سدّها بمنديل حتى يصل الطعام الى فمه. فقال القيم «كنتُ كمـا تعلم، وانا اتردد الى هذا المسجد مـن الانبار. فلقيني انسان فقال: لوكنت تتردّد الى فلان (يعني مقدّم الانبار) كما تتردّد الى هذا المسجد لاستدعى(٢٥) لك طبيباً يزيل هذا المرض من وجهك. فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري. فنمت تلك الليلة

(٢٠) لغة في «أرّخوا»
(٢١) ٥ حزيران سنة ١١٧٠
(٢٢) لامر (؟)
(٢٣) «صَنَدَوداء» بموجب جغرافيي العرب
(٢٤) راجع اعلاه ص١١ ح٢٥
(٢٥) «لاستدعا» في الاصل

فرأيت امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول ما هذه الحضره؟ (يعني حضرة في الارض)٠ فشكوت اليه ما بي، فاعرض عنّي٠ ثم راجعته وشكوت اليه ما قاله لـي ذلك الرجل فقال: انت ممن يريد العاجلة(٢٦)٠ ثم استيقظتُ والسلعة مطروحة الى جانبي وقد زال مـا كان بـي،٠ فقال المقتفي، رحمه الله، ،صدق،٠ ثم قـال لي(٢٧) ،تحدّثْ معه وابصرْ ما يَلتمسه واكتب بـه توقيعاً واحضره لأُعلّم عليه،٠ فتحدّثت معه٠ فقال ،انا صاحب عائلة وبنات٠ واريد فـي كلّ شهر ثلاثة دنانير،٠ فكتبت عنه مطالعة وعنونَتهـا الخادمُ: فيّم مسجد عليّ٠ فوقّع عليها بما طلب وقال لي ،امضِ ثبّتها في الديوان،٠ فمضيت ولم اقرأ(٢٨) منها سوى ،يوقّع له بذلك،٠ وكان الرسم ان يكتب لصاحب المطالعة توقيعٌ ويُؤخذ منه ما فيه خط امير المؤمنين٠ فلمّا فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت ،قيّم مسجد عليّ،: ،بخط المقتفي امير المؤمنين، ـ صلوات الله عليه٠ ولو كان طلب اكثر من ذلك لوقّع له به»

النبي يرسل فقيراً الى ملكشاه

وحدّثني القاضي الامام مجد الدين ابو سليمان(٢٩) داود بن محمّد ابن الحسن بن خالد الخالديّ، رحمه الله، بظاهر حصن كيفا يوم الخميس ثاني وعشرين ربيع الاوّل سنة ستّ وستّين وخمس مائة(٣٠) عن مـن حدّثه ان شيخاً استأذن على خواجا بُزُرْك(٣١)، رحمه الله٠ فلمّا دخل

(٢٦) القرآن ١٧:١٩

(٢٧) الضمير يرجع للمحدّث شهاب الدين ابي الفتح المظفّر

(٢٨) «اقر» في الاصل

(٢٩) «سلمس» في الاصل

(٣٠) ٣ كانون الاول سنة ١١٧٠

(٣١) أو «بـُزُرْك» تعريب «بـُزُرْك» الفارسية ومعناهـا العظيم٠ واللقب «خواجا بزرك» ـ الوزير نلقب به نظام الملك وزير ملكشاه٠ وفي «كتاب العصا» لأسامه (طبعه در بورغ ١٨٩٣) ص١٢ «خواجا بزرك نظام الدين سلامي»

عليه رآه شيخاً مهيباً بهياً(٣٢)٠ فقال «من اين الشيخ؟» قال «من غربة»٠ قال «الك حاجة؟» قال «انا رسول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [٥٣ و] الى ملك شاه»٠ قال «ياشيخ، ايّ شيء هذا الحديث؟» قال «ان اوصلتَني اليه بلّغتُه الرسالة٠ والا فانا لا ازول حتى اجتمع به وابلّغه ما معي»

فدخل خواجا بزرك على السلطان فاعلمه بما قاله الشيخ فقال «احضروه»٠ فلمّا حضر قدّم للسلطان مسواكاً ومشطاً وقال له «انا رجل لي بنات٠ وانا فقير لا اقدر على جهازهن وتزويجهن٠ وكلّ ليلة ادعو الله تعالى ان يرزقني ما اجهّزهن به فنمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوتُ الله سبحانه بمعونتي عليهن٠ فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما يرى النائم فقال لي ‹انت تدعو الله تعالى ان يرزقك ما تجهّز به بناتك؟› قلت ‹نعم يارسول الله›٠ فقال ‹امضِ الى فلان (وسمّاه بعز(٣٣) ملك شاه ــ يعني السلطان) وقل له: قال لك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جهّزْ بناتي›٠ فقلت ‹يارسول الله، ان طلب منّي علامة ما اقول له؟› قال ‹قل له بعلامة انك كلّ ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك›»٠ فلمّا سمع ذلك السلطان فقال «هذه علامة صحيحة٠ وما إطّلع عليها غير الله تبارك وتعالى٠ فان مؤدّبي امرني ان اقرأها كل ليلة عند النوم٠ وانا افعل ذلك»٠ ثم امر له بكلّ ما طلبه لتجهيز بناته واجزل عطيّته وصرفه

وآخر الى الوزير عليّ بن عيسى

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن ابي عبدالله محمّد بن فاتك(٣٤) المقرىء قال «كنت اقرأُ يوماً على ابي بكر بن مجاهد رحمه الله المقرىء ببغداد اذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رَثّة وطيلسان وثياب رثّة٠ وكان ابن مجاهد يَعرف الشيخ فقال له ‹ايش(٣٥) كان من خبر الصبية؟› قال

(٣٢) «بهما» في الاصل
(٣٣) «بعر» في الاصل
(٣٤) «فا بك» في الاصل
(٣٥) عامية٠ ايُّ شيء

«ياابابكر(٣٦)، جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبتُ منّي اهلي دانـقاً(٣٧) يشترون به سمناًوعسلاً يحنّكونها به فلم اقدر عليه. فبتُّ مهموماً. فرأيت النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فيما يرى النائم. فقال: لا تغتمّ ولا تحزن. واذا كان غداً فادخلْ على عليّ بن عيسى وزير الخليفة(٣٨) فأقرِه(٣٩) منّي السلام وقل له: بعلامة انّك صلّيت عليّ عند قبري(٤٠) اربعة الاف مرّة ادفع لي مائة دينار عيناً»

فقال ابو بكر بن مجاهد «ياابا عبد الله في هذا فائدة». وقطع على القراءة واخذ بيد الشيخ وقام فدخل به على عليّ بن عيسى. فرأى عليّ ابن عيسى مع ابن مجاهد شيخاً لم يعرفه فقال «من اين لك ياابابكر هذا؟» فقال «يُدنيه الوزير ويسمع منه كلامه». فادناه وقال «ما خطبُك ياشيخ؟» فقال الشيخ «ان ابا بكر بن مجاهد يعلم ان لي ابنتين. والبارحة جاءتني ثالثة. فطلبتْ منّي اهلي دانقاً يشترون به عسلاً وسمناً يحنّكونها به فلم اقدر عليه. فبتُّ البارحة وانا مهموم. [٥٣ ق] فرأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المنام وهو يقول: لا تغتمّ ولا تحزن. اذا كان غداً فادخلْ على عليّ بن عيسى واقْرِه (٤١) منّي السلام وقل له: بعلامة انك صلّيت عليّ عند قبري اربعة الاف(٤٢) مرّة ادفعْ لي مائة دينار عيناً». قال [ابن] مجاهد فاغرورقتْ عينا عليّ بن عيسى بالدموع. ثم قال: صدق الله ورسوله وصدقتَ ايّها الرجل. هذا شيء ما كان علم به الا الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم. ياغلام هات الكيس. فاحضره بين يديه. فضرب بيده اليه فاخرج منه مائة دينار وقال: هذه المائة التي قال

(٣٦) «يا ابا بكر» في الاصل
(٣٧) «دانـق» الفارسية ـ سدس الدرهم
(٣٨) المقتدر بالله (٩٠٨ ـ ٣٢)
(٣٩) «فاقره» في الاصل
(٤٠) قبر النبي
(٤١) «واقره» في الاصل
(٤٢) «الف» في الاصل

لك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهذه مائة اخرى للبشارة. وهذه مائة اخرى هديّة منّا لك. فخرج الرجل من عنده وفي كمّه ثلاثمائة دينار»

عليّ يشفي مفلوجاً

وحدّثني القائد(٤٣) الحاجّ ابو عليّ في شهر رمضان في سنة ثمان وستّين وخمس مائة(٤٤) بحصن كيفا قال «كنت بالموصل جالساً في دكّان محمّد بن عليّ بن محمّد بن مامة. فاجتاز بنا رجل فُقّاعي(٤٥) ضخم غليظ الساقين فدعاه احمد(٤٦) وقال ‹ياعبد عليّ(٤٧) بالله حدّث فلاناً حديثك› . قال ‹انا رجل ابيع الفقّاع كما ترى. فبتُ ليلة اربعاء وانا صحيح. فانتبهت وقد انحلّ وسطي فلا اقدر على الحركة ويبست رجلاي ودقّتا(٤٨) حتى بقيت الجلد والعظم. فكنت ازحف الى وراء لان رجلي ما كانت تتبعني ولا كان فيها حركة بالجملة. فقعدت في طريق زين الدين عليّ كوجك رحمه الله. فامر بحملي الى داره فحُملتُ. واحضر الاطبّاء وقال: اريد ان تداووا هذا. فقالوا: نعم نداويه ان شاء الله. ثم اخذوا مسماراً فاحموه ثم كوَوا به رجلي فما حسست به فقالوا لزين الدين: ما نقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة. فوهب لي دينارين وحماراً. فبقي الحمار عندي نحواً من شهر ومات. فعدت قعدت في طريقه. فوهب لي حماراً اخر فمات. ووهب لي حماراً ثالثاً فمات. فعدت الى سؤاله. فقال لواحد من اصحابه: اخرجْ بهذا فارمه في الخندق. فقلت له: بالله ارمني على وركي فاني ما احسّ فيها بما يكون. فقال: ما

(٤٣) على مائة. الطبري ٣:١٧٩٩
(٤٤) ١٦ نيسان ــ ١٥ ايار سنة ١١٧٣
(٤٥) بائع الفُقّاع، شراب من الشعير يعلوه الزبد
(٤٦) كذا في الاصل. والمطلوب «محمد»
(٤٧) يظهر انه كان شيعيا
(٤٨) «ودقب» في الاصل. عامية

ارميك الا على رأسك. فاذا رسول زين الدين رحمه الله قد جاءني فردّني اليه – وكان الذي قاله من رميي مزاحاً. فلمّا احضروني بين يديه اعطاني اربعة دنانير وحماراً

فبقيت على ما انا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأنّ رجلاً وقف عليّ وقال: قم. قلت: من انت؟ قال: انا عليّ بن ابي طالب. فقمت وقفت. فأنبهتُ امرأتي وقلت: ويحكِ! قد ابصرت كذا وكذا! فقالت: ها انت قائم. فمشيت على رجلي وزال ما كان بي ورجعت كما تراني. فمضيت الى عند زين الدين الامير عليّ كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورآني [٥٤ و] قد زال ما رآه بي فاعطاني عشرة دنانير»».
فسبحان الشافي المعافي

جزاء الامانة

حدّثني الشيخ الحافظ ابو الخطّاب عمر بن محمّد بن عبد الله بن معمر العُلَيمي بدمشق اوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة(٤٩) قال: حكى لي رجل ببغداد عن القاضي ابي بكر محمّد بن عبد الباقي بن محمّد الانصاريّ الفَرَضيّ المعروف بقاضي المارستان انه قال «لمّا حججت بينا اطوف بالبيت اذ وجدت عقداً من اللؤلؤ فشددته في طرف احرامي. فبعد ساعة سمعت انساناً ينشده في الحرم وقد جعل لمن يردّه عليه عشرين ديناراً. فسألته علامة ما ضاع له فاخبرني. فسلّمته اليه. فقال لي «تجيء معي الى منزلي لادفع اليك ما جعلته لك». فقلت «ما لي حاجة الى ذلك. وما دفعته اليك بسبب الجعالة. وانا من الله بخير كثير». فقال «ولم تدفعه الا لله عزّ وجلّ؟». فقلت «نعم». فقال «استقبل بنا الكعبة وأمّنْ على دعائي». فاستقبلنا الكعبة فقال «اللهمّ اغفر له وارزقني مكافأته». ثم ودّعني ومضى

ثم اتّفق انني سافرت من مكّة الى ديار مصر. فركبت في البحر

(٤٩) هذه السنة ابتدات في ١٠ تموز سنة ١١٧٦

متوجهاً الى المغرب. فاخذت الرومُ المركبَ وأسرتُ فيمن أسر. فوقعتُ في نصيب بعض القسوس. فلم ازل اخدمه الى ان دنت وفاته. فاوصى باطلاقي

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب. فجلست اكتب على دكّان خبّاز وكان ذلك الخبّاز يعامل بعضَ تُناة تلك المدينة. فلمّا كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التاني‹(٥٠) الى الخبّاز فقال «سيّدي يدعوك لتحاسبه». فاستصحبني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه. فلمّا رأى معرفتي في الحساب وخطّي طلبني من الخبّاز فغيّر ثيابي(٥١) وسلّم اليّ جباية ملكه وكانت له نعمة ضخمة. واخلى(٥٢) لي بيتاً في جانب داره

فلمّا مضت مُديدة قال لي «ياابا بكر ما رأيُك في التزويج؟» قلت «ياسيّدي انا لا اطيق نفقة نفسي فكيف اطيق النفقة على زوجة؟» قال «انا اقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك». فقلت «الامر لك». فقال «ياولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتّى» ــ ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي وانا اقول «رضيت». وباطني في ذلك كظاهري. فقال لي «الزوجة ابنتي». واحضر جماعة وعقد العقد

فلمّا كان بعد ايّام قال لي تهيّأ لدخول بيتك. ثم امر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجمّل [٥٤ ق] والآلات. ثم أُجلست في المرتبة، وأُخرجت العروسُ تحت النمط. فقمتُ لتلقيها. فلمّا كشفتُ النمط رأيت صورةً ما رأيت في الدنيا اجمل منها. فهربت من الدار خارجاً. فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هربي. فقلت «ان الزوجة ما هي التي ذكرتَ لي فيها من العيوب ما ذكرتَ». فتبسّم وقال «ياولدي

(٥٠) و «التاني» هو صاحب الاملاك الواسعة
(٥١) «ثيابي» في الاصل. «تناءتي» طبعة درنبورغ ص١٣٢
(٥٢) «واخلا» في الاصل

هي زوجتك، وليس لي ولد سواها، وانما ذكرت لك ما ذكرتُ لئلا تستقلّ ما تراه». فعدتُ وجُليتْ عليّ

فلمّا كان من الغد جعلتُ اتأمل ما عليها من الحلى والجوهر الفاخر. فرأيت من جملة ما عليها العقد الذي وجدتُه بمكّة. فعجبت من ذلك. واستغرقني الفكر فيه. فلمّا خرجتُ من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال «جَدَعَ الحَلالُ انفَ الغَيْرة». فشكرته على ما فعله معي. ثم استولى عليّ الفكر في العقد ووصوله اليه. فقال لي «فيمَ تفكر». فقلت «في العقد الفلاني. فاني حججت في السنة الفلانيّة فوجدته في الحرم او عقداً(٥٣) يشبهه». فصاح وقال «انت الذي رددت عليّ العقد؟» قلت «انا ذاك». فقال «ابشرْ. فان الله قد غفر لي ولك. فاني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة ان يغفر لي ولك وان يرزقني مكافأتك. وقد سلّمت اليك مالي وولدي وما اظنّ اجلي الا وقد قرب». ثم اوصى اليّ ومات بعد مُديدة قريبة رحمه الله»

(٥٣) «عقد» في الاصل

٢ ـ الشفاء بطرق غريبة

شرب البيض يشفي الخرّاج

وحدّثني الامير سيف الدولة زنكي بن قَراجا، رحمه الله، قال «دعانا شاهنشاه بحلب (وهو زوج اخته)٠ فلمّا اجتمعنا عنده نفّذنا الى صاحب لنا كنّا نعاشره و نتادمه خفيف الروح طيّب العشرة فاستدعيناه٠ فحضر٠ فعرضنا عليه الشرب فقال «انا محتم(١)٠ امرني الطبيب بالحمية ايّاماً حتى تُشَقّ هذه السلعة»٠ وكان في مؤخر رقبته سلعة كبيرة٠ فقلنا «وافقنا اليوم و تكون الحمية من غد»٠ ففعل وشرب معنا الى اخر النهار٠ فطلبنا من شاهنشاه شيئاً نأكله٠ فقال «ماعندي شيء(٢)»٠ فلاججناه حتى اجابنا الى ان يُحضر لنا بيضاً نَقليه على المَنقل٠ فاحضر البيض٠ واحضرنا صحناً وكسرنا البيض وافرغنا ما فيه في الصحن٠ ووضعنا المِقْلَى على المنقل ليحمَى٠ فاشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبته السلعة ان يشرب البيض٠ فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فانساب جميع ما في الصحن في حلقه فشربه٠ وقلنا لصاحب الدار «عوضنا عن البيض»٠ فقال «والله ما افعل»٠ فشربنا٠ ثم افترقنا

فانا في السحر في فراشي والباب يُقرَع٠ فخرجت جارية تنظر من بالباب٠ فاذا هو صديقنا ذلك٠ فقلت [٥٥ و] «احضريه»٠ فجاءني وانا في الفراش وقال «يامولاي، تلك السلعة التي كانت في رقبتي ذهبت٠ وما بقي لها اثر»٠ فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبته٠ فقلت «ايّ شيء اذهبها؟» قال «الله سبحانه٠ ما عرفت انني استعملت شيئاً ما كنت

(١) «محسي» في الاصل
(٢) «سا» في الاصل

استعمله غير شربي لذلك(٣) البيص النيء»· فسبحان الفادر المبلي المعافي

أكل الغربان يشفي من الفتق

وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الاكبر مظفَّر والاخر مالك(٤) بن عيَّاض من اهل كفر طاب· وهما تاجران(٥) يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد· ومظفَّر آدِر له(٦) قيلة عظيمة فهو منها في تعب· فسار في قافلة على السماوة(٧) الى بغداد· فنزلت القافلة بحيّ من احياء العرب، فضيَّفوهم بطيور طبخوها لهم· فتعشّوا و ناموا· فانتبه انبه رفيقه الذي في جانبه وقال له «انا نائم او مستيقظ؟» قال «مستيقظ· لو كنت نائماً ما تحدَّثتَ» · قال «تلك القيلة قد ذهبت وما بقي لها اثر»· فنظر فاذا هو قد عاد كغيره الى الصحَّة

فلمَّا اصبحوا سألوا العرب الذين اضافوهم ايّ شيء اطعموهم· قالوا «نزلتم بنا ودوابّنا عازبة· فخرجنا اخذنا فراخَ غرْبان طبخناها لكم»· فلمَّا وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولّي(٨) المارستان حكايته· فنفَّذ حصّل فراخ غربانٍ واطعمها لمن به هذا المرض· فلم تنفعه ولا اثّرتْ فيه· فقال «تلك الفراخ التي اكلها كان زقّها ابوها افاعي(٩)· فلذلك كان نفعها»

(٣) مكرَّرة في الاصل
(٤) «ملك» في الاصل
(٥) «نجار» في الاصل
(٦) «ادركه» مطبوعة درنبورغ ص١٣٤
(٧) بادية سورية
(٨) كذا في الاصل
(٩) «افاعىاء» في الاصل

معجزات ابن بطلان في الطب

ومما يشاكل ذلك ان رجلاً اتى يوحنا بن بطلان(١٠) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدّم في صنعة الطبّ وهو في دكّانه بحلب. فشكى اليه مرضه فرآه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ودقّت رقبته وتغيّرت سحنته. فقال له «ياولدي، ما لي والله فيك حيلة. ولا بقي الطبّ ينجع فيك». فانصرف

ثم بعد مدّة اجتاز به وهو في دكّانه وقد زال عنه ما كان به من المرض وضمر جوفه وحسنت حاله. فدعاه ابن بطلان فقال «ما انت الذي حضرت عندي من مدّة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقّت رقبتك وقلتُ لك «ما لي فيك حيلة»؟» قال «بلى». قال «فبماذا تداويتَ حتى زال ما كان بك؟» قال «والله ما تداويت بشيء. انا رجل صعلوك ما لي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في دُنّين خلّ. فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز». فقال له ابن بطلان [٥٥ ق] «بقي من الخلّ شيء؟» قال «نعم». قال «امش معي ارني(١١) الدنّ الذي فيه الخلّ». فمشى بين يديه الى بيته اوقفه على دنّ الخلّ. فافرغ ابن بطلان ما كان فيه من الخلّ فوجد في اسفله افعيين(١٢) قد تهرّأتا(١٣). فقال له «يابنيّ، ما كان يقدر يداويك بخلّ فيه افعيان(١٤) حتى تبرأ الا الله عزّ وجلّ»

(١٠) طبيب مسيحي في بغداد مارس الطب في حلب وانطاكية. ولقد ترجم له ابن ابي اصيبعة «طبقات الاطباء» (مصر ١٨٨٢) ١:٢٤١ ـ ٤٣ والقفطي «اخبار الحكماء» مصر (١٣٢٦ هـ) ١٩٢ ـ ٢٠٨

(١١) «ارسى» في الاصل

(١٢) «افعاس» في الاصل

(١٣) «بهرما» في الاصل. قابل ادناه ص٢١٥ ح٩٣

(١٤) «افعاس» في الاصل

يداوي بالخل

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطبّ. فمن ذلك ان رجلاً اتاه، وهو في دكّانه بحلب، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يُفهَم منه اذا تكلّم. فقال له «ما صنعتك؟» قال «انا مغربل». فقال «احضر لي نصف رطل خلّ حاذق». فاحضره. فقال «اشربه». فشربه وجلس لحظة، فذرعه القيء. فتقيّأ طيناً كثيراً في ذلك الخلّ. فانفتح حلقه واستوى كلامه. فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته «لا تداووا بهذا الدواء احداً فتقتلوه. هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربلة تراب ما كان يُخرجه الا الخلّ».

يميّز بين البرص وحب الصبا

وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدّي الاكبر ابي المتوّج مقلّد بن نصر بن منقذ(١٥). فظهر في جدّي ابي الحسن عليّ بن مقلّد بن نصر ابن منقذ، رحمه الله، وضَحٌ وهو صبي صغير. فاقلق ذلك اباه واشفق عليه من البرص. فاحضر ابن بطلان وقال له «ابصر ما قد ظهر في جسم عليّ». فنظره وقال «اريد خمس مائة دينار حتى اداويه وأذهب هذا عنه». فقال له جدّي «لو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمس مائة دينار». فلمّا رأى الغضب من جدّي قال «يامولاي، انا خادمك وعبدك وفي فضلك. ما قلتُ ما قلتُه الا على سبيل المزح. وهذا الذي بعليّ بهقُ الشباب. واذا ادرك زال عنه. فلا تحملْ منه همّاً. ولا يقول لك سواي «انا اداويه ويتسوّق عليك، فهذا يزول عند بلوغه». فكان كما قال

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب يقال لها برّة لحقها بردٌ في رأسها. فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة والمخملة والمناديل

(١٥) «المقلّد بن منقذ الكناني الكفرطابي» في ابن الاثير «الكامل» (طبعة طرنبرغ) ٩:٣٤٣

حتى تصير كأنّ على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من البرد. فاحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال «حصّلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحيّ عارية(١٦) او مُكرىً من بعض الطبيبين. فهو يعود اليه باسره». فحصّلتْ له الكافور. ثم اصبح القى كل ما على رأسها وحشا(١٧) شعرها بذلك الكافور وردّ على رأسها ما كان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد. فنامت لحظة وانتبهت [٥٦ و] تشكو الحر والكرب في رأسها. فالقى عنها شيئاً شيئاً مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد. ثم نفض شعرها من ذلك الكافور، وذهب عنها البرد وصارت تتقنّع بقناع واحد

أسامة والطبيب

وقد جرى لي بشيزر ما يقارب ذلك. لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمّى وعليّ الثياب الكثيرة والفرو. ومتى تحرّكتُ في جلوسي ارتعدتُ وقام شعر بدني وتجمّعتُ. فاحضرت الشيخ ابا الوفاء تميماً(١٨) الطبيب فشكوت اليه ما اجده. فقال «احضروا لي بطّيخة هنديّ(١٩)». فأُحضرت. فكسرها وقال لي «كلْ منها [ما] استطعت». قلت «ياحكيم، انا في الموت من البرد، والرمّان بارد. كيف آكل هذه مع بردها؟» قال «كلْ كما اقول لك». فاكلت. فما انتهى اكلي منها حتى عرقتُ وزال ما كنت اجده من البرد. فقال لي «الذي كان بك من غلبة الصفراء ما كان من برد حقيقيّ»

حلم يشفي المَغْص

وقد تقدّم ذكر شيء من غريب الاحلام. وقد اوردت في كتابي المترجم

(١٦) اي عيارة
(١٧) «وحسى» في الاصل
(١٨) «سيم» في الاصل
(١٩) «بطحه هندى» في الاصل

بـ «كتاب النوم والاحلام» من ذكر النوم والاحلام وما قيل فيها وفي اوقات الرؤيا وفي اقوال العلماء فيها، واستشهدت على اقوالهم بما ورد فيها من اشعار العرب ووسّعتُ الشرح واشبعت فيه المعنى. فما حاجة الى ذكر شيء منه هاهنا. لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته فاوردته

كان لجدي سديد الملك ابي الحسن عليّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ، رحمه الله، جارية يقال لها لوءلوءة ربّت والدي مجد الدين ابا سلامة مرشد بن عليّ، رحمه الله. فلمّا كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه. فرُزقني. فربتْني تلك العجوز الى ان كبرتُ وتزوّجتُ وانتقلتُ من دار والدي، رحمه الله، فانتقلتْ معي. ورُزقتُ الاولاد فربّتهم. وكانت، رحمها الله، من النساء الصالحات صوّامةً قوّامةً. وكان يلحقها القولنج وقتاً بعد وقت. فلحقها يوماً من الايّام واشتدّ بها حتى غاب ذهنها، وآيسوها. فبقيتْ كذلك يومين وليلتين. ثم افاقت فقالت «لا اله الا الله! ما اعجب ما كنت فيه! لقيتُ امواتنا جميعهم وحدّثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ما قالوا ‹ان هذا القولنج ما يعود يلحقك›». فعاشت بعد ذلك المدّة الطويلة لم يلحقها قولنج

وعاشت حتى قاربت المائة سنة. وكانت محافظة لصلواتها، رحمها الله. فدخلتُ اليها في بيت افردتُه لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلاً للصلوات. فقلت «ما هذا ياامّي؟» قالت «يابُنيّ، قد مسكوا هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن وكلّما غسلتُه قد فاحت [٥٦ ق] منه رائحة الجبن». قلت «اريني الصابونة التي تغسلين(٢٠) بها». فاخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جُبن، وهي تظن أنّها صابون. وكلّما عركتْ ذلك المنديل بالجُبن قد فاحت روائحه. قلت «ياامّي، هذه(٢١) جبنة! ما هي صابونة». فنظرتها وقالت «صدقتَ، يابنيّ، ما

(٢٠) «صلي» في الاصل

(٢١) مكررة

ظننتُها الا صابوناً(٢٢)»· فتبارك الله اصدق القائلين: «ومَن نُعمّرهُ نَنكُسُه في الخَلقِ (٢٣)»

الاطالة تجلب الملالة، والحوادثُ والطوارىء اكثر من ان تُحصَر· والرغبة الى الله، عزّ وجلّ في الستر والعافية فيما بقي من الحياة، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة· فانه سبحانه اكرمُ مسؤول، واقرب مأمول

الحمد لله وحده وصلواته على سيّدنا محمّد وعلى آله وسلامه

(٢٢) «صابون» في الاصل
(٢٣) القرآن ٣٦:٦٨

الباب الثالث
اخبار الصيد

الباب الثالث

اخبار الصيد

[٥٧ و] توكّلت على الله تعالى(١)

ولله منّي جانبٌ لاأضيعُه وللّهوِ منّي والبَطالةِ جانبُ

قد ذكرتُ من احوال الحرب وما شاهدته من الوقعات والمصافّات والاخطار [ما] حضرني ذكره ولم يُنْسنيه الزمان ومرُّه، فان العمر طال ولزمتُ الانفراد والاعتزال. والنسيان من ارث متقادم من ابينا آدم، عليه السلام(٢)

وانا ذاكر فصلاً فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح

فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر. ومن ذلك ما حضرته مع ملك الامراء اتابك زنكي بن آق سُنْقُر، رحمه الله. ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك، رحمه الله. ومن ذلك ما حضرته بمصر. ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين ابي المظفّر محمود بن اتابك زنكي، رحمه الله. ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الامير فخر الدين قرا ارسلان(٣) بن داود بن أُرتُق، رحمه الله

(١) القرآن ٧٢:١٠ ولعلها حشو من الناسخ
(٢) «السلم» في الاصل
(٣) «مرارسلان» في الاصل

١ ـ الصيد في سورية والجزيرة ومصر

والد أسامة صيّاداً

فامّا ما كان بسيزر فكان مع الوالد، رحمه الله. وكان مشغوفاً بالصيد لهجاً به وبجميع الجوارح، وما يستكثر ما يغرم عليه لفرجته. فانه كان نزهته. فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله، عزّ وجلّ عند فراغه من اشغال اصحابه. وهو، رحمه الله، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن. فكان الصيد كما جاء في الخبر «روّحوا القلوب تَعي الذكر». فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه

الصيد مع زنكي

وقد شاهدت صيد ملك الامراء اتابك زنكي، رحمه الله. وكان له الجوارح الكثيرة. فرأيته ونحن نسير على الانهار فيتقدّم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدقّ الطبول كجاري العادة فتصيد منها ما تصيد وتُخطيء ما تُخطيء، ووراءهم الشواهين الكوهيّة(١) على ايدي البازداريّة. فاذا اصطادت البزاة واخطأت ارسلوا الشواهين الكوهيّة على الطيور وقد ابعدت دشب خيز(٢). فتلحق وتصيد. وتُرسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد. فانها من سرعة الطيران على صفة عجيبة

وشاهدته يوماً ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في باذنجان(٣) وبين يدي اتابك بازيار على يده باشق. فطار ذَكَرُ درّاج فارسله عليه

(١) من «كوه» الفارسية ـ جبل. راجع W. T. Blanford, *The Fauna of British India* (لندن ١٨٩٥) ٣: ٤١٥

(٢) . كذا في الاصل. «دست جبر» طبعة درنبورغ ص١٤٠

(٣) «بادنجان» في الاصل

فاخذه ونزل. فلمّا صار في الارض فرط الدرّاج من كفّه وطار. فلمّا ارتفع انتقل الباز من الارض اخذه ونزل وقد ثبّته

ورأيته [٥٧ ق] وهو فـي صيد الوحش دفعات. اذا اجتمعت الحلقة واجتمع فيها الوحش لا يقدر احد يدخل الحلقة، واذا خرج من الوحش شيء رموه. وكان من ارمى الناس. فكان اذا دنا منه الغزال رماه، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويُذبَح. وكان اوّل غزال يضرب به في كلّ صيد احضره يُنفذه لي مع غلام من غلمانه وانا معه

وشاهدته وقد اجتمعت الحلقة ونحن في ارض نصيبين على الهرماس(٤)، وقد ضربوا الخيام. فوصل الوحش الى الخيام. فخرج الغلمان بالعصيّ والعمد، فضربوا منها شيئاً كثيراً. واجتمع في الحلقة ذيب فوثب في وسطها على غزال اخذه وبرك عليه. فقُتل وهو عليه

وشاهدته يوماً ونحن بسنجار وقد جاءه فارس مـن اصحابه فقال «هاهنا ضبعة نائمة!» فسار ونحن معه الى وادٍ هناك، والضبعة نائمة على صخرة فـي سفح الوادي. فترجّل اتابك ومشى حتى وقف مقابلها وضربهـا بنشّابة رماها الى اسفل الوادي. ونزلوا جاءوا بها الى بين يديه وهي ميتة

ورأيته ايضاً بظاهر سنجار وقد جلوا ارنباً(٥). فامر فاستدارت الخيل حولها(٦). وامر غلاماً خلفه [يحمل] الوشق كما يُحمَل الفهد. فتقدم ارسله على الارنب فدخلتْ بين قوائم الخيل. وما تمكّن منها. وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد

الصيد في دمشق

ورأيت الصيد بدمشق ايّام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير. فرأيته يومـاً وقد خرجنا الـى

(٤) من روافد الخابور الذي يصب في الفرات
(٥) «ارنب» في الاصل
(٦) بالتانيث في الاصل. وربما كان المقصود الجمع

شَعراء(٧) بانياس وفي الارض عشب عظيم. فتصيَّدنا كثير"ا من اليحامير. وضُربت الخيام حلقةً ونزلنا. فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائماً في العشب فأُخذ في وسط الخيام

ورأيت ونحن عائدون رجلاً قد رأى سنجاباً(٨) في شجرة. فاعلم به شهاب الدين. فجاء وقف تحته ورماه مرتين او ثلاثاً(٩) فما اصابه. فتركه وسار شبه المغتاظ(١٠) الذي لم يصبه. فرأيت رجلاً من الاتراك جاء رماه فوسَّط النشَّابة فيه. فاسترخت يداه وبقي متعلقاً برجليه والنشَّابة فيه حتى هزّوا الشجرة فوقع. ولو كانت تلك النشَّابة في ابن آدم كان مات لوقته. فسبحان خالق الخلق

الصيد في مصر

ورأيت الصيد بمصر(١١). كان للحافظ لدين الله عبد المجيد ابي الميمون، رحمه الله، جوارح كثيرة من البزاة والصقور والشواهين البحرية. فكان لهم زمام يخرج بهم في الجمعة يومين، واكثرهم رجَّالة على ايديهم الجوارح. [٥٨ و] فكنت اركب يوم خروجهم الى الصيد لاتفرّج بنظر صيدهم. فمضى الزمام الى الحافظ وقال له «ان الضيف فلاناً(١٢) يخرج معنا» ـ كأنه يستطلع امره في ذلك. فقال «اخرج معه يتفرّج على الجوارح»

(٧) الروضة يغمّ راسها الشجر

(٨) «سنجاب» في الاصل

(٩) «ثلثه» في الاصل

(١٠) «المغاظ» في الاصل

(١١) بين عامي ١١٤٤ و١١٥٤

(١٢) «فلان» في الاصل

فخرجنا يوماً ومع بعض البازيارية باز مفرنص بيت(١٣) احمر العينين. فرأينا كراكيّ. فقال له الزمام «تقدّمْ ارمِ(١٤) عليها البازالاحمرالعينين». فتقدّم رماه. وطارت الكراكيّ فلحق منها واحداً على بعد منّا فحطّه. فقلت لغلام لي على حصان جيّد «ادفع الحصان اليه وانزل اغرزْ منقار الكركي في الارض واكتفْه(١٥) واترك رجلَيه تحت رجلَيك الى ان نصلك». فمضى وعمل ما قلت له. ووصل البازيار ذبح الكركي واشبع الباز.

فلمّا دخل الزمام حدّث الحافظ بما جرى وما قلته للغلام وقال «يامولانا، حديثه حديث صيّاد». قال «وايّ شيء شغل هذا الا القتال والصيد؟»

وكان معهم صقور يُرسلونها على البلاشيب وهي طائرة. فاذا رأى البَلْشُوب الصقر دار وارتفع. والصقر يدور في جانب اخر حتى يرتفع على البلشوب. ثم ينقلب عليه يأخذه

وفي تلك البلاد طيور يسمُّونها البُجّ(١٦) مثل الشُّحام يصيدونها ايضاً. وطيور الماء في مقطعات(١٧) النيل سهلة الصيد. والغزال عندهم قليل. بل في تلك البلاد بقر بني اسرائيل(١٨). وهي بقر صفر قرونها مثل قرون البقر وهي اصغر من البقر تعدو عدواً عظيماً. وتخرج لهم من النيل دابّة يسمّونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها صغيرتان(١٩)

(١٣) القرنصة سقوط الريش كما يطرأ لبعض الحيوان. فاذا شرعت الجوارح في القرْنصة فينبغي ان يعدّ لها بيت لا يدخله الغبار والدخان والرياح ويفرش حوله ورق الصفصاف

(١٤) «ارمى» في الاصل

(١٥) «واكتفه» في الاصل

(١٦) ذكره ياقوت ١:٨٨٥

(١٧) المواضع التي بقطع النهر فيها

(١٨) «اسرائل» في الاصل. قابل القرآن ٢:٦٤ ــ ٠٦٧ والدميري «حياة الحيوان» (مصر ١٣١٣) ١:١٣٤

(١٩) «وعسها صغار» في الاصل. عامية

وهي جرداء مثل الجاموس. لها انياب طوال في فكّها الاسفل. وفي فكّها الاعلى خروق لانيابهـا تخرج روءوسها(٢٠) مـن تحت عينيها. وصياحها مثل صياح الخنزير. ولا تبرح في بركة فيها ماء وتأكل الخبز والحيش والشعير

الصيد في عكا

وكنت قد مضيت مع الامير معين الدين(٢١)، رحمه الله، الى عكّا الى عند ملك الافرنج فلك بن فلك. فرأينا رجلاً من الجنويّة قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركيّ، ومعه كلبة صغيرة اذا ارسل البار على الكراكي عدت تحته. فاذا اخذ الكركيّ وحطّه عضّته(٢٢) فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنويّ «ان الباز عندنـا اذا كـان ذنبه ثلاث عشرة(٢٣) ريشة اصطـاد الكركـيّ». فعددنا(٢٤) ذنب ذلك الباز فكان كذلك

فطلبـه الامير معين الديـن(٢٥)، رحمه الله، مـن الملك فاخذه مـن ذلك الجنويّ هو والكلبه واعطـاه للامير معين الديـن. فجاء [٥٨ ق] معنا. فرأيته في الطريق يثب الى الغزلان كما يثب الى اللحم. ووصلنا به الى دمشق. فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات

في حصن كيفا

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الامير فخر الدين قرا ارسلان(٢٦)

(٢٠) «روسها» في الاصل
(٢١) أنَر
(٢٢) «عطه» في الاصل
(٢٣) «ثلثه عشر» في الاصل
(٢٤) «فعدنا» في الاصل
(٢٥) أنَر. وذلك حوالى سنة ١١٤٠
(٢٦) «قرارسلان» في الاصل

ابن داود، رحمه الله. وهناك الحجل والزرخ(٢٧) كثير والدرّاج. فامّا طير الماء فهو في الشط(٢٨) وهو واسع ما يتمكّن الباز منها. واكثر صيدهم الاراوي ومعزى الجبل يعملون لها شباكاً(٢٩) ويمدّونها في الأودية ويطردون الاراوي فتقع في تلك الشباك وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيّد. وكذلك الارانب

مع نور الدين

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين، رحمه الله. فحضرته ونحن بارض حماة وقد جلوا له ارنباً(٣٠). فضربها بنشّابة كشماء(٣١) وقامت وسبقت الى محجر دخلته. فركضنا خلفها، ووقف عليها نور الدين. وناولني الشريف السيّد بهاء الدين، رحمه الله، رِجْلها قد قطعتها النشّابة من فوق العرقوب وشقّت جوفها قرنة النصلة فوقع منها بيتُ الولد. وسبقت بعد هذا وانجحرت. فامر نور الدين بعض الوشاقيّة نزل وقلع خفافه ودخل خلفها. فما وصل اليها. وقلت للذي معه بيت الاولاد وفيه خرنقان(٣٢) «شُقّه واطمرْهم(٣٣) بالتراب». ففعل. فتحرّكوا وعاشوا(٣٣)

وحضرته يوماً وقد ارسل كلبة على ثعلب ونحن على قرا حصار(٣٤) بارض حلب، فركض خلفه وانا معه. فلحقت الكلبة اخذت ذنب الثعلب فرجع اليها برأسه فعضّ خيشومها. فصارت الكلبة تعوي ونور الدين، رحمه الله، يضحك. ثم خلاها وانجحر. فما قدرنا عليه

(٢٧) «وهو الطيهوج» على هامش المخطوطة
(٢٨) دجلة
(٢٩) «شباك» في الاصل
(٣٠) «ارىب» في الاصل. وفي الحاشية «يعنى راوها وهي نائمة»
(٣١) «كسما» في الاصل. ولعلها «كثماء». قابل اعلاه ص٤٦ ح٤٥
(٣٢) «خرنقين» في الاصل
(٣٣) كذا في الاصل. عامية
(٣٤) ياقوت ٤ : ٤٤

وجاءه يوماً ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد باز. فقال لنجم الدين ابي طالب بن علي كرد(٣٥)، رحمه الله «قل لفلان (يعنيني) يأخذ هذا الباز يلعب به». فقال لي. فقلتُ «ما أُحسن له». فقال نور الدين «انتم في الصيد ما كنتم تزالون. ما تُحسن تُصلح الباز؟» قلت «يامولاي، ما كنّا نصلحها نحن. كان لنا بازياريّة وغلمان يُصلحونها ويتصيّدون بها قدّامنا». وما اخذتُ الباز

(٣٥) ابن علم الدين علي كرد وهو صاحب حماة المذكور اعلاه

٢ ـ والد أسامة صيّاداً

شاهدت من الصيد مع هاوءلاء الاكابر شيئاً كثيراً ما اتّسع لي الوقت لذكره مفصلاً. وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وآلته وغيره. وما رأيت مثل صيد والدي، رحمه الله. فما ادري كنت اراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكلُّ مـا يفعل المحبوبُ محبوبُ». ما ادري اكان نظري فيه على التحقيق. وانا اذكر شيئاً من ذلك ليَحكم فيه من يقف عليه

وذلك ان والدي، رحمه الله، كان قد فرغ زمانه [٥٩ و] لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى. فكان قد نسخ ستّاً واربعين ختمة بخطّه، رحمه الله، منها ختمتان بالذهب جميع القرآن. ويركب الى الصيد يوماً ويستريح يوماً. وهو صائم الدهر

ولنا بشيزر متصيّدان: متصيّد للحجل والارانب في الجبل قبليّ البلد، ومتصيّد لطير المـاء والدرّاج والارانب والغـزلان علـى النهر فـي الازوار(١) من غربيّ البلد

وكان يتكلّف في تسيير قوم من اصحابه الى البلاد لشرى البزاة. حتى انه انفذ الى القسطنطينيّة احضر له منها بزاة. وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنّوا انه يكفي البزاة التي معهم فتغيّر عليهم البحر وتعوّقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة. فاضطرّوا الـى ان صاروا يُطعمون البزاة لحم السمك. فاثّر ذلك فـي اجنحتها(٢) صار ريشهـا ينكسر وينقصف. فلمّا وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة. وفـي

(١) الزار أو الزأرة او الزارة هـي الأجمة مـن الحلفاء. وقد وردت «الازوار» مراراً فيما يلي

(٢) «اجنحتهم» في الاصل

خدمة الوالد بازيار طويل اليد في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم. فوصل اجنحتها واصطاد بها. وقرنص بعضها عنده

مصايد البزاة

وكان اكثر ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي ابن الاحمر بالغلاء(٣). فاحضر قوماً من اهل الجبل(٤) القريب من شيزر من اهل بشيلا ويَسْمالخ وحلّة عارا وتحدّث معهم في ان يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة. ووهبهم وكساهم. فمضوا وعملوا بيوت الصيد. فاصطادوا بزاة كثيرة فراخاً(٥) ومقرنصة وزرارق. فحملوها الى الوالد وقالوا «يامولانا، نحن قد بطّلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك. ونشتهي ان تأخذ منّا كلّ ما نصيده وتقرّر لنا ثمناً نعرفه لا تجاذُبَ فيه». فقرّر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً، وثمن الزُرّق الفرخ نصفها، وثمنَ الباز المقرنص عشرة دنانير وثمن الزُرّق المقرنص نصفها. وانفتح للجبليّين اخذُ دنانير بغير كلفة ولا تعب. انما يعمل له بيتاً بحجارة(٦) وعلى قدر خلقته، ويغطّيه بعيدان ويسترها بقشّ وحشيش ويجعل نافذة. ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويندّها [!] اليه ويُخرجه من تلك النافذة. يحرّك العود فيتحرّك الطير ويفتح اجنحته. فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه. فاذا احسّ به الصيّاد جذب القضيب الى النافذة ومدّ يده قبض رجلي الباز، وهو قابض للطير الحمام، وانزله اليه وخيّط عينيه(٧). ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين

(٣) «بالغلا» وربما كان المقصود «بالعلا» اي بالعلاة اسم موضع

(٤) جبل النصيرية

(٥) «مراح» في الاصل (٦) «بب بحجار» في الاصل

(٧) يظهر من مقال في «الاثار» (رحلة ١٩٢٧) ٩:٤٧٧ ان هذه الطرق نفسها لم تزل مستعملة لليوم في جبال النصيرية. والصيد بالباز والباشق لم يزل البعض يستعملونه في سورية وكيليكيا والعراق والجزيرة العربية

فكثر الصيَّادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج: فيها ما يُتصيَّد به وفيها ما يموت على الكنادر من كثرتها

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقَّارون(٨) وكلابزيَّة. وعلَّم قوماً من مماليكه اصلاح البزاة فمهروا فيها. وكان [٥٩ ق] يخرج الى الصيد ونحن اولاده معه في اربعة رجال ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا. فانَّا ما كنَّا نأمن من الفرنج لقربهم منَّا. ويخرج معنا بزاة كثيرة من العشرة وما حولها ومعه صقَّاران وفهَّادان وكلابزيَّان، مع احدهما كلاب سلوقيَّة ومع الآخر كلاب زغارية. فيوم خروجه(٩) الى الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا اذا خرج الى طريق الجبل «تفرَّقوا. كلّ من عليه قراءة يقرأها». ونحن اولاده حفَّاظ القرآن. فنفترق نقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرا كلُّ واحد منَّا. فاذا اخبرناه يقول «انا قرأت مائة آية» او نحوها. وكان، رحمه الله، يقرأ القرآن كما أُنزل

فاذا صرنا في المتصيَّد امر الغلمان فتفرَّق بعضهم مع البازياريَّة. فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب باز يُرسل عليه(١٠). ومعه من مماليكه واصحابه اربعون فارساً اخبر الناس بالصيد. فلا يكاد يطير طير ولا يثور ارنب ولا غزال الا اصطدناه. وننتهي في الجبل نصيد الى العصر ثم نعود وقد اشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت(١١) في الجبل شربت واستحمَّت. ونعود الى البلد بعد عتمة

فاذا ركبنا الى طير الماء والدرَّاج كان ذلك يوم فرجتنا. نقع في

(٨) «صمارس» في الاصل

(٩) «فيوم لخروجه» طبعة درنبورغ ص ١٤٦. «فيوم» [اخروجه] في *Ousāma* ص ٦٣٤

(١٠) بالتذكير مع انه سبق فقال «طارت»

(١١) ج قَلْت ــ النقرة في الارض يجتمع فيها الماء

الصيد من باب المدينة ثم نصل الى الازوار فيقف الفهود والصقور برّا من الزور وندخل اليه بالبزاة٠ فان طارت درّاجة اخذها الباز٠ وان قفزت ارنب ارسلنا عليها بعض البزاة٠ فان اخذهـا والا خرجت الـى الفهود ارسلوا(١٢) عليهـا٠ وان قفز غزال خرج الـى الفهود ارسلـوا عليه(١٣)٠ فان اخذ والا ارسلوا عليه الصقور فما يكاد يفلت منّا صيد الا بفسحة الاجل

وفي الازوار خنازير كثيرة تخرج فنركض عليها ونقتلها فيكون فرحنا بقتلها اكثر من فرحة الصيد(١٤)

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والامر المهم٠ لا يشتغل احد بحديث مع صاحبه ولا لهم همّ الا التبحّر في الارض لنظر الارانب او الطير في اوكارها

الارمن يرسلون بزاة

وكان قد صار بينه وبين بني روبال ـ تروس(١٥) ولاون الارمن مـن اصحاب المصّيصة وانطرطوس واذنة والدروب ـ مصادقـة ومكاتبة اكبر سببها رغبته في البزاة٠ فكانوا يُـنفذون له كلّ سنة عدّة منعشرة بزاة او مـا حولها علـى ايدي رجّالة ارمـن بازياريّة(١٦) ويُنفذون الكلاب الزغاريّة٠ ويُنفذ لهم هو الحُصُن والطيب ومن كسوة مصر٠ فكان يجيئنا(١٧) من عندهم بزاة ملاح نادرة فاجتمع [٦٠ و] عندنا في بعض السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزاة دونه

(١٢) كدا في الاصل

(١٣) كدا في الاصل

(١٤) «فرحنا بقتلها اكبر من فرحه الصيد» طبعة درنبورغ ص١٤٧٠ والخنزير معشر نحس٠ القرآن ٥٠٤ و٦٠٦١٤

(١٥) «روبال بروس» فى الاصل

(١٦) «بازيارية» فى الاصل

(١٧) «يجيئنا» فى الاصل

وجاءنا من الجبل عدّة بزاة فيها باز كأنه صقر عريض فرخ ما يلحق بتلك البزاة. والبازيار غنائم يقول «ما في هذه البزاة كلّها مثل هذا الباز اليحشور(١٨). ما يترك شيئاً الا يصيده». ونحن لا نصدّقه. ثم أصلح ذلك الباز فكان كما ظنّ فيه من افره البزاة واطيرها واشطرها. وقرنص عندنا وخرج من القرناص اجود مما كان. وعمر ذلك الباز وفرض(١٩) عندنا ثلاث عشرة سنة. فكان قد صار كأنه من اهل البيت يصطاد للخدمة لا لما جرت به عادة الجوارح ان يصيدوا لنفوسهم

وكان مقامه عند الوالد، رحمه الله، لا يتركه عند البازيار، لان البازيار انما يحمل الباز في الليل ويجوّعه حتى يصطاد به. وذلك الباز كان يكفي من نفسه ويعمل ما يراد منه. فكنّا نخرج الى صيد الحجل ومعنا عدّة بزاة فيدفعه الوالد الى بعض البازياريّة ويقول «اعتزلْ بـه ولا تُرسلْهُ بالحمّلة وتشرّفي الجبل». فكلما خلوا(٢٠) ابصروا حجلة لابدة من شجرة قد اعلموه بها يقول «هاتوا اليحشور». ساعةَ يقيمْ يده له قد طار من على يد البازيار وقع على يده بغير دَعْوٍ. ثم يستشرف برأسه ورقبته فيقف على الحجلة النائمة ويرميها بقضيب في يده فتطير. ويُرمل عليها اليحشور فيأخذها في عشرة اذرع. وينزل اليه البازيار يذبح(٢١) في رجله ويرفعه. فيقول «اعتزلْ به». فاذا رأوا حجلة اخرى لابدة عمل بها ذلك، حتى يصيد خمس ست حجلات. كذا يأخذها في عشرة اذرع. ثم يقول للبازيار «اشبعه». فيقول له «يامولاي، ما تدعه تتصيّد به؟» يقول «يابنيّ، معنا عشرة بزاة تتصيّد بها وهذا قد اصاد(٢٢). هذه الاطلاق تقطع عمره». فيشبعه ويعتزل به البازيار

(١٨) «البحسور» في الاصل هنا وفيما يلي
(١٩) «وورص» في الاصل
(٢٠) «فكما حلوا» في الاصل
(٢١) «مدبح» في الاصل
(٢٢) كذا في الاصل. وقد وردت فيما يلي

فاذا انهينا في الصيد واشبعنا البزاة وحططناها(٢٣) على الماء شربت واستحمَّت، واليحموم على يد البازيار. فاذا استقبلنا البلد راجعين ونحن في الجبل قال «هات اليحموم» حمله على يده وسار. ان طارت حجلة من بين يديه ارسل عليهــا صادها حتى بصيد عشرة اطلاق او اكثر على قدر ما يطير له من الحجل، وهو شبعان لا يحطّ منسره في مذبح حجلة ولا يذوق دمها. فاذا دخلنا الى الدار قال «هاتوا طاسة ماء». فجاءوا بطاسة فيها ماء قدّمها اليه وهو على يده، رحمه الله، فيشرب [٦٠ ق] منها. وان كان يريد يستحمّ خضخض منسره في الماء، فيدري انه يريد يستحمّ، فيأمر باحضار جفنة كبيرة فيها ماء ويقدّمه اليها. فيطير ينزل في وسطها ويدفّ في الماء حتى يكتفي مـن السباحة ثم يطلع. فيحطّه على قُـفَّاز حسب، قد عُـمل له، كبير. ويُقرّب منه منقل نار. فيتمشّق ويتدهَّن حتى ينشف من الماء. ثم يضع له فرواً مطوياً(٢٤) فينزل اليه ينام عليه. فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائماً حتى يتهوّر الليل ويريد الوالد يدخل الى دار الحرم فيقول لاحدنا «احمله». فيُحمَل كما هو نائم على الفرو حتى يُحَطّ الى جانب فراش الوالد(٢٥)، رحمه [الله]

وكان من عجائب هذا الباز، وعجائبه كثيرة وانا اذكر منها ما يحضرني ذكره فان الامد قد طال وانستني السنون كثيراً من احواله، ان كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر واناثها وبضانيَّات(٢٦) من التي تكون بين البقر لتلقط الذبَّان من الدار. وكان يدخل الوالد وهذا الباز علـى يده يجلس على دكّة في الدار والباز على قُفَّاز الى جانبه فلا يطلب شيئاً من تلك الطيور ولا يثب اليها، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برّا من سورها نقاع

(٢٣) «وحطناها» في الاصل
(٢٤) «فرو مطوى» في الاصل
(٢٥) «الولد» في الاصل
(٢٦) . «وبضانيات» في الاصل. وهي غير واضحة

كبثار ماء(٢٧) وفيها الطيور. فيأمر الوالد البازيار وغلاماً معه يخرجا الى قريب من تلك الطيور. ويأخذ اليحشور(٢٨) على يده ويقف به على الحصن يريه(٢٩) الطيور وهو شرقيّ البلد والطيور غربيّها. فاذا ابصرها ارسله فينزل يشفّ(٣٠) على البلد حتى يخرج منه وينتهي الى الطيور. فيدق له البازيار الطبل فتَطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع أُرسل منه مسافة بعيدة

وكنا نخرج الى صيد طير الماء والدرّاج ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد. فيقول الوالد «هات اليحشور». فيأخذه وهو شبعان ويتقدّم الى الطيور يدقّ الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها. فان اصاد(٣١) وقع بيننا نزل اليه البازيار ذبح في رجله ورفعه. وان لم يصد(٣٢) وقع على بعض اكناف النهر فما نراه ولا ندري اين وقع. فنخلّيه وندخل الى البلد. ويصبح البازيار من سحر يخرج اليه يأخذه ويطلع به الى الحصن الى عند الوالد، رحمه الله، ويقول له «يامولاي، قد صقل هذا الصقيع قفاه طول الليل. وقد اصبح يقطع البولاذ(٣٣). فاركبْ ابصر ايش يعمل اليوم!»

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السُّمانة الى الوزّ السمند(٣٤) والارنب. وكان البازيار يشتهي ان يصيد به الكراكيّ [٦١ و] والحرجل ما يتركه الوالد ويقول «الحرجل والكراكيّ

(٢٧) «كبياز ماء» في الاصل
(٢٨) «اليحسور» هنا وفيما يلي
(٢٩) «يوريه» في الاصل. عامية
(٣٠) «يسف» في الاصل. شفّ طار على وجه الارض
(٣١) «اصاد» هنا واعلاه ص٢٠٢ س٢١ مما يدل على ان اللفظة بهذه الصيغة كانت دارجة يومئذ
(٣٢) «يصيد» في الاصل
(٣٣) كذا في الاصل
(٣٤) لم اعثر على وصف لهذا الطائر في كتب الحيوان ولا في معاجم اللغة

تصيدها(٣٥) بالصفور». وكان هذا الباز قد قصَّر عما نعهده من صيده سنة من السنين، حتى انه كان اذا أُرسل واخطأ لا يجيء الى الدَعْو وهو عاجز ولا يستحمّ ولا ندري ما به. ثم صلح عمَّا كان من تقصيره وصاد

واستحمّ يوماً. فرفعه البازيار من الماء وقد تفرّق ريشه بالبلل عن جانبه، واذا في جانبه سلعة في قدّ اللوزة. فاحضره البازيار بين يدي الوالد وقال «يامولاي، هذه التي قصَّرت بالباز وكادت تُهلكه». ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة يابسة. وختم موضعها. وعاد اليحنور(٣٦) الى الطيور بالسيف والنطع

وكان شهاب الدين محمود بن قَراجا صاحب حماة في ذلك الوقت يُنفذ كلّ سنة يطلب الباز اليحنور(٣٧) بمضي اليه مع البازبار يقيم عنده عشرين يوماً يتصيَّد به ويأخذه البازيار ويعود. فمات الباز بشيزر

واتّفق انني كنت قد زرت شهاب الدين الى حماة. واصبحت يوماً وانا بحماة وقد حضر القُرّاء والمكبّرون وخلق عظيم من اهل البلد. فسألت «من قد مات؟» قالوا «بنت لشهاب الدين». فاردت الخروج خلف الجنازة. فماحكني شهاب الدين ومنعني. وخرجوا قبروا الميت في تلّ صقرون(٣٨). فلمَّا عادوا قال لي شهاب الدين «تدري من هو الميت؟» قلت «قالوا: ولد لك». قال «لا، والله، بل هو الباز اليحشور. سمعت انه قد مات انفذتُ اخذته وعملت له تابوتاً(٣٩) وجنازة وقبرته. فانه كان يستحقّ ذلك»

فهدة عجيبة

وكان للوالد، رحمه الله، فهدة في الفهود مثل اليحشور في البزاة،

(٣٥) «تصدها» في الاصل
(٣٦) «التحتور» في الاصل
(٣٧) «التحسور» في الاصل هنا وفيما يلي
(٣٨) «صعرون» في الاصل
(٣٩) «تابوب» في الاصل

اصطادوها وهي وحشيه، من اكبر ما يكون من الفهود. فاخذها الفهّاد وقرمها واستحابها(٤٠). وكانت تركب ولا تريد الصيد. وكانت تُصرع كما يُصرع المصاب بعمله وتزبد. ويقدّم اليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى اذا شمّته عضّته. وبقيت كذلك مدّة طويلة نحواً(٤١) من سنة. فخرجنا يوماً الى الازوار. فدخلت الخيل الى الزور وانا واقف في فم الزور، والفهّاد بهذه الفهدة قريب منّي. فقام من الزور غزال وخرج اليّ. فدفعت حصاناً كان تحتي من اجود الخيل اريد اردّه الى الفهدة. وعاجله الحصان نَدَسَه بصدره، رماه. فوثبت الفهدة صادته. فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت [٦١ ق] «خذوا من الصيد ما اردتم!» فكانت مهما قام لها من الغزلان اخذته، ولا يستطيع الفهّاد ضبطها فتجذبه ترميه. ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقتَ ان يقول «قد وقفتْ» تجدّد عدواً أو تأخذ الغزال

وصيدُنا بشيزر الغزال الادمي، وهو غزال كبير. فكنّا اذا خرجنا بها الى العلاة والارضِ الشرقيّة، وفيها الغزال الابيض، لا تترك الفهّاد يركض بهـا حتى يمكـنها الا تجذبه ترميه، وتغير على الغزلان كأنهـا كانت ترى انهم خشوف لصغر الغزال الابيض

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد، رحمه الله. وله جارية تخدمها. ولها في جانب الدار قطيفة مطويّة تحتها حشيش يابس. وفي الحائط سكّة مضروبة يجيء الفهّاد بها من الصيد الى باب الدار يحطّها وفيها المرتفه(٤٢) وتدخل الى الدار الى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه. وتجيء الجارية تربطها الى السكّة المضروبة في الحائط. وفي الدار والله، نحو من عشرين غزال ادمي وابيض وفحول ومعزى وخشوف

(٤٠) «واسحابها» في الاصل. وقد وردت ادناه ص٢٠٩ س١٥

(٤١) «نحو» في الاصل

(٤٢) غير واضحة في الاصل ولعلها «المرْتعة» «المرفقة»

قد توالدت في الدار فلاتطلبهم ولاتروّعهم(٤٣)٠ ولاتزول عن موضعها٠ وتدخل الى الدار وهي مسيَّبة فلا تلتفت الى الغزلان

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرّح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تنفر٠ ورأيتها يوماً، وقد بالت علــى تلك القطيفة المفروشة لها، وهي تتلتلها وتضربها حيث بالت على القطيفة ولا تهرّ عليها ولا تضرّ بها(٤٤)

ورأيتها يوماً وقــد أثارت(٤٥) مــن بين يدي الفهّاد ارنبين، وقــد لحقت الواحدة واخذتها وعضّتها بفمها وتبعت الاخرى فلحقتهــا وجعلت تضربها بيدها وفمُها مشغول بالارنب الاوّلة(٤٦)٠ فوقفت عنهــا بعد ان ضربتها بيديها عدّة ضربات ومضت الارنب

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم ابو عبد الله الطُلَيطُلي النحوي، رحمه الله٠ وكان في النحو سيبويه زمانه٠ قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولّي دار العلم بطرابلس(٤٧)٠ فلمّــا اخذ الافرنج طرابلس(٤٨) نفّذ الوالد والعم، رحمهمــا الله، استخلصا الشيخ ابا عبد الله هذا ويانِــس الناسخ٠ وكان قريب الطبقة في الخطّ مــن طريقة ابن البوّاب(٤٩)٠ اقام عندنا بشيزر مدّة ونسخ للوالد، رحمه الله، ختمتين٠ [٦٢ و] ثم انتقل الى مصر ومات بها

وشاهدت مـن الشيخ ابــي عبدالله عجباً٠ دخلت عليه يومــاً لأقرأ عليه

(٤٣) عامية فصيحها «غزالاً ادميا٠٠٠ تطلبها ولا تروّعها»
(٤٤) ولعلها «تضربها»
(٤٥) «ثارت» في الاصل٠ قابل «ثوّر» ادناه ص٢١٥ س٧
(٤٦) كذا في الاصل هنا واعلاه ص٨٨
(٤٧) ابن الاثير في *Recueil* ١: ٢٧٤ وابن خلكان ٣: ٨
(٤٨) ١٢ تموز سنة ١١٠٩
(٤٩) ابو الحسن علي بن هلال الذي اشتهر بحسن خطه٠ توفّي فــي بغداد سنة ١٠٢٢ او ١٠٢٣

فوجدت بين يديه كتب النحو: «كتاب سيبويه(٥٠)»، و «كتاب الخصائص» لابن جنّي(٥١)، و «كتاب الايضاح» لابي علي الفارسي(٥٢)، و «كتاب اللُمَع» و «كتاب الجُمَل(٥٣)». فقلت «ياشيخ اباعبدالله، قرأت هذه الكتب كلّها؟» قال «قرأتُها؟ لا والله الا كتبتُها في اللوح وحفظتُها. تريد تدري: خذ جزءًا وافتحه واقرأ من اول الصفحة سطرًا واحدًا». فاخذتُ جزءًا وفتحتُه وقرأت منه سطرًا. فقرأ الصفحة باجمعها حفظاً حتى اتى على تلك الاجزاء جميعها. فرأيت منه امرًا عظيماً ما هو في طاقة البشر

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث

وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة وهو راكب في رجليه اقدام(٥٤). وفي الارض شوك كثير وقد ضرب رجليه أدماهما. وهو مشغول ينظر(٥٥) صيد الفهدة ولا يحس بتألّم رجليه ـ مشغول بما يراه من تسلّلها الى الغزلان وعدوها وحسن صيدها

باز احمر العينين

وكان الوالد، رحمه الله، محظوظاً(٥٦) من الجوارح النادرة الفارهة. وذلك أنها كانت عنده كثيرة فيَندر منها الجارح الفاره. وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيتْ احمر العينين، فكان من افره البزاة. فوصل كتاب عمّي تاج الامراء ابي المتوّج مقلّد، رحمه الله، من مصر (وكان مقامه بها في خدمة الآمر باحكام الله) يقول «سمعتُ في مجلس الأفضل

(٥٠) توفي سنة ٧٩٦م

(٥١) ابو الفتح عثمان. توفي سنة ١٠٠٢

(٥٢) ابو علي الحسن الفسوي توفي سنة ٩٨٧

(٥٣) «كتاب اللمع» لابن جنّي. و «كتاب الجُمل» اما لابي قاسم عبد الرحمن الزجّاجي المتوفى سنة ٩٥٠ او لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ١٠٨١

(٥٤) خرقٌ

(٥٥) ولعلها «ينظر»

(٥٦) «محطوط» في الاصل

ذكر الباز الاحمر العينين. والأفضل يَستخبر المحدّث عنه وعن صيده». فنفّذه الوالد، رحمه الله، مع بازياره الى الأفضل. فلمّا حضر بين يديه قال له «هذا هو الباز الاحمر العينين؟» قال «نعم يامولاي» قال «ايّ شيء يصيد؟» قال «يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد». فبقي هذا الباز بمصر مدّة ثم افلت وراح وبقي سنة في البرّيّة في شجر الجمّيز وقرنص في البرّيّة. ثم عادوا اصطادوه. فجاءنا كتاب عمّي، رحمه الله، يقول «الباز الاحمر العينين ضاع وقرنص في الجمّيز وعادوا اصطادوه وتصيّدوا به. وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة»

باز افرنجي

وكنّا يوماً عند الوالد، رحمه الله، وقد جاء انسان من فلاحي معرّة النعمان معه باز مقرنص مكسّر ريش الاجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير، ما رأيت قط بازاً مثله [٦٢ ق] وقال «يامولاي، كنت أصلي للدّلَم بالنادوف فضرب هذا الباز على دَلَمة في النادوف فاخذتُه وحملته اليك». فاخذه واحسن الى الذي اهداه. ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه(٥٧). واذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد افلت من الافرنج وقرنص في جبل المعرّة. فكان من افره الجوارح واشطرها

فرخ شاهين

وشاهدت يوماً وقد خرجنا معه، رحمه الله، الى الصيد وقد استقبلنا على بعد رجلٌ معه شيء ما تحقّقه. فلمّا دنا منّا واذا معه شاهين فرخ من اكبر الشواهين واحسنها وقد خمش يديه وهو حامله. فدلاه ومسك ساقيه(٥٨) ورجليه ـ والشاهين مدلّى منشور الاجنحة. فلمّا وصلنا قال «يامولاي، اصطدت هذا الطير وقد جئت به اليك». فسلّمه الوالد الى البازيار فاصلحه ووصل ما انكسر من ريشه. ولم يخرج مخبره مثل

(٥٧) «واسحابه» في الاصل. وقد وردت اعلاه ص٢٠٦ س٢

(٥٨) سباقا البازي قيداه

منظره. كان قد اتلفه الصيّاد بما عمل به. والشاهين هو الميزان ادنى شيء يعيبه ويُفسده. وكان هذا البازيار صانعاً مجوّداً في اصلاح الشواهين

كنّا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد، حتى الشباك والفؤوس(٥٩) والمجارف والكلاليب لما ينجحر من الصيد، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب. فاذا خرجنا من المدينة ادار شاهينين فلايزالان يدوران على الموكب. فاذا خرج احدهما(٦٠) عن القصد تنحنح البازيار واشار بيده الى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو. ورأيته وقد ادار شاهيناً على قطعة من الصلاصل نازلة في مرج. فلمّا اخذ الشاهينُ طبقته دقّ لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصلة قطعه، واخذها ونزل. فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه. واثره قد وقع على بعد في الماء لاننا كنّا بالقرب من النهر

وقال له يوماً غلام يقال له احمد بن مجير(٦١) لم يكن ممّن يركب معه «يامولاي، اشتهيتُ ابصر الصيد». قال «قدّموا لاحمد فرساً يركبه ويخرج معنا». فخرجنا الى صيد الدرّاج. فطار ذكرٌ وتثّر(٦٢) كما جرت العادة، وعلى يد الوالد، رحمه الله، اليحشور. فارسله عليه. فطار مع الارض الارض والحشيش يضرب صدره والدرّاج قد ارتفع [٦٣ و] ارتفاعاً كبيراً. فقال له احمد «يامولاي، وحياتك كان يتلاهى(٦٣) به حتى اخذه»

(٥٩) «والعوس» في الاصل. وقد وردت اعلاه ص٣٥ س٧ بالصورة نفسها مما يدل انها كانت تلفظ «الفوس» في العامية

(٦٠) «برال يدور على الموكب فادا خرج احدهما» في الاصل

(٦١) «محىر» في الاصل

(٦٢) غير واضحة في الاصل

(٦٣) «ىلاهما» في الاصل

كلاب صيد

وكان يجيئه(٦٤) من بلاد الروم الزغاريّة: كلاب جياد ذكور واناث. فكانت تتوالد عندنا وصيدها الطير طبع فيها

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي(٦٥) مع الكلابزي. فارسل بازاً على درّاجة فبنجت في غلفاء(٦٦) في جرف النهر. فارسلوا الكلاب على الغلفاء لتطير الدرّاجة، وتلك الجروة واقفة على الجرف. فلمّا طارت الدرّاجة وثبت الجروة خلفها من على ذلك الجرف فوقعت في وسط النهر، وما تعرف الصيد ولا صادت قط

ورأيت كلباً من هذه الزغاريّة وقد بنجت حجلةٌ في الجبل في بنج(٦٧) صعب وقد دخل اليها الكلب وابطأ. ثم سمعنا حشكة في داخل البنج(٦٨). فقال الوالد، رحمه الله «في البنج(٦٩) وحش وقد قتل الكلب». ثم بعد ساعة خرج الكلب يجرّ رجلَ ابن آوى، وكان في البنج(٧٠) قد قتله وجرّه اخرجه الينا

وكان الوالد، رحمه الله، سار الى اصبهان(٧١) الى دركاه(٧٢) السلطان ملكشاه، رحمه الله. فحكى لي قال «لمّا قضيتُ اشغالي(٧٣)

(٦٤) «يحيه» في الاصل

(٦٥) «الدى» في الاصل

(٦٦) «الغلفاء» الارض لم تزرع ففيها كل صغير وكبير من الكلإ. «نبجت» أو «بنجت» اختبأت او صاحت في حجرها. وقد وردت تكراراً ادناه ومرّة اعلاه ص٦٠ س١٨

(٦٧) «سح» في الاصل

(٦٨) «السُح» في الاصل

(٦٩) «البُنح» في الاصل

(٧٠) «البُنح» في الاصل

(٧١) حوالى سنة ١٠٨٥

(٧٢) بلاط. وقد وردت اعلاه ص٤٩ ح٥٨

(٧٣) كانت مهمته على ما يظهر استنجاد ملكشاه على سليمان بن قُطلُمِيْش السلجوقي الذي كان قد استولى على معرّة النعمان وكفرطاب واخذ يتهدّد شيزر

من عند السلطان واردت السفر اردت أستصحب معي جارحاً أتفرّج به في طريقي. فجاءوني ببزاة ومعها ابن عرس معلّم يُخرِج الطيور من البنج(٧٤). فاخذت صقوراً تصيد الارانب والحبارى. واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة»

وكان عنده، رحمه الله، من الكلاب السلوقية كلاب جياد. أُرسل يوماً الصقور على الغزلان والارض غبّ مطر ثقيلةٌ بالوحل، وانا معه صغير على برذون لي، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين وبرذوني لخفّتي عليه مستظهر، وقد صرعت الصقورُ والكلاب الغزال. فقال لي «ياأُسامة الحَقِ الغزال وانزل امسك رجليه الى ان نجيء». ففعلت. ووصل هو، رحمه الله، فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد، يسمّونها الحموية صرعت الغزال ـ وهي واقفة. واذا قطعة الغزلان التي اصطدنا منها قد عادت عابرة علينا. فاخذ، رحمه الله، قلادة الحمويّة وخرج يهرول بها حتى رأت الغزلان. وارسلها عليها اصطادت غزالا اخر

وكان، رحمه الله، مع ثقل جسمه وكبر سنّه وأنه لايزال صائماً يركض نهاره كلّه. وكان لا يتصيّد الا على حصان او اكديش جواد، ونحن معه اربعة اولاده نتعب ونكلّ وهو لا يضعف(٧٥) [٦٣ ق] ولا يكلّ ولا يتعب. ولا يقدر وشاقيّ ولا صاحب جنيب ولا حامل سلاح يقصر في الركض على الصيد

وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودرقتي ويجنب حصاني فلا يركض على الصيد ولا يتبعه، فيحرد الوالد عليه. فعل ذلك مرّة بعد مرّة. فقال له الغلام «يامولاي، ما ينفعك احد من الحاضرين، والعياذ بالله، مثل ابنك هذا. فدعني اكون خلفه بحصانه وسلاحه. ان احتجتَه وجدتَه. واحسبُ اني ما انا معكم». فما عاد يلومه ولا ينكر عليه كونه ما يركض على الصيد

(٧٤) «البُنج» في الاصل
(٧٥) هذه الكلمة والثلاث قبلها تكاد تكون ممحوّة في الاصل

والد أسامة يتوقّف عن الصيد ليراقب الافرنج

ونزل علينا صاحب انطاكية(٧٦) وقاتلنا ورحل عن غير صلح٠ فركب الوالد، رحمه الله، الى الصيد واخرُهم ما ابعد عن البلد٠ فتبعتهم خيلنا٠ فعادوا عليهم والوالد قد ابعد عن البلد٠ ووصل الافرنج الى البلد والوالد قد طلع على تل سكّين(٧٧) يراهم وهم بينه وبين البلد٠ وما زال واقفاً على التلّ الى ان انصرفوا عن البلد وعاد الى الصيد

الفرق بين الخيول العربية والبراذين

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في ارض حصن الجسر(٧٨)٠ فصرع منها يوماً خمسة او ستّة على فرس لـه دهماء تسمّى فرس خُرْجي(٧٩) باسم صاحبها الذي باعها(٨٠)٠ كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة وعشرين ديناراً٠ فطرد اخر اليحامير٠ فوقعت يدها في حفرة مما يُحفَر للخنازير فانقلبت عليه كسرت ترقُوَته(٨١)٠ ثم قامت ركضت قدر عشرين ذراعاً وهو مطروح٠ ثم عادت وقفت عند رأسه تنحب وتصهل حتى قام وجاءه الغلمان اركبوه٠ فهذا فعل الخيل العربيّة

وخرجتُ معه، رحمه الله، الى نحو الجبل لصيد الحجل٠ فنزل غلام له اسمه لؤلؤ، رحمه الله، لبعض شغله، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحته برذون٠ فرأى ظلّ تَركَشه(٨٢) اجفل منه فرماه وانفلت٠ فركضت والله عليه انا وبعض الغلمان من بكرة الى بعد العصر الى ان

(٧٦) تنكرد عام ١١١٠
(٧٧) «سكس» في الاصل٠ وموقعه الى الجنوب العربي من شيزر٠ Dussaud ص٢٠٩
(٧٨) على العاصي في شيزر
(٧٩) «خرجى» في الاصل
(٨٠) «ا باعها» في الاصل
(٨١) «ترقا ته» في الاصل٠ قابل اعلاه ص١١٣ ح٧
(٨٢) فارسية معناها الكنانة والجعبة٠ «تركاش» في Dozy

الجأناه(٨٣) الـى جُشار(٨٤) فـي بعض الازوار. وقام الجُشاريّه مدّوا له الحبل وقبضوه كما يُقبَض الوحش. واخذته وعدت والوالد، رحمه الله، واقف في ظاهر البلد ينتظرني ما يصيد ولا ينزل فـي داره. فالبراذين بالوحش اشبهُ ممّا هي بالخيل

شيخ يعترض على صيد الطيور

حكى لـي، رحمه الله قـال «كنت اخرج الـى الصيد ويخرج معـي الرئيس ابـو تـراب حيـدرة(٨٥) بـن قطرمتر(٨٦)، رحمـه الله. (وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربيّة). فكنّا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأُ القرآن ونحن نتصيّد حوله. فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا. فقال يوماً «ياسيّدنا انا جالس على صخرة واذا [٦٤ و] حجلة قد جاءت وهي تتهنكف وهـي معيية الى تلك الصخرة التي انا عليها. دخلتْ واذا الباز قد اتى خلفها وهو بعيد منها. فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح: عينَك عينك(٨٧) ياسيّدنا. وجاء وهو يركض وانا اقول: اللهمّ استرْ عليها. فقال: ياسيّدنا ايـن الحجلة؟ قلت: ما رأيت شيئاً، ما جاءت الى هاهنا. وترجَّل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلّع(٨٨) تحتها فرآهـا. فقال: اقـول الحجلة هاهنا تقول لا! واخذهـا ياسيّدنا كسر رجليها ورماها الـى الباز، وقلبي ينفطع عليها.»

صيد الارانب

وكان هذا لوءلوء، رحمه الله، اخبرَ الناس بالصيد. شاهدته يومـاً

(٨٣) «الحبناه» في الاصل
(٨٤) المانية ترعى ليلا ولا ترجع الى مزاربها
(٨٥) «الرسس ابو براب حيدره» في الاصل
(٨٦) «قطرمه» طبعة درنبورغ ص١٥٨
(٨٧) «عنك عنك» في الاصل
(٨٨) عامية بمعنى فتَّشَ، نظر

وكانت جاءتنا من البرّيّة ارانب جالية. فكنّا نخرج نصطاد منها شيئاً كثيراً. وكانت ارانب صغاراً حمر(٨٩) فشاهدته يوماً وقد جلّى عشرة ارانب طعن التسعة بالبالة(٩٠) اخذها. ثم جلّى ارنباً عاشرة. فقال له الوالد، رحمه الله «دعها. تقيموها للكلاب تتفرّج عليها». فاقاموها وارسلوا عليها الكلاب. فسبقت الارنبُ وسلمت. فقال لوءلوء «يامولاي، لو كنتَ تركتني طعنتُها واخذتها»

وشاهدت يوماً ارنباً قد ثوّرناها وارسلنا عليها الكلاب فانجحرت في ارض الحُبيبة(٩١). فدخلت كلبة سوداء خلفها في المجحر. ثم خرجت في الحال وهي تتعوّص(٩٢). ثم وقعت فماتت. فما انصرفنا عنها حتى تفسّخت وماتت وتهرّأت(٩٣)، وذاك انها لسعتها حيّة في المجحر

باز يصطاد زرزوراً

ومن عجيب ما رأيت من صيد البزاة انني خرجت مع الوالد، رحمه الله، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب ايّاماً. فامسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء. فرأينا طيوراً مُمرجة في مرج تحت شرف. فتقدّم الوالد ارسل عليها بازاً مقرنص بيت. فطلع مع الطيور اصاد(٩٤) منها ونزل فما رأينا معه شيئاً من الصيد. فنزلنا عنده واذا هو قد اصاد(٩٥) زرزوراً وطبق كفّه عليه فما جرحه ولا اذاه. فنزل البازيار خلّصه وهو سالم

(٨٩) كذا في الاصل. وقد وردت ادناه ص ٢١٩ س٥

(٩٠) «بالباله» في الاصل. البالة حربة او سكين طويل وهي تعريب «پالا» التركية

(٩١) «الحُسِبة» في الاصل

(٩٢) «سعوص» في الاصل

(٩٣) «وتهرت» في الاصل. وقد وردت بهذه الصيغة ص١٨٣ س١٦ مما يدل انها كانت تلفظ كذلك في العامية

(٩٤) كذا في الاصل وقد وردت اعلاه بهذه الصيغة

(٩٥) كذا في الاصل

صيد الوز والحبارى

ورأيت من الوزّ السمند [؟] حميّة وشجاعة كحميّة الرجال وشجاعتهم. وذلك اننا ارسلنا الصقور على رفّ وزّ سمند ودققنا(٩٦) الطبول، فطار. ولحقت الصقور تعلّقت بوزّة حطّتها من بين الوزّ، ونحن بعيد منها. فصاحت. فترحّل من الوزّ اليها خمسة ستّة طيور يضربون(٩٧) الصقور باجنحتها. فلولا نبادرهم كانوا خلّصوا الوزّة وقصّوا اجنحة الصقور بمناقيرهم

[٦٤ ق] وهذا ضد حميّة الحُبارى. فانها اذا قرب منها الصقر نزلت الى الارض وكيف دار استقبلته بذنبها. فاذا دنا(٩٨) منها سلحت عليه(٩٩) بلّت ريشه وملأت عينيه وطارت. وان اخطأته بما تفعله به اخذها

صيد العيمة

ومن اغرب ما صاده الباز مع الوالد، رحمه الله، انه كان على يده باز غطراف فرخ وعلى خليج ماء عيمة(١٠٠)، وهي طير كبير مثل لون البلشوب الا انها اكبر من الكركي — من طرف جناحها الى طرف جناحها الاخر اربعة عشر شبراً. فجعل الباز يطلبه. فارسله عليه ودقّ له الطبل. فطار ودخل فيه الباز اخذه ووقعا في الماء. فكان ذلك سبب سلامة الباز، والا كان قتله بمنقاره. فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعدّته مسك العيمة واطلعها. فلمّا صارت على الارض صار الباز يبصرها

(٩٦) «ودمنا» في الاصل

(٩٧) كذا في الاصل بصيغة جمع المذكر السالم هنا وفي ما يلي الى آخر الجملة

(٩٨) «دبى» في الاصل

(٩٩) قابل C. H. Stockley, *Shikar* (لندن ١٩٢٨) في *Times Literary Supplement* ١ تشرين الاول سنة ١٩٢٨

(١٠٠) طائر ماء لم اعثر على وصف له في كتب الحيوان

ويصيح ويطير عنها، ومـا عاد يعرض لها. ولا رأيت بازًا سوى ذلك اصطادها. فانها كما قال ابـو العلاء بن سليمان(١٠١) في العنقاء: «ارى العنقاء تكبر أن تُصادا»

سبع يخاف اجراس الباز

وكان الوالد، رحمه الله، يمضي الـى حصن الجسر وهو كثير الصيد فيقيم(١٠٢) فيه اياماً. ونحن معه نصيد الحجل والدرّاج وطير الماء واليحامير والغزلان والارانب. فمضى يوماً اليه وركبنا الى صيد الدرّاج فارسل بـازاً يحمله ويُصلحه مملوك اسمه نقولا(١٠٣) علـى درّاجـة ومضى نقولا يركض وراءه وقد بنج الدرّاج في غلفاء. واذا صياح نقولا قد ملأ الاسماع وعاد يركض. قلنا «مالك؟» قال «السبع خرج من الغلفاء التي وقع فيها الدرّاج فخلّيت الباز وانهزمتُ». واذا السبع ايضـاً ذليل مثل نقولا لمّا سمع اجراس الباز خرج من الغلفاء منهزماً الى الغاب

صيد السمك

وكنّا نتصيّد ونعود ننزل على بوشمير(١٠٤)، نهر صغير بالقرب مـن الحصن، وننفذ نحضر صيّادي السمك فنرى منهم العجب. فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جُبّة مثل الخشوت. ولها في الجُبّة ثلاث شعب حديد طول كلّ شُعبة ذراع. وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود الى يده يقف على جرف النهر وهو ضيّق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبة التي فيها الحديد فما يخطئها(١٠٥). ثـم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها. واخر مـن الصيّادين معه عود قدر قبضة فيه شوكة

(١٠١) المعرّي سنة ٩٧٣ ــ ١٠٥٧م
(١٠٢) «فعم» في الاصل
(١٠٣) «نقولا» هنا وفيما يلي
(١٠٤) «بو شمر» في الاصل
(١٠٥) «يحطها» في الاصل

حديد وفي طرفه الاخر خيط مسدود الى يده· ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخلّيها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يُطلع الشوكة والسمكة· [٦٥ و] واخر ينزل يسبح ويمرُّ يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يُدخل اصابعه في خواشيم السمكة، وهي لا تتحرك ولا تنفر، ويأخذها ويطلع· فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزاة

غنائم البازيار

وتوالى المطر والهواء علينا ايّاماً ونحن في حصن الجسر· ثم امسك المطر لحظة· فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد «البزاة جياع جيّدة للصيد· وقد طابت وكفّ المطر· ما تركب؟» قال «بلى»· فركبنا فما كان باكثر من ان خرجنا الى الصحراء وتفتّحت ابواب السماء بالمطر· فقلنا لغنائم «انت زعمت انها طابت وصحت حتى احرجتنا في هذا المطر!» قال «ما كان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطر؟ كنتم قلتم لي تكذب في لحيتك ما هي طيّبة ولا صاحية!»

وكان هذا غنائم صانعاً جيّداً(١٠٦) في اصلاح الشواهين والبزاة خبيراً(١٠٧) بالجوارح، ظريف الحديث طيّب العشرة، قد رأى من الجوارح ما يُعرف وما لا يُعرَف

خرجنا يوماً الى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا الجلاليّ(١٠٨) شيئاً واذا كركيّ مطروح على الارض· فنزل غلام قلّبه واذا هو ميت وهو حارّ ما برد بعد· فرآه غنائم قال «هذا قد اصطاده اللزيق(١٠٩)»·

(١٠٦) «صابع حد» في الاصل

(١٠٧) «خبير» في الاصل

(١٠٨) «الحلالى» فى الاصل

(١٠٩) ولعلها «اللذبق» في الاصل وهو ضرب من البازي لم اعثر على ذكر له في غير هذا الكتاب

فتّش تحت جناحه واذا جانب الكركيّ مثقوب وقد أكل قلبه٠ فقال غنائم «هذا جارح مثل العوسق(١١٠) يلحق الكركيّ يلصق تحت جناحه يثقب اضلاعه ويأكل قلبه»

وقضى الله سبحانه انني صرت الى خدمة اتابك زنكي(١١١)، رحمه الله٠ فجاءه جارح مثل العوسق احمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر وهو من احسن الجوارح٠ فقالوا «هذا اللزيق»٠ ما بقي عنده الا ايّاماً قلائل وقرض السيور بمنسره وطار

صيد حمير الوحش

وخرج الوالد، رحمه الله يوماً الى صيد الغزلان، وانا معه صغير٠ فوصل وادي القناطر(١١٢) واذا فيه عبيد حراميّة يقطعون الطريق٠ فاخذهم وكتفهم وسلّمهم الى قوم من غلمانه يوصلونهم الى الحبس بشيزر٠ فاخذت انا خشتاً(١١٣) من بعضهم وسرنا في الصيد، واذا عانة حمير وحش٠ فقلت للوالد «يامولاي، ما ابصرت حمير الوحش قبل اليوم٠ عن امرك اركض ابصرهم»٠ فقال «افعلْ»٠ وتحتي فرس شقراء من اجود الخيل٠ فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي اخذته من الحراميّة٠ فصرت وسط العانه فافردت منها حماراً وصرت اطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئاً [٦٥ ق] لضعف يدي وقلّه مضاء الحربة٠ فرددت الحمار حتى رددته الى اصحابي٠ فاخذوه٠ وعجب الوالد ومن معه من عدو تلك الفرس

فقضى الله سبحانه انني خرجت يوماً اتفرّج على نهر شيزر(١١٤) وهي تحتي ومعي مُقرِئٌ يُنشِد مرّة ويقرأ مرّة ويغنّي مرّة٠ فنزلت تحت

(١١٠) كذلك لم اعثر على ذكر لهذا الطائر في غير هذا الموضع

(١١١) حوالى عام ١١٣٠

(١١٢) «القناطر» في الاصل

(١١٣) «خست» في الاصل

(١١٤) العاصي

شجرة ودفعت الفرس الى الغلام فعمل فيها شكالا(١١٥)، وكان الى جانب النهر. فنفرت ووقعت في النهر على جنبها. وكلّما ارادت تقوم تعود تقع في الماء لاجل الشكال. وكان الغلام صغيراً(١١٦) لا يقدر على تخليصها، ونحن لا نعلم ولا ندري. فلمّا قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في اخر رمق. فقطعنا شكالها واطلعناها، فماتت. وما كان الماء يصل الى عضدها الذي غرقت فيه، وانما الشكال اهلكها

يخاف على البازي من الغرق

وخرج يوماً(١١٧) الوالد، رحمه الله، الى الصيد. وخرج معه امير يقال له الصّمصام من اصحاب فخر الملك بن عمّار صاحب طرابلس على سبيل الخدمة. وهو رجل قليل المخبرة بالصيد. فارسل الوالد بازّا على طيور ماء فأخذ منها طيرًا ووقع في وسط النهر. فجعل الصمصام يدقّ يداً على يد ويقول «لا حول ولا قوّة الا بالله(١١٨)». كيف كان خروجي في هذا اليوم؟»فقلت له «ياصمصام، تخاف على الباز ان يغرق؟» قال «نعم قد غرق. بطّة هو حتى يقع في الماء ولا يغرق؟» فضحكت وقلت «الساعة يطلع». فأخذ الباز رأس الطير وسبح وهو معه حتى طلع به. فبقي الصمصام يتعجّب من ذلك ويسبّح الله سبحانه ويحمده على سلامة الباز

لكل حيوان اجله

ومنايا الحيوان، مختلفة الالوان. قد كان الوالد، رحمه الله، ارسل زُرّقاً ابيض على درّاجة. فوقعت الدرّاجة في غلفاء ودخل معها الزرّق.

(١١٥) «شكال» في الاصل
(١١٦) «صعر» في الاصل
(١١٧) حوالى عام ١١٠٩
(١١٨) القرآن ١٨:٣٧

وفي الغلفاء ابن آوى اخذ الزرّق قطع رأسه٠ وكان من خيار الجوارح وافرهها

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوماً وبين يديّ غلام لي معه باشق٠ فرماه على عصافير، فاخذ عصفوراً٠ وجاء الغلام ذبح(١١٩) العصفور في رجل الباشق٠ فنفض الباشق رأسه وتقيأ دماً ووقع ميتاً٠ والعصفور في تلفه مذبوح(١٢٠)٠ فسبحان مقدّر الآجال

واجتزت يوماً من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت هناك، ومعي زربطانة٠ فرأيت عصفورًا على حائط انا واقف تحته، فرميته ببندقة فاخطأته٠ وطار العصفور وعيني الى [٦٦ و] البندقة٠فنزلتْ مع الحائط وقد اخرج عصفور(١٢١) رأسه من نقب في الحائط فوقعت البندقة على رأسه، فقتلته٠ ووقع بين يديّ فذبحته٠ وما كان صيده عن قصد ولا اعتماد

وارسل، رحمه الله، يوماً الباز على ارنب قامت لنا في زور(١٢٢) كثير الشوك، فاخذها وانفرطت منه٠ فجلس على الارض٠ وراحت الارنب٠ فركّضت انا فرساً دهماء تحتي من جياد الخيل لاردّ الارنب٠ فوقعت يد الفرس في حفرة فانقلبت عليّ٠ فملأتْ يديّ ووجهي من ذلك الشوك وانفسختْ رِجلُ الفرس٠ ثم انتقل الباز من الارض بعد ما ابعدت الارنب لحقها اصادها(١٢٣)٠ فكأنه كان قصدُه إتلاف(١٢٤) فرسي واذيّتي بالوقوع في(١٢٥) الشوك

(١١٩) «دمّج» طبعة درنبورغ ص١٦٤
(١٢٠) « بلفه مذبوح» في الاصل
(١٢١) «عصمورا» في الاصل
(١٢٢) يستعملها المؤلف بمعنى الأجمة وكمفرد «ازوار»
(١٢٣) كذا في الاصل
(١٢٤) « بلاف» او «ملاف» في الاصل
(١٢٥) غير واضحة في الاصل

صيد الخنزير

فاصبحنا يوماً في اوّل يوم من رجب صياماً. فقلت للوالد، رحمه الله «اشتهي اخرج اتشاغل بالصيد عن الصيام». قال «اخرج». فخرجت انا واخي بهاء الدولة ابو المغيث منقذ، رحمه الله، ومعنا بعض البزاة الى الازوار، فدخلنا في سوس. فقام لنا خنزير ذكر فطعنه اخي جرحه ودخل ذلك السوس. فقال اخي «الساعة يكربه الجرح ويخرج. استقبلُه اطعنه اقتله». قلت «لا تفعل. يضرب فرسك يقتلها». نحن نتحدّث والخنزير خرج يريد زوراً اخر. فالتقاه اخي طعنه في سنامه انكسرت فيه عالية القنطاريّة التي طعنه بها ودخل تحت فرس شقراء تحته (١٢٦) عُشَراء محجّلة شعلاء ضربها رماها ورماه. فامّا الفرس فانفسخت فخذُها وتلفت. وامّا هو فانفكّت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمه

وركضتُ انا خلف الخنزير. فدخل في سوس مخصب وخناث فيه باقورة نائمة ما اراها من ذلك الغاب. فقام منها ثور(١٢٧) في صدر حصاني فندمه. فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجامه. وقمت اخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر. فوقفت على جرف النهر وزرقته بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة، وكُسر الرمح فيه. وسبح الى ناحية النهر. فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبناً لعمارة بيوت في قرية لعمّي. فجاءوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لا يقدر يطلع منه. فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتى قتلوه. وقلت [٦٦ ق] لركابيّ لي «انزلْ اليه». فقلع عدّته وتعرّى(١٢٨) واخذ سيفه وسبح اليه تمّم قتله. وسحب برجله واتى به وهو يقول «عرّفكم الله بركات صيام رجب! استفتحناه بنجس الخنازير(١٢٩)»

(١٢٦) «محه» في الاصل. «مُجَبَّة» طبعة درنبورغ ص١٦٥
(١٢٧) «نور» في الاصل
(١٢٨) «وسرا» في الاصل
(١٢٩) قابل القرآن ٦:١٤٦

ولو كـان للخنزير ظفر و نـاب مثل الاسد كان اشدّ بأساً مـن الاسد٠ فلقد رأيت منها خنزيرة قد اقمناها عن جُريّات لها وواحد منها ضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهو فـي قدّ جرو القط٠ فاخذ الغلام مـن تَرْكَشه نشّابه ومال اليه طعنه بها، ورفعه في النشّابة٠ فعجبت من قتاله وضربه حافراً لفرس وهو بحيث يُحمَل في سهم نشّاب

صيد الحجل

كان من عجائب الصيد انا كنّا نخرج الى الجبل الى صيد الحجل ومعنا عشرة بزاة تتصيّد بها النهار كلّه، والباريارية مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان(١٣٠) ثلاثة مـن المماليك، ومعنا كلابزيان اسم الواحـد بُطرس والاخر زرزور بادية(١٣١) وكلّما ارسل البازيار على حجلة وينجت قد صاحوا «يابطرس!» بعدو اليهم مثل الهجين٠ كذلك النهار كلّه يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه٠ فاذا اشبعنا البزاة ورجعنا اخذ بطرس قلاعة وعدا خلف واحد من المماليك ضربه بها، اخذ الغلام قلاعة وضرب بطرس٠ فلا يزال يطارد الغلمان وهم ركاب وهو راجل ويراميهم بالقلاع من الجبل الى باب المدينة ما كأنه كان نهاره كلّه يعدو من جبل الى جبل

الكلاب الزّغارية

ومن عجائب الكلاب الزغاريّة انها ما تأكل الطيور ولا تأكل منها الا رؤوسها(١٣٢) وارجلها التي ما عليهـا لحم والعظام التي قـد اكلت البزاة لحمها

وكان للوالد، رحمه الله، كلبة سوداء زغاريّة يضع الغلمانُ بالليل على

(١٣٠) «فارسس» في الاصل
(١٣١) «باديه» في الاصل
(١٣٢) «روسها» في الاصل

رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشطرنج وهي لا تتحرّك ولا تزول حتى عمشت عيناها. وكان الوالد، رحمه الله، يَحرد على الغلمان ويقول «قد اعميتم هذه الكلبة!» ولا ينتهون عنها

واهدى الامير شهاب الدين مالك(١٣٣) بن سالم بن مالك صاحب القلعة(١٣٤) للوالد كلبة عروفاً(١٣٥) تُرسل تحت الصقور على الغزلان فكنّا نرى منها العجب

الصيد بموجب نظام

وصيدُ الصقور بالترتيب. يُرسَل في الاول [٦٧ و] المقدّم فيَعلق باذن غزال يضربه. ويُرسَل العون بعده فيضرب غزالا اخر. ويُرسَل العون الاخر فيفعل كذلك. ويُرسَل الرابع كذلك. فيضرب كلّ صقر منها على غزال. فيأخذ المقدّم اذن غزال ويُفرده من الغزلان، فترجع الصقورُ جميعها اليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها. وهذه الكلبة تحت الصقور لا تلتفت الى شيء من الغزلان الا ما عليه الصقور. فيتّفق ان يظهر العقاب فتحلّ الصقور عن الغزال، فيمضي الغزال، وتدور الصقور. فكنّا نرى تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور، وهي تدور تحت الصقور في الارض كما تدور الصقور في الهواء حلقة. ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور الى الدعو. فحينئذٍ تقف وتمشي خلف الخيل

صيد الغزلان والدرّاج

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد، رحمهما الله، مودّة ومواصلة بالمكاتبات والرسل. فنفّذ اليه يوماً يقول له «خرجت الى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة الاف خشف في يوم». وذلك ان الغزلان عندهم في

(١٣٣) «ملك» هنا وفيما يلي

(١٣٤) قلعة جعبر

(١٣٥) «عروف» في الاصل

ارض القلعة كثيرة. وهم يخرجون وقت ولاد الغزلان خيّالة ورجّالة فيأخذون(١٣٦) منها ما قد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث يقشّونها كما يُقَشّ الحطب والعشب

والدرّاج عندهم كثير في الازوار على الفرات. واذا شُقّ جوف الدرّاجة وازيل ما فيه وحُشي بالشعر لا تتغيّر رائحتها ايّاماً كثيرة

ورأيت يوماً درّاجة قد شُقّ جوفها واُخرجت فانصتها وفيها حيّة قد اكلتها نحوٌ من شبر

وقتلنا مرّة ونحن في الصيد حيّة خرج من جوفها حيّة قد بلعتها صحيحة دونها يسير. ففي طباع جميع الحيوان اعتداءُ القويّ على الضعيف

والظُّلْمُ من شِيَمِ النُّفوسِ فان تجد ذا عِفّةٍ فلعلّةٍ لا يَظْلِمُ

الخاتمة

حصرُ ذكر الصيد(١٣٧) وقد شهدته سبعين سنة من عمري غيرُ ممكن ولا مستطاع. وتضييع الاوقات في الخرافات، من اعظم عوارض الآفات. وانا(١٣٨) [٢٧ ق] استغفر الله تعالى من تضييع الصُّبابة الباقية من العمر، في غير طاعة واكتساب ثواب واجر. وهو تبارك وتعالى يغفر الخطيّة، ويجزل من رحمته العطيّة. فهو الكريم الذي لا يخيب آملُه، ولا يُردّ سائله

(١٣٦) «فياخذوا» في الاصل

(١٣٧) او «الصيد» على الهامش

(١٣٨) مكررة

آخر الكتاب

اخر الكتاب والحمد لله ربّ العالمين(١)، وصلّى الله على سيّدنا محمّد نبيّه وعلى آله الطاهرين اجمعين، وسلّم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل

وكان في اخر الكتاب ما مثاله:

قرأت هذا الكتاب(٢) من اوّله الى اخره في عدّة مجالس على مولاي
حدّي الامير الاجلّ العالم الفاضل الصدر الكامل عضد الدين(٣)
جليس الملوك والسلاطين حجّة العرب خالصة امير المؤمنين،
ادام الله سعادته. وسألته ان يجيزني روايته عنه،
فاجابني الى ذلك .وسطر خطّه الكريم به.
وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر
سنة عشر(٤) وستّمائة(٥).
صحيح ذلك. وكتب
جدّه مرهف بن
اسامة بن
منقذ،
حامداً
ومصلّيا

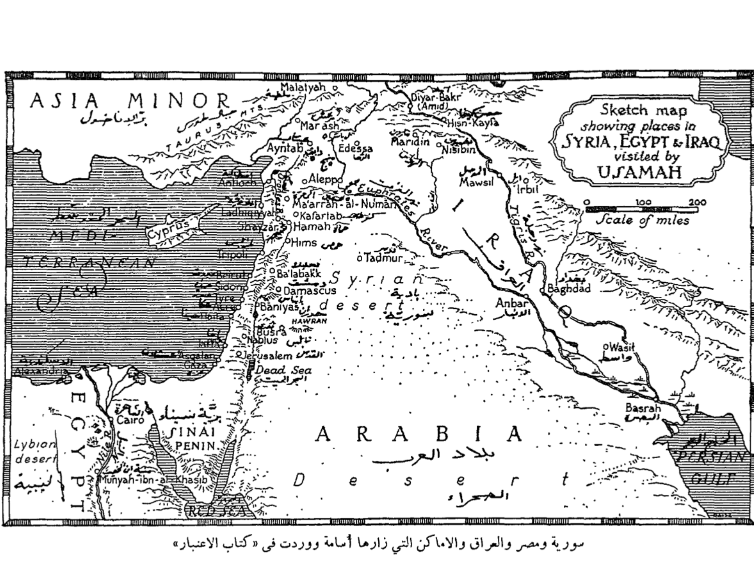
(١) «العلمس» في الاصل

(٢) الكتاب الذي نقل عنه الناسخ هذه المخطوطة

(٣) مُرهف بن أسامة وهو على ما يظهر جد صاحب الكتاب الاصلي المنقولة عنه هذه المخطوطة

(٤) «عسره» في الاصل

(٥) ٤ تموز سنة ١٢١٣



سورية ومصر والعراق والاماكن التي زارها أسامة ووردت في «كتاب الاعتبار»

فهرست الكتاب (١)

(١) لقد شاركني في وضع هذا الفهرس وفي تنقيح مسودّات الكتاب الدكتور كوستي زريق الاستاذ في جامعة بيروت الاميركية واحد تلامذة برنستون سابقاً

to Professor Harold H. Bender, chairman of the Department of Oriental Languages and Literatures, to Mr James T Gerould, librarian of Princeton University, and to the Mergenthaler Linotype Company, who together have made possible the production of such a book.

EDITOR'S NOTE

USĀMAH (A.D. 1095-1188) was a warrior, a hunter, a gentleman, and a poet, who sojourned in the courts of Nūr-al-Dīn and Saladin in Damascus, of the Fāṭimite caliph in Cairo, and of Zanki in Mosul, and who had personal contacts with Baldwin, Bohemond, Roger, Fulk, and other leaders of the first two Crusades. Aleppo, Jerusalem, and Mecca were likewise scenes of his varied activities. When not engaged in repelling Frankish, Byzantine, or Ismā'īlīyah attacks against his picturesque castle, Shayzar, on the Orontes, he was battling against Crusaders or other adversaries elsewhere, hunting lions, hawking, or writing poetry.

At the ripe age of ninety, Usāmah wrote—rather dictated—his reminiscences entitled *Kitāb al-I'tibār*, one of thirteen books which he composed. In this work he gives us a first-hand description of many of the events of which he was an eyewitness. One section he devotes to rare anecdotes, another to falconry, and a third to his impressions of the character of the Franks and their methods of medication and judicial procedure. In their simplicity of narrative, dignity and wealth of contents, and in their general human interest, these *Memoirs* stand unexcelled in Arabic literature.

Through the kind offices of the United States embassy at Madrid, a photostatic reproduction was made of the unique manuscript of *Kitāb al-I'tibār*, now preserved in the Escurial Library: and this has elsewhere been rendered into English by the writer and issued under the title *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades* (Columbia University Press, 1929). The calligraphy belongs to that of Syria in the thirteenth century and is lacking in diacritical marks and vowel signs.

In the present work the editor has collated the material with contemporaneous sources as well as modern works, especially those of Hartwig Derenbourg, has suggested a number of emendations, and added philological, geographical, and historical notes.

This being the first Arabic book to be printed in a university press in America, due acknowledgment should be made

To

JOSEPH T. MACKEY, ESQ.

PRINTED AT THE PRINCETON UNIVERSITY PRESS
PRINCETON, NEW JERSEY, U.S.A.

PRINCETON ORIENTAL TEXTS — VOLUME I

USĀMAH'S MEMOIRS

ENTITLED

KITĀB AL-I'TIBĀR

BY

USĀMAH IBN-MUNQIDH

ARABIC TEXT EDITED FROM THE UNIQUE MANUSCRIPT
IN THE ESCURIAL LIBRARY, SPAIN

BY

PHILIP K. HITTI
Associate Professor of Semitic Literature
Princeton University

PRINCETON
PRINCETON UNIVERSITY PRESS
1930

LONDON: HUMPHREY MILFORD
OXFORD UNIVERSITY PRESS

USAMAH'S MEMOIRS

ENTITLED

KITĀB AL-I'TIBAR

